نوال السعداوي

مُذكّراتي في سِجْن النِّساء

دار الآداب

مذكراتي في سجن النساء

د. نوال السعداوي/ مؤلفة مصرية

الطبعة الأولى في مصر

الطبعة الأولى لدى دار الآداب عام ٢٠٠٠

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص. ب 123 4 -11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 / 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab @ cyberia.net.lb

الإهـــــداء

إلى كل من كره الظلم حتى الموت،

وأحب الحرية حتى السجن

ورفض الكذب حتى الثورة.

وإلى كل من رفع صوته بالاحتجاج والغضب،

حين كسروا بابي بالقوة المسلَّحة

وساقوني إلى السجن في ٦ سبتمبر ١٩٨١،

إلى كل هؤلاء النساء والرجال والشباب

والأطفال... داخل مصر وخارجها...

أهدي هذا الكتاب

نوال السعداوي

القاهرة/ مارس ١٩٨٢

مقدمة الطبعة الثالثة

كتبت هذه المذكرات بعد أن خرجت من السجن منذ ثماني سنوات. هل مضت ثماني سنوات؟ كأنما كنت في الزنزانة بالأمس! وهل أنا اليوم خارج السجن؟ لماذا إذن هذا الشعور بالاختناق والانحباس؟ كانت القضبان من حديد لكنها اليوم من مادّة أخرى غير مرئية. تطوَّرت التكنولوجيا ولم تعد الأنظمة الحاكمة في حاجة إلى سجون وقلاع. نحن على أبواب القرن الواحد والعشرين وشعارات الديموقراطية مرفوعة في الغرب والشرق والشمال والجنوب. إنها موضة العصر. أمل الشعوب المقهورة وفزع الدكتاتوريّات الموروثة منذ العبودية. تناقض جذريّ عميق بين الحرية الحقيقية ونظام السلطة الهرمي. يقف فوق قمّة الهرم فرد واحد، صورته في كل مكان. في السماء والأرض. صوته الوحيد المسموع. رأيه الوحيد الصائب. من حوله بطانة من الأعوان. مجموعة من الرجال. وجوههم تتشابه في كل عصر. مشيتهم متعرّجة. ظهورهم محنّية. عيونهم لها نظرة غير مستقيمة. يزوغون عند المواجهة. ينتظرون الأوامر والتوجيهات. يملكون السياسة والصحافة والمجلاّت والأدب والفن والراديو والتلفزيون. يملكون النقد والمعارضة في حدود ما هو مسموح. يملكون

الجوائز والأوسمة والباب المفتوح إلى التاريخ والموسوعات القوميّة والبطولات الوطنية وبدلات التمثيل السخيّة وهدايا الملوك والرؤساء في الشرق والغرب والأقطار الشقيقة.

بعد أن خرجت من السجن كان أمامي طريقان. طريق الأمن والرخاء والحصول على الجائزة ولقب الكاتبة الكبيرة. أو الطريق الآخر الصعب الذي قادني إلى السجن من قبل.

واخترت الطريق الثاني. منذ الطفولة لا أطيع إلا عقلي أو الصوت المنبعث من أعماقي. لا تستسلمي، لا تسيري في مواكب النفاق. لا تكوني واحدة من القطيع أو موظفي البلاط. كوني نفسك.

لكن السجن اليوم لم يعد جدراناً مرئيّة. أصبح السجن شيئاً أتنفّسه في الهواء. حصار حول العقل ورقابة غير ملموسة ولا منظورة. لم تعد هناك قائمة سوداء، وإنما قائمة رماديّة شفّافة لا تُرى بالعين المجرّدة.

أعيش وراء جدران غير مرئيّة وأعيش الغربة والمنفى داخل الوطن. لكنني لا زلت أكتب وليس في العالم قوّة تستطيع أن تسلب مني القلم. أسكب عقلي فوق الورق حروفاً وكلمات. لكنّهم يملكون قنوات الاتصال بالناس. يسيطرون على أجهزة الإعلام والثقافة والنشر. يملأون عقول الناس بالحكايات التافهة. يستخدمون كلمة الله لإرهاب كل عقل يفكّر. يستخدمون كلمة العدالة لضرب كل من يسعى إلى العدالة. وكلمة

الديموقراطية لمصادرة الحريّة. يقتلون الإبداع في المهد. يخنقون الفكر الجديد بأصابع غير مرئية.

وفي الشارع حين أمشي أرى وجوه الشباب منكسرة حزينة. عيون ذابلة مطفأة. بطالة بلا عمل. حياة بلا أمل. وجوه الفتيات شاحبة. الخطوة متعثّرة. العقل داخل الرأس ملفوف بقماش. العالم شرقاً وغرباً يموج بالتغيّرات الهائلة. الأسوار تسقط تحت زحف النساء والرجال والشباب. النظام الهرمي الطبقي الأبوي يهتزّ فوق قاعدة عريضة بدأت تنهض وتثور وتخرج في المظاهرات. لكن هناك رأياً عاماً مهما كان، وهناك وعي رغم محاولات تزييف الوعي، ومساحة من الحرية تسمح بالحركة والتمرّد.

وهنا التمرّد عورة. هنا الوعي إثم. هنا المعرفة خطيئة. هنا الرأي العام غائب. الناس غارقة في هموم البحث عن الخبز. هنا يدخل الإنسان السجن في الظلام بلا جريمة وبلا تحقيق. هنا يموت الإنسان قبل الأوان. هنا يختنق العقل وتدفن الموهبة وشجاعة الإبداع.

لكنني لا أعرف اليأس. في خيالي حلم حياتي. أن أكتب كلمتي ويقرأها الناس. سوف يقرأها الناس اليوم أو غداً أو بعد غد. لا يهم اليوم أو الغد أو بعد الغد. فسوف يقرأها الناس.

نوال السعداوي

يناير ١٩٩٠

مقدمة

لأنني ولدت في زمن عجيب يساق فيه الإنسان إلى السجن لأنه ولد بعقل يفكر. لأنه ولد بقلب يخفق للصدق والعدالة. لأنه يكتب الشعر أو القصة أو الرواية. لأنه نشر بحثاً علمياً أو أدبياً، أو مقالاً ينادي فيه بالحريّة. أو له ميول فلسفيّة.

لأنني ولدت في هذا الزمن لم يكن عجيباً أن أدخل السجن. فأنا اقترفت الجرائم جميعاً... كتبت القصة والرواية والشعر. ونشرت بحوثاً علميّة وأدبيّة، ومقالات تنادي بالحريّة. ولي ميول فلسفيّة.

لكن الجريمة الكبرى أنني امرأة حرّة في زمن لا يريدون فيه إلا الجواري والعبيد. وولدت بعقل يفكر في زمن يحاولون فيه إلغاء العقل.

أبي كان حرّاً وأمي كانت حرّة. منذ الطفولة جرت الحريّة في عروقي مع الدم. رأيت أمي متمرّدة ترفض سلطة أبيها العسكرية وتثور على زوجها إذا ارتفع صوته في البيت. ورأيت أبي غاضباًثائراً في وجه الحكومة والملك والإنجليز. وجدّتي الفلّاحة الفقيرة سمعتها تغني ضد الظلم وضد الفقر وحزن السنين.

وأخي كان أكبر مني، وحين رفع يده عالياً ليصفعني رفعت

يدي أعلى من يده وصفعته. ولم يكرّرها. وحين أراد زوجي الأول أن يلغي وجودي ألغيت وجوده من حياتي. وحين صاح زوجي الثاني: أنا أو كتاباتي! قلت: كتاباتي! وانفصلنا. وحين انتفض وزير الصحّة غاضباً: الطاعة أو الفصل! قلت: الفصل! وفقدت منصبي.

وحين قال السادات: الحريّة ترفرف والعدالة والرخاء والسلام قلت: أين الحريّة والناس في القيود، والرقابة كالسيف على الأفكار والعقول. وأين العدالة أو الرخاء والفقراء يزدادون فقراً، والأغنياء يزدادون ثراء ويجمعون الملايين، وأين السلام وصفقات السلاح تتضاعف والحرب في لبنان تزداد ضراوة.

لم أدخل في حياتي لعبة السياسة ولا الأحزاب ولا الصحافة، ولا الانتخابات ولا الجمعيات النسائيّة برئاسة زوجات الحكام. حتى مهنة الطب هجرتها. رأيت الأطباء يشترون العزب ويشيدون العمارات بدم المرضى الفقراء. والناس تمرض بسبب الفقر والجوع والقهر وليس في الطب أقراص لعلاج هذه الأمراض.

لم يبق لي من سلاح في حياتي إلا القلم. أدافع به عن نفسي، عن حرّيتي وحرّية الإنسان في كل مكان. لم يبق لي إلا القلم لأعبّر عن مأساة الفقراء والنساء والعبيد. ولأقول للناس إنني أكره الظلم وأحب العدل. وأحترم الإنسان ولا أنحني للسلطان مهما كان. ولا أقول نعم. ولا أشترك في الاستفتاءات ولا أسمع الإذاعات ولا الخرافات وأغلق بابي دون موظفي البلاط. ولا أقدّم قرابين الولاء. ولا أطيع إلا عقلي. ولا أكتب إلا رأيي.

ولا أمشي في الزفّة. وليست لي شلّة. ولا أحضر الحفلات. ولا أتزيّن كالحريم ولا أستحم بالشامبو الأميركيّ. ولا أشرب البيرة الإسرائيلية. ويصيبني الغثيان إذا قرأت الصحف.

ربما لهذا السبب كسروا بابي بالقوّة المسلّحة وساقوني إلى السجن. ولم أندهش فالصدق في زمن الكذب لا يمكن أن يكون حراً طليقاً. ولم أفزع لكني غضبت، ورفضت أن أفتح لهم بابي بهدوء. رفضت أن أختفي في الليل دون صوت. أن أمضي في الصمت دون ضجّة. أن أساق إلى السجن أو الموت دون غضب وثورة!

ولم أخجل. ولكني زهوت. ولم لا أزهو. دولة بوليسيّة بأكملها تخاف مني. من امرأة واحدة غير مسلّحة. لم تعرف أصابعي إلا ملمس القلم. ألهذا الحدّ ترعبهم حروفي على الورق!

سأظل إذن أكتب. سأكتب وإن دفنوني في قبر. سأكتب وإن أخذوا القلم والورق سأكتب على الجدار، على الأرض. على قرص الشمس ووجه القمر.

لا شيء اسمه مستحيل في حياتي....

وحين صاح المسؤول البوليسيّ في السجن قائلاً: لو وجدت عندك طبنجة أهون عندي من الورقة والقلم، قرّرت أن يكون عندي قلم وورقة قبل أن ينتهي النهار.

كيف... لا أدري!

لكني أردت القلم والورقة بكل جزء من كياني. في حياتي كلها لم أرد شيئاً بكل جزء من كياني إلا وأخذته. . .

وقبل أن تغلق الشاويشة علينا باب العنبر الساعة الرابعة تماماً بعد ظهر ذلك اليوم كان معي القلم والورق. ليس إلا ورق تواليت، لكن حروفي واضحة وأستطيع أن أقرأ ما أكتب. . .

حين اختفت الشاويشة وضابط المباحث وزحف الليل، نهضت وجلست تحت اللمبة الكهربية الصفراء، فوق قعر الصفيحة المقلوبة، أسندت ظهري إلى الجدار وكتبت أول حروفي في السجن:

لأن الديموقراطية أكذوبة فإن الإنسان الذي يكتب الشعر أو قصة حب يمكن أن يدخل السجن.

إن قصة الحب الصادقة قد تكون في صدقها أخطر من صندوق متفجرات أو قنابل زمنية.

فهي تكشف عن بؤر الفساد في المجتمع.

إن الذين يكذبون في حجرات النوم هم أنفسهم الذين يكذبون في ردهات البرلمانات ومقاعد القيادات وصفحات الجرائد.

فالرجل لا يستطيع أن يكذب بالليل ثم يصدق بالنهار. والرجل لا يمكن أن يكون جسداً كاذباً وعقلاً صادقاً.

أما هؤلاء الذين يجمعون الكذب والصدق معاً فهم ذوو الوجوه الممسوخة والعقول الممسوخة.

المأساة التاريخية الكبرى أن هؤلاء الممسوخين هم الذين يصلون إلى مقاعد الحكم، وفي أيديهم تتجمَّع الثروة. وكلما زادت ثروتهم وأملاكهم زاد تعطّشهم للمزيد. كالمعدة المريضة لا يزيدها الماء إلا ظمأ!

ولهذا لا تكفّ الحروب في العالم، ويتكاثر عدد الممسوخين. تراهم لا يهتمون إلا بحوادث الحرب وأمور السياسة.

وكرهت السياسة وأنا طفلة، وكرهتها وأنا شابة، وكرهت الحرب، ولم تكن تشغلني أمور السياسة ولا تثيرني مانشتات الصفحة الأولى في أي جريدة.

كنت مشغولة بالفن والأدب لكني اكتشفت أن الفن والأدب لا يوجدان بغير الصدق، وأن الصدق لا يمكن أن يوجد بغير الحريّة. والحريّة لا توجد بغير الثورة.

ومن أجل الحريّة يجد الفنان نفسه في حلبة السياسة. من أجل الحريّة لا يمكن فصل الفنّ عن السياسة. والحريّة هي الثورة. حرية جميع أفراد المجتمع، رجالاً ونساء.

وإذا النساء حرمن الحرية فلا يمكن أن تكون هناك ثورة. وهل تتحقق الثورة في مجتمع يكبّل نصفه بالقيود؟

مازال الطريق إلى الحريّة أمامنا طويلاً. فالسياسة نفاق، كذب، ورجال السياسة ألوانهم مخططة، كرجال الصحافة. أخطر رجال السياسة والصحافة هم الذين يعيشون في كل عهد. يتربعون على عروش الصحافة والسياسة والفن والأدب والطب ثابتين ثبات

الشمس في مركزها. أرى ثباتهم يدور ويدور بكذب لا مثيل له. جلودهم فقط تتغيَّر، لكنهم هم لا يتغيَّرون.

إمرأة أنا. نعم. وحياتي كلها كانت صعبة منذ ولدت حتى دخلت السجن. رغم صعوبتها لم يتغيّر قلبي. لا أستطيع أن أشك في إنسان، والإنسان عندي بريء والآلهة مذنبون. الإنسان لم يخلق شريراً ولا تنطوي طبيعته على الشر. الشاويشة التي تحرسني، وتحمل مفتاح زنزانتي وثقت فيها من أول لحظة. لي حدس مخيف أعيش به منذ الطفولة، كبر معي، ومازال يكبر، وأخشى أن يكبر أكثر فأرى أكثر مما يطيق المجتمع. وبعد السجن ماذا يبقى ليفعلوه معي؟

لكني ما زلت غير راضية عن كتاباتي. فأنا لا أكتب بشكل حرّ، أو بالحريّة التي أريدها. عشت في عالم يفضل الكذب في كل شيء. في السياسة والاجتماع والأخلاق والفن والعلم. خلق فئة من الناس يملكون الكتب ولا يقرأون. والذين يقرأون منهم لا يفكرون بعقولهم، وإنما بعقول غيرهم. يبتهج الواحد منهم حين يقول إنه صديق الحاكم، أو أن الحاكم قال له كذا: لم أعثر على واحد منهم ينتمي لذاته. يفعلون في الخفاء ما لا يستطيعون أن يفعلوه في العلن. ويكتبون ما لا يعيشون.

وأشعر بالغربة حين أراهم أو أسمعهم.

أنا أكتب ما أعيش... أنا إنسانة قررت ما تريد. وعاشت ما تريد. وأصبح لي نفسي، والناس أيضاً. أصبحت أملك جزءاً من السماء، لأني أستطيع أن أحلم...

وفي السجن لم أفقد قدرتي على الحلم، والأمل، والعاصفة أيضاً حين أريد. في يوم من الأيام هدَّدت بأن أحرق العنبر والسجن كله بعود كبريت.

الأمل عندي يجمح نحو القاع أحياناً، يدخل في بطن الأرض، ثم يشدّ نفسه من جوف الحوت ويجمح باتجاه الأغصان... ويطير في السماء كعصفور...

كيف يستطيع الأمل أن يكون عندي قوياً. كيف يجد الإنسان الأمل ويشعر به. لا أستطيع أن أنام وأنا أدرك أن قنبلة ستضرب حتماً في مكان قريب. لا أستطيع أن أنام وأحلم أنني سعيدة لمدّة أربع وعشرين ساعة دون أن يقطع ذلك الحلم صوت رصاصة.

صراعات في الخارج والداخل، وداخلي أنا أيضاً، تتلاطم، تجعلني أقول أشياء أعيشها بشكل جنوني. وأقولها الآن كلمات تبدو لي صغيرة لا تعني شيئاً. ومع كل ذلك أنام وأصحو وأحلم بالثورة! الطبنجة تطلق رصاصة، والكلمات على الورق ماذا تطلق؟

السجن مكان راكد. لكن الإنسان داخل السجن لا يكون راكداً.

داخل السجن يعرف الإنسان اللون الحقيقيّ لكل الأشياء، ويكتشف الإنسان أجمل الألوان وأجمل البشر، وأقبح البشر أيضاً. إلا أن شيئاً واحداً يكتسح كل الألوان:

الأمل بانكسار الأبواب والقضبان والأقفال والانطلاق في الجو كعصفور يغرد.

الأمل هو الثورة، وهو تغريد العصفور الحرّ.

لكني ما زلت غير راضية عن نفسي. ما زلت لا أملك حريتي. لم أكتب بعد الكتاب الذي أحلم به، ولا الرواية التي تعيش معي. لم أعش حياتي التي ولدت لها، ولم أولد في الزمان المناسب. لازال كثير من الرجال والنساء في بلادنا يؤمنون أن وجه المرأة عورة. أما الثورة فهناك من يؤمن أيضاً أنها كوجه المرأة تحتاج إلى حجاب يغطيها. وهناك من يتحدث بالثورة في كل يوم، وما أكثر الثورات التي سمعنا أنها حدثت في بلادنا. ثورة وراء ثورة، وثورة تصحح ثورة. من كثرة الثورات أصبحنا نحلم بحياة ليس فيها ثورة. وفقدت الكلمة معناها. كل الكلمات فقدت معناها. التحفظ في مكان أمين هو الوضع في السجون. الثورة هي اللاثورة أو إجهاض الثورة. والأمن الغذائيّ هو التسمم الغذائيّ، وقلت لنفسي سأتوقف عن الكتابة حتى أعثر على كلمات جديدة. كلمات لم تمتهن.

هل يمكن أن الثورة تعني مزيداً من الفقر والخضوع والتبعيّة. هل يمكن أن تعني الثورة أن الإنسان صاحب البلد يصبح في بلده أقل قيمة وأقل كرامة من الأجنبيّ!

هل يمكن أن الثورة هي وضع العصافير المغرّدة في الأقفاص والسجون وإطلاق سراح الغربان والصقور والنسور وكل ذوي المخالب القادرة على القنص والخطف؟

الجزء الأول

القبـــــض

سمعت دقّة على الباب.

كنت جالسة إلى مكتبي الصغير في غرفة نومي، مستغرقة في كتابة رواية جديدة.

عقارب الساعة تشير إلى الثالثة بعد ظهر يوم الأحد ٦ سبتمبر ١٩٨١، تجاهلت الدقّة على الباب. ربما يكون البواب أو بائع اللبن أو المكوجي أو أي أحد، وسوف يعود أدراجه إذا لم يفتح أحد.

عذابي حين أجلس للكتابة هو تلك المسؤوليات الصغيرة في البيت، أو جرس الباب أو جرس التليفون. استطعت التخلص من التليفون بنزع الفيشة من الحائط. لكن الباب... هل أنزع الباب من الجدار!

هذه الرواية تعذبني. من أجلها تركت كل شيء. تفرّغت تماماً لها. مستعصية كالحب المستحيل. تريدني بكل كياني بكل عقلي

وجسدي، أو لا تعطيني نفسها على الإطلاق. الكل أو لا شيء. مثلي تماماً وبقدر ما أعطيها تعطيني. ولا تريد أن يزاحمها في عقلي وقلبي أحد. لا زوج ولا ابن ولا ابنة ولا انشغال في أي عمل، ولا حتى قضية المرأة.

بدأتها في خريف ١٩٧٨. في ذلك الوقت كنت أعمل مستشارة بالأمم المتحدة في أفريقيا. بيتي كان في أديس أبابا لكني أتجوَّل في البلاد الإفريقية بحكم عملي. ولأول مرة في حياتي أرى منابع النيل في الحبشة وأوغندة. بحيرة فيكتوريا تخيلتها وأنا طفلة. لون مياهها ورائحتها ذكرتني بمصر. حيث ولدت. أحمل مصر داخلي أينما سافرت. السيول فوق صخور الحبشة تجري أنهراً صغيرة بلون نهر النيل. لون بشرتي. وملامح الناس في أديس أبابا تشبه ملامح جدودي وأبي وعمّاتي في كفرطحلة.

الدقَّة الثانية على الباب.

لا زلت جالسة أتجاهل الدقَّة، وأتجاهل أبواق السيارات في الشارع. تجوَّلت في جميع بلاد العالم ولم أر أناساً كالمصريين يدوسون على أبواق السيارات بأيديهم بمثل ما يدوسون بأقدامهم على دوَّاسة البنزين... شقتي في الدور الخامس لكن أصوات أبواق السيارات كالصراخ... كالعويل المستمر...

في أديس أبابا كانت شقتي هادئة تطل على الهضاب الخضراء. هدوء كامل. لا صوت ولا بوق سيارة. لكن الرواية أبت واستعصت. استطعت أن أكتب البحوث العلمية والمقالات،

وكتباً عن المرأة... إلا الرواية. هذه الرواية. أمرها عجيب. تبعد عني بقدر ما أبعد عن مصر، وما أن أهبط في مطار القاهرة... وأشم رائحة التراب وعرق الناس وأبواق السيارات ووجوه الأطفال الشاحبة فوقها الذباب، وطوابيرالنساء بالجلابيب السوداء، وعيون الرجال المرهقة المنكسرة... حتى تقترب الرواية، وتقترب...

كنت أبحث عن أديب كتب أدباً عظيماً وهو خارج وطنه... عقلي يقول لي إنه ممكن، وأسافر.

لم أكن أسافر اختياراً. كنت أبحث عن وطن آخر. منذ شتاء ١٩٧٢ وأنا أشعر بالغربة في وطني. لماذا؟ لأنني كتبت كتاباً فيه أفكار جديدة.... لأني وقفت في محاضرة لي في كليَّة الطب بجامعة عين شمس وقلت رأيي في المرأة والمجتمع والطب والأدب والسياسة. وأنا لا أفصل بين أي منها.

لم أكتب إلا ما يمليه عليَّ عقلي، ولم أقل إلا رأيي أمام جموع الطلبة والطالبات. كانت القاعة مليئة بالمئات أو الألوف والكل كان سعيداً، وانتهت المحاضرة بمناقشات عميقة علمية وعدت إلى بيتي.

لكن ما حدث بعد هذه المحاضرة كان عجيباً.

طلبتني مباحث أمن الدولة وحققت معي. غضب وزير الصحة. غضبت نقابة الأطباء. غضبت دور النشر وأجهزة الإعلام.

وأصبح إسمي في القائمة السوداء.

إن أجهزة الدولة حين تغضب على كاتب تستطيع أن تمنعه من النشر وتخنق صوته فلا يصل إلى أحد. لا يمكن أن يتربع كاتب على قمَّة الأدب إلا إذا رضيت عنه السلطة.

كل شيء عندنا في يد الدولة وتحت سيطرتها المباشرة أو غير المباشرة. بالقانون الواضح أو بالقانون الخفيّ، بالعرف أو بالخوف المزمن القديم من السلطة. أحد الأدباء الكبار في جريدة الأهرام قال لي يوماً حين سألته ـ لماذا يقول لي رأياً ويكتب رأياً آخر: «إذا فصلوني من الأهرام هل تتولّين الإنفاق على أولادي في المدارس». الناس من خوف الذل في ذل...

معظم الناس عندنا موظفون حتى الأدباء، والفلاسفة.

منذ سنين طويلة لم أقرأ أدباً عظيماً، ولم أسمع عن فيلسوف واحد. اشتغلت في الأمم المتحدة لأتحرّر من الحكومة، لكني اكتشفت أن أجهزة الأمم المتحدة كأجهزة الحكومة. وخبراء الأمم المتحدة موظفون يخافون على الراتب الشهري مثل كل الموظفين. ويسود في الأمم المتحدة الرجال من الطبقات العليا والبلاد الكبرى الثرية وتهبط إلى القاع النساء من العالم الثالث.

الدقَّة الثالثة على الباب.

لا بد أنه البواب، ولن أفتح له الباب. هذا البواب لا يحترم من السكان إلا صاحب العمارة. لا يمكن أن يدق بابه ثلاث مرات وبهذا العنف. الناس في مصر تغيَّرت. لم يعد أحد يحترم إلا أصحاب العمارات والدولارات وشركات الانفتاح ومزارع

الدواجن والبيض الإسرائيليّ واللبان الأميركيّ.

كتبت استقالتي من الأمم المتحدة في خريف ١٩٨٠ لأنهي غربتي وأعود إلى مصر. لكن غربتي ظلَّت وأنا في مصر... بل زادت... وزادت غربتي في الحكومة، فكتبت استقالتي في شتاء ١٩٨١، وقلت فيها إن كل شيء أجنبي أصبح أعلى قيمة من أي شيء مصري، حتى الإنسان.

الدقّة الرابعة والخامسة، وتكرَّرت الدقّات على الباب.

لا يمكن أن يكون هو البواب. مهما استهان بالسكان المستأجرين فلن تصل به الجرأة إلى هذا الحد.

نهضت وسرت نحو الباب.

ظلال طويلة سوداء وراء الشراعة الزجاجية. وصوت أنفاس تلهث. سرت رعشة فوق جسدي. وحدي تماماً بالشقة. زوجي سافر قبل الفجر إلى قريته قرب طنطا. ابنتي وابني خرجا ولن يعودا إلا في الليل.

ربما لصوص! لكن اللصوص لا تدقّ الأبواب.

متردّدة متوجّسة لم أفتح الباب. لا أمان ولا طمأنينة هذه السنين. هتفت من وراء الباب بصوت جعلته عالياً شجاعاً: مَنْ وراء الباب؟

وجاءني في الصوت الغريب: البوليس!

دارت الأرض لحظة، وتصوَّرت أن حادثاً وقع لابني أو ابنتي

أو لزوجي وهو عائد على الطريق. لكن الصوت عدوانيّ، لا ينم عن حادث.

بأصابع مرتجفة فتحت الشراعة...

اتسعت عيناي في ذهول... عدد كبير من الرجال المسلّحين بالبنادق والسناكي. عيون حادّة تنفذ من خلال الأعمدة الحديدية الرفيعة، وصوت خشن يقول بلهجة آمرة:

- افتحي الباب!

ربما حلم. الواقع يختلط بالخيال والوعي باللاوعي، وعقلي مازال لا يصدّق أنه حقيقة.

- من أنتم.

- افتحي الباب بالأمر.

خيال لا شك. منذ طفولتي حتى اليوم لم يكلمني أحد بهذه اللهجة. لا أبي ولا أمي ولا أي إنسان دخل حياتي أو طرق بابي.

أبي لم يوجّه لي أمراً طوال حياته. كان يناقشني في كل شيء حتى وجود الله. أما الله فأنا كنت أناقشه. ولا بد أن يقنعني الله بما يقول.

تجمع الغضب في حلقي: أي أمر!

- البوليس!

- ملابسكم ليست بوليسية!

تقدّم من خلف الفرقة المسلّحة ضابط، يرتدي قبعة بوليسية، وسترة بيضاء، وفوق كل كتف قطعة ذهبية أو نحاسية تلمع، وأسنانه بيضاء تلمع في ابتسامة مؤدّبة:

- افتحي الباب من فضلك.

- لماذا.

- عندنا أمر بتفتيش بيتك.
- أريد أن أرى هذا الأمر قبل أن أفتح الباب.
- ليس معنا الأمر الآن.
- لا يمكن أن أفتح لكم دون أن أرى أمر النيابة هذا هو القانون.
- لا بد أن تفتحي الباب!
- لن أفتح الباب حتى أرى أمر النيابة!

أغلقت الشراعة. جسدي يرتعد. قلبي تحت ضلوعي يدق بعنف.

ولكن دقّات الباب كانت أشد عنفاً.

ربما كابوس. فتحت عيني لأصحو من النوم، لكني وجدت نفسي صاحية وواقفة فوق قدمي في الصالة والباب يرتجّ تحت الدقّات العنيفة.

حركت قدمي فوق الأرض إلى الأمام وإلى الخلف وتجوّلت في الحجرات الثلاث، لا أعرف ماذا أفعل.

بيتي شقة صغيرة معلَّقة في الدور الخامس بين السماء والأرض. الشارع يبعد عنها عشرين متراً تقريباً. لو قفزت من النافذة سيتهشّم رأسي فوق أسفلت الشارع. لا نوافذ تطل على جيران. البيوت في الناحية الأخرى من الشوارع البعيدة. والسيارات تندفع فوقه في سرعة البرق. أمام باب العمارة عدد من سيارات البوليس، ورجال مسلّحون. البنادق مرفوعة فاغرة أفواهها كأنها ناحيتي.

ماذا حدث. هل انقلبت الدنيا. أم أن كياني الصغير قد انقلب وتحوّل إلى عصابة خطيرة تهدِّد الدنيا.

رفعت عيني إلى السماء. السماء في مكانها ولا شيء تغير في الدنيا. لكنها دنيا شبه غائبة، لامبالية، ولا تدري شيئاً عن تلك الدقات العنيفة فوق بابي.

تركت النافذة. رأيت التليفون فوق مكتبي. رفعت السماعة وطلبت رقماً. لم أسمع الجرس. طلبت رقماً آخر. الجرس يرن بدون انقطاع. طلبت رقماً ثالثاً. الخط مشغول طوال الوقت.

الدق يزداد عنفاً. جدران البيت تهتز. في أعماقي ارتجاجة، وفي رأسي صوت يقول لي افتحي لهم، وصوت آخر ينبعث من مكان سحيق في نفسي، من عمق بعيد في ذاكرتي، في طفولتي، يقول لي بإصرار: لا تفتحي! لا تستسلمي!

في كل مراحل عمري لم أكن أطيع إلا ذلك الصوت المنبعث من أعمق أعماقي.

ولم أفتح الباب. دخلت غرفتي وارتديت ثوب الخروج. كان ثوباً أبيض. ارتديت حذائي. وضعت بطاقتي في حقيبة اليد الصغيرة، وعشرة جنيهات ومفتاح الشقة والسيارة، ومنديلاً أبيض صغيراً. أخذت أتجوّل في الشقة، غرفة ابنتي، سريرها، مكتبها، مكتبتها، صورتها داخل اطار صغير. . مضرب التنس، والكور داخل علبة. وحذاء كاوتش. دخلت غرفة ابني. سريره، مكتبه، مكتبته، صورته وهو طفل. كراريس المدرسة وأقلام ملونة، خرجت إلى الصالة، المكتبة الكبيرة، شرائط الموسيقى، رأس خشبي أسود من نيروبي. عدت إلى غرفتي، سريري، سرير زوجي، صفوف الكتب، فوق المكتب صورته وصورتي معاً. . . . صحف الصباح فوق المنضدة الصغيرة: خرج مبكراً ولم يقرأها. من عادته أن يقرأ الصحف في الصباح. لكني أتركها حتى المساء. لو قرأتها في الصباح تفسد الأكاذيب مزاجي وأفقد الهدوء المطلوب للرواية.

جذب عينيَّ في الصفحة الأولى مانشت كبير. «التحفظ على مثيري الفتنة الطائفية». قرأت منذ أيام عن أحداث الزاوية الحمراء. معركة بين مسلمين ومسيحيين قتل فيها بعض أشخاص. مصر لم تعرف أبداً المعارك الطائفية. يد خفيّة تعبث بوحدة الوطن. أيفعلون في مصر ما فعلوه في لبنان!

سمعت صوت انكسار الباب كأنه انفجار.

أحذيتهم الحديدية تدق الأرض بسرعة كجنود جيش انطلق نحو القتال. هجموا على الشقّة كالجراد الوحشيّ، أفواههم مفتوحة

تلهث، وبنادقهم فوق أكتافهم مشهرة. . . .

لم أكن أرى نفسي. لكن يبدو أن شكلي تغيّر. ووجهي تغيّر. وعيناي تغيّرتا. لا بد أن شيطاناً تقمّص جسمي. . . لأني لم أعد خائفة.

وقفت أمامهم في الصالة الصغيرة مرفوعة الرأس مستعدة لمواجهتهم حتى الموت.

تسمّروا أمامي لحظة جامدين. لا بد أن شكلي كان مرعباً. وقلت بصوت مرعب أيضاً: كسرتم الباب! هذه جريمة!

ولم أعرف ما الذي حدث. لعلّ صوتي أكّد لهم أنني امرأة ولست شيطاناً. لعلّهم فوجئوا بأنني لازلت موجودة بالشقة ولم أهرب.

أحاطوا بي وهم يلهثون. وجوه طويلة شاحبة مبلّلة بالعرق. أفواه مفتوحة تلهث. أنوف مقوّسة كمناقير الطيور الجارحة.

التفّت حولي فرقة منهم كالسلسلة الحديدية. فرقة أخرى انتشرت في الحجرات الثلاث. فتشوا أدراجي. لمحت أحدهم يمسك الرواية من فوق مكتبي. هتفت بغضب: هذه رواية. . . اتركها. . . لا تلمسها. . .

لكنّه دسّها في حقيبة معه. وصرخت بغضب: هذه جريمة أخرى!

كيف تنتزعوا مني روايتي! لا دخل لكم بها!

رجل آخر أخذ يقلّب في مفكرتي الخاصة فوق المكتب. يقرأ فيها ويداه تلعبان في ساعة مكتبي الصغيرة.

وسمعت رئيسهم يقول: خذوها إلى السيارة، وسنلحق بكم بعد أن نكمل تفتيش الشقة.

قلت له: أتفتشون الشقة في غيابي! هذه جريمة ثالثة، إذا ضاع شيء منها أنت المسؤول!

هبطنا الأدوار الخمسة. أبواب الشقق كلها مغلقة. عيون من وراء الأبواب مذعورة. . . وقفنا عند الدور الأرضي ننتظر. بقية الرجال ورئيسهم الضابط لا زالوا داخل شقتي يعبثون بأوراقي وأشيائي الخاصة. الغضب يتجمّع في حلقي كالغصّة. اقترب أحد الجيران فأبعدوه بسرعة بالبنادق.

هبط الضابط ومن حوله رجاله يحملون أوراقي ويلهثون. سار الموكب المهيب. عيونهم مليئة بالخوف والرهبة. . . امرأة تحمل طفلاً صاحت بغضب: يا خيبتكم! . . . . تشهرون البنادق في وجه امرأة! اذهبوا وحاربوا اسرائيل! فتاة من بعيد تلوح لي بيدها، لوّحت لها بيدي.

انتفض الضابط وأمر الرجال المسلّحين بركوب السيارات. قفز الرجال في السيارات حاملين البنادق على أكتافهم. أخذني الضابط إلى إحدى السيارات. طلب مني أن أصعد لأجلس بينه وبين السائق. رفضت وقلت: سأجلس بجوار النافذة.

نظر الضابط إليّ بدهشة. الآن فقط رأيت وجهه. شعر أسود

أكرت. عينان سوداوان. شارب كثيف أسود فوق الشفة العليا. شفتان ممتلئتان انفرجتا عن أسنان بيضاء وهو يقول: هذا ممنوع... هذا ضد التعليمات... صوته خشن، لكن فيه رنة ضعف، وعيناه رغم السواد الداكن اللامع فيهما استكانة ونوع من الخضوع للأوامر أو الاستسلام للقدر.

حاول أن يقنعني بالجلوس بينه وبين السائق. رفضت الجلوس بين رجلين في هذا الحر الشديد. جسدان غريبان ينزّان بعرق الكراهية. منذ البداية لا بد أن أفرض إرادتي. لا أعرف إلى أين يأخذني. السجن أو الموت. لم يعد يهمني سوى أن أجلس في المقعد الذي أريد وليحدث بعد ذلك ما يحدث.

نظر الضابط في عيني. ثبّتُ عيني في عينه. لم تطرف عيناي. عيناه طرفتا، ونظر إلى الأرض. ربما كان يفكر، ويقول لنفسه: إذا كانت الأوامر بغير عقل فأنت لك عقل ولا داعِ لإثارة الناس في الشارع.. ثم إنها امرأة ولن تقفز من باب السيارة وهي سائرة.

بدا عليه اليأس، ثم صعد أمامي وركب إلى جوار السائق، وصعدت بعده وركبت إلى جوار النافذة والباب.

تحرَّك الهواء بمجرد أن تحركت السيارة. أخذت شهيقاً عميقاً. انتصرت إرادتي. شيء بسيط لكنه هام لأنه الانتصار الأول...

الناس ما زالوا واقفين على جانب الشارع. بعض الشباب رفعوا أيديهم ولوّحوا لي. رفعت يدي ولوَّحت لهم. انتفض

الضابط على مقعده قائلاً:

- أرجوك لا تكلّمي الناس.

- أنا لا أكلم الناس.. أنا ألوّح لهم.

انطلقت السيارة. حلقي جاف. قلبي ما زال يدق لكن ضرباته ثقيلة. أطرافي باردة. أصابع يدي كما هي، وعلى ركبتي حقيبة يدي الجلديّة، وفي قدمي حذائي، نسمة منعشة تنفذ إلى وجهي من نافذة السيارة، وأمام عيني شارع الجيزة، وحديقة الحيوان، وشارع الجامعة، والسيارات، والناس في الطريق، وكل شيء من حولي كما كان.

ولكني لست كما كنت. شيء ما خطير حدث، في غمضة عين لم أعد أنتمي إلى هذا العالم خارج السيارة. ولا إلى هؤلاء الناس السائرين في الشارع أو الراكبين سياراتهم والعائدين إلى بيوتهم.

العودة إلى بيتي بدت لي كالمستحيل. أو كالانتقال من عالم إلى عالم آخر. فتحت عيني ثم أغمضتهما، وتصوَّرت أنني سأفتحهما فأجد نفسي في بيتي وقد انتهى الكابوس.

فتحت عيني ووجدتني جالسة في السيارة وإلى جواري ضابط البوليس، ومن خلفي ألمح أطراف البنادق تطل من سقف السيارة. عقلي ما زال عاجزاً عن التصديق، خلع الضابط قبعته على ركبتيه. مسح العرق فوق وجهه ورأسه بمنديل أبيض كبير وهو يقول: تعبتينا جداً يا دكتورة!

اتسعت عيناي. هل يخاطبني. وهل أنا ما زلت هذه الدكتورة. ذاكرتي بدأت تعود... كنت جالسة أكتب الرواية ثم سمعت الدقة على الباب... ثم الدقات... ثم انكسار الباب كالانفجار...

قلت بدهشة: من أتعب من!كسرتم الباب! هذه جريمة يعاقب عليها القانون.

ابتسم بسخرية: أي قانون. ألم تسمعي خطبة الأمس.

ـ أي خطبة.

ـ خطبة رئيس الجمهورية... السادات...

ـ لا أسمع الخطب.

ـ لو سمعتها لعرفت كل شيء.

ـ أعرف ماذا.

ـ تعرفين لماذا جئنا إليك وإلى أين نأخذك.

ـ إلى أين تأخذونني!

ـ لا شيء! مجرد سؤال أو سؤالين وتعودين إلى البيت.

ـ تحقيق!

ـ لا... أبسط من ذلك. مجرّد سؤال أو سؤالين وتعودين إلى البيت.

*

لو قال لي ذلك الضابط إنه يأخذني إلى السجن ربما كان الأمر محتملاً أو أقل سوءاً. على الأقل كنت سأعرف إلى أين أنا ذاهبة. المعرفة مهما كانت أقل إيلاماً من الجهل.

الجهل كالموت، بل هو الموت فعلاً، لأننا لو عرفنا الموت لما كان هناك موت ولا خوف من الموت.

الجهل هو الخوف، ولا شيء يرعب الإنسان سوى الجهل. وقد استغرقت الرحلة العجيبة من باب بيتي إلى السجن عدة ساعات عشت خلالها أغرب جهل في حياتي. كالعمياء تماماً، وكأنما ربطوا حول عيني غطاء سميكاً أسود، يحجب الضوء ويحجب الطريق ولا أعرف إلى أين أذهب. وفي كل مرّة أسأل الضابط إلى أين نذهب يردّ قائلاً: أبداً.. لا شيء... مجرد ساعة وتعودين إلى البيت.

تابعت حركة السيارة وهي تنحرف من الشارع الرئيسي وتدخل في شوارع صغيرة. نور المصابيح العالية ينعكس على نوافذ البيوت المغلقة. هدوء غريب. تعلّقت عيناي فجأة بنور يضاء في إحدى النوافذ لكن النافذة ظلت مغلقة. رجل عجوز يسير كأنه يعرج ويدخل في أحد البيوت. شاب وفتاة يسيران وأيديهما متشابكة بحذاء سور ضخم. كشف نور السيارة ظهرهما. تفككت أيديهما بسرعة واختفيا في ظل شجرة. خيِّل إليَّ أن الضابط سيهبط من السيارة ويقبض عليهما. لكن السيارة واصلت السير، والضابط ينظر إلى الأمام مستغرقاً في تتبع الطريق، ومن حين إلى حين يقول للسائق يمين شمال، شمال يمين. ثم قال أخيراً: أيوه.. هنا.. قف.

لم أعرف بالضبط أين أنا، دخلت مع الضابط إلى مبنى صغير، وصعدنا بضع درجات. رأيت رجلاً قصيراً سميناً أصلع طلب مني

بطاقتي الشخصيَّة. نقل الرجل عينيه من صورتي في البطاقة إلى وجهي وقال: تعبتينا جداً يا دكتورة... لماذا لم تفتحي لهم الباب. قلت: لم يكن معهم أمر مكتوب من النيابة. نظر إليَّ بدهشة ولاحظت أن له عيناً أصغر من عين وقال: أي أمر... ألم تسمعي الخطبة...

ـ أي خطبة!

ـ خطبة الأمس.

ـ هل أوامر النيابة أصبحت تصدر عن طريق الخطب؟ أم أن الخطب أصبحت تلغي القوانين!

أعاد إليَّ بطاقتي، وهبطت مع الضابط الدرجات، ثم سرنا خلف المبنى، وهبطنا إلى سلّم صغير، وأدخلني الضابط إلى حجرة في الدور السفلي، وأشار إلى كرسيّ خشبيّ صغير وسط الغرفة وقال: اجلسي هنا قليلاً، وسأعود حالاً.

جلست وأنا أتلفَّت حولي. ظهر رجل عجوز عند الباب كأنما انشقَّت الأرض عنه، ورأيته يرفع يده إلى أعلى كأنه يحييني. كدت أرفع يدي لأردَّ على تحيَّته لولا أنني أدركت أنه يؤدي التحيَّة للضابط الذي اختفى.

ظلَّ الرجل واقفاً بالباب، يسعل بشدَّة، وعروقه في عنقه نافرة. حول العنق ياقة مسودَّة بعرق قديم. لون سترته تحت ضوء اللَّمبة الخافت يميل إلى الصفرة. وعلى كتفه شيء أشبه بالشريط، وعلى صدره ثلاثة أزرار نحاسيَّة بلون الصدأ، تدلى أحدها بخيط رفيع يوشك أن يسقط. مسح الرجل عينيه بكم سترته، ورأيت في يده

سبحة صفراء، وفي قدميه شبشب بلاستيك.

ظلَّ واقفاً ناحية الباب وظهره ناحيتي، وصوت أنفاسه يأتيني رتيباً متَّصلاً كهواء مضغوط يخرج من ثقب في عنق زجاجة مغلقة... يحرِّك السبحة بين أصابعه: الله... الله... الله...

كلمة الله لم تكن صوته، وإنما حركة صدره وهي تعلو وتهبط مع أصابعه. طرقعة أصابعه مسموعة. ابتلعت لعاباً جافاً مراً.

قلت: هل عندك قليل من الماء؟

استدار نحوي. وجهه مليء بالتجاعيد. جرى بظهر محنيّ قليلاً إلى ركن مظلم وعاد بقلة من الفخار عنقها مكسور، ومن حول الفوهة بقع سوداء على شكل شفاه، ورائحة عطنة تنبعث منها. ترددت والقلَّة في يدي أقربها من فمي، قال الرجل بعنف: اشربي هذا ماء زمزم، والله أحسن ناس تشرب من قلتي، أخذ القلة من يدي ورفعها إلى فمه. الماء يكركر في فمه، مسح فمه بيده وخبَّأ القلة في الركن، ثم جلس على دكة خشبية وراح يكلم نفسه: أملأها كل صباح من الطرنبة في بيتي. لا أشرب من ماء الصنبور هذه الأيام. مواسير المياه فيها.. أعوذ بالله.. ربنا غاضب هذه الأيام على الناس. كنت أضع القلة في النافذة لتبرد،لكن كل من كان يمرّ في الشارع يرفعها إلى فمه ولا يبقى لي شيء. الدنيا تغيَّرت. لم أكن أحمل هم القلة ولا الماء. كنت أصعد إلى دورة مياه المدير في الدور الأول وأتوضأ. لكن الماء أصبح ينقطع حتى عند المدير الكبير. رجل طيِّب متواضع ليس كالمدير

السابق. لعنة الله عليه... حصل على ترقية كبيرة وانتقل من هنا إلى مكتب الرئاسة والحمد لله...

وسمعت فجأة صوتاً خيِّل إليّ أنّه صرخة ألم، صوتاً رنَّ في أذني حاداً لم أعرف أنه صوت فتاة أو فتى أو طفل ودقَّ قلبي بعنف. ظننت أنه صوت ابني أو ابنتي. بعقلي الواعي كنت أدرك أن السيارة حملتني بعيداً عن بيتي بأكثر من عشرة كيلومترات، ولا يمكن أن أسمع صوت أحد في بيتي حتى وإن صرخ. لكنني نهضت واقفة على قدمي، خفقات قلبي أسمعها بأذني، وعرق كسائل لزج جعل الثوب يلتصق بجسدي، وقلت للرجل: أتظن أنني سأبقى هنا كثيراً؟...

حملق الرجل فيّ بعينين صغيرتين حمراوين خاليتين من الرموش، ثم قال وهو يستدير نحو الباب: الله أعلم...

قلت: ألا يوجد تليفون هنا لأتّصل بالبيت؟... أريد أن أطمئن أسرتي إلى أنني هنا...

لم أعرف تماماً ماذا قصدت بكلمة «هنا»، لكن الرجل حملق فيَّ مرة أخرى بدهشة أشد ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة شبه ساخرة وقال: «تليفون! لا يوجد هنا تليفون» ثم أطبق شفتيه بسرعة كأنما أفشى لي سراً ليس له أن يفشيه وقال: أنا لا أعرف شيئاً هنا، ولا أعرف هل يوجد تليفون أم لا يوجد تليفون. هذه كلها أمور علمها عند ربي، وما دمت وصلت إلى هنا فكل شيء علمه عند الله.

مددت ذراعي في الظلمة لأنظر إلى الساعة فوق معصمي، وأنا أقول للرجل: كنت وحدي بالبيت حين جاؤوا ولا بد أن زوجي وابنتي وابني عادوا الآن ويبحثون عني، ثم أنا لا أعرف لماذا يقبضون عليَّ، ولماذا يتركونني هكذا أنتظر، ولا أحد يقول لي إلى أين أذهب. لا بدَّ أنهم يخفون عني شيئاً لا يريدون أن أعرفه.

وقال الرجل وهو يمدّ ذراعه ويكشف عن جرح قديم ربطه بقطعة من الشاش المتّسخ: «إنهم لا يخفون عنك شيئاً يعرفونه. إنهم لا يعرفون شيئاً يا ابنتي، وينتظرون مثلك تماماً. الكل ينتظر، أمر ربنا. ماذا يفعل الواحد ولكل واحد مهمَّة محدَّدة. أيام زمان كان الأمر يأتي مكتوباً...

كان عقلي شارداً، لكن أذني التقطت كلمة «مكتوباً» وكنت قد سمعت من قبل عبارة «أمر ربنا» وتساءلت بصوت كأني نائمة: أمر ربنا كان يأتي مكتوباً؟! لكن ما أن سمعت صوتي يرنّ في الغرفة الخالية حتى أدركت أنني يقظة وتذكرت ما حدث وقلت: لم أفتح لهم الباب.. لم يكن معهم أمر مكتوب!

وأطبق الرجل جفنيه على عينيه وقال: «كان الأمر يأتي إليهم مكتوباً، لكن هذه الأيام الوقت ضيِّق وكل شيء يمشي بسرعة والأمر يأتي مستعجلاً عن طريق البرق. ويوزع على الجميع على شكل برقية عاجلة. والبرقية لا تكون مكتوبة بخط اليد ولا مضروبة بالمكنة، ولا أحد يعرف من أرسل البرقية إلا المدير الكبير. وهو أيضاً لا يعرف، لأنه يسمع الصوت في التليفون ولا

يعرف صاحب الصوت لكنه يعرف اللهجة ويعرف أنه أمر أتى من فوق، وعليه التنفيذ فوراً، وبسرعة يدقّ المدير الجرس ويجمع ضباطه. الضباط هنا قلوبهم طيبة، وهذا الضابط الذي دخل معك رجل طيّب جداً، من أسرة طيّبة. أبوه تربى في قصر الملك، وخاله الآن في قصر الرئاسة في عابدين. كلهم ناس لهم أصل، وإذا قال لك الواحد منهم إنه لا يعرف فاعلمي أنه صادق لا يكذب. فهو لا يعرف شيئاً والمفروض ألا يعرف، وإلّا تسربت أسرار الدولة خارج الدولة، وهذا شيء خطير يحاسب عليه المدير الكبير شخصياً. وأنا يا راجل يا صغير، أنا أيضاً أحاسب على أي شيء كبير أو صغير. عندنا هنا لا شيء صغير. والمفروض أن أعرف الصغير من الكبير، لكن المدير نفسه لا يعرف. الدنيا تتغير بسرعة والشيء الصغير يصبح كبيراً دون أن يعرف، ودون أن يقول له أحد. وأنا لا يقول لي أحد شيئاً. مجرّد أربع كلمات بالعدد: «افتح الغرفة وانتظر التعليمات» وأقول لزوجتي أن عندي طوارىء. قد أغيب أسبوعاً أو شهراً. كانت تظن أني متزوّج من امرأة ثانية لكن الزواج يحتاج إلى مال، وأنا والحمد لله ليس عندي إلا الستر، ولقمة الحلال أطعمها هي وأولادها السبعة، كلهم في المدارس والحمد لله، وأشكر الله والحكومة لأن التعليم بالمجان، لكن الأحذية. . . الحذاء الواحد أصبح ثمنه يساوي مرتبي في شهر واحد. وأقول يا رب سبعة أحذية. وشبشب بلاستيك لي. هذا الشبشب في قدمي ثمن حذاء، وعندي حذائي القديم، أوفره للمناسبات، أو حين أصعد لمقابلة المدير، لكن عندي رئيس بثلاث شرائط لا يخاف الله،

قال للمدير إنني أرتدي الشبشب في أوقات العمل الرسميّة، وطلبني المدير، وصعدت إليه وفي قدمي الحذاء، ورأيته جالساً بالقميص والبنطلون بدون الجاكته. لا يرتدي الجاكته في الصيف إلا إذا جاءنا أحد من مكتب الوزير، وألهمني الله فقلت له يا سعادة البيه أنا لا أخلع الحذاء إلّا لأتوضأ وأصلي، وأنا أصلي خمس مرّات، وأتوضأ خمس مرات، فالدنيا صيف وحر وعرق ولا مؤاخذة عندي غازات في الأمعاء بسبب عسر الهضم فأنا رجل فقير إلى الله وعندي ستة عيال وأمهم.

صوته خافت بعيد كأنه ينبعث من بطن الأرض. آلام حادّة في ظهري وأنا جالسة على كرسيّ خشبيّ صغير بدون ظهر. نهضت وبدأت أتمشى في الغرفة. أفرد ذراعي وساقي وأحرّك عنقي ورأسي.

قلت له: إلى أين ذهب الضابط؟ ألا تعرف ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ وقال الرجل وهو يتمطى ويتثاءب: وهل يعرف أحد منا ما الذي سيحدث له حتى يعرف ما الذي سيحدث لغيره؟ هذه كلها أمور بيد الله! وما دمت قد وصلت إلى هنا فلا تتعبي نفسك في التفكير في الغد. إن أمرك لم يعد بيدك وإنما بيد أخرى. وعليك أن تنتظري. كلنا ننتظر! من منا لا ينتظر؟ أنا أنتظر مثلك لأعود إلى زوجتي وأولادي ولا أعرف متى أعود ولا هم يعرفون. الصبر طيّب. ومن صبر نال. اسمعي كلام رجل عجوز اشتغل في هذا المكان ثلاثين عاماً. لا فائدة من التفكير. اتركي عقلك وراءك ولا تفكري في شيء. وما دمت قد وصلت إلى هنا

فاعرفي أن هناك من يفكر لك، وكلما قلّ تفكيرك في أمر نفسك مرّت الساعات أسرع وأسهل، وما دمت تؤمنين بالله والرسول فلا خوف عليك، الله لا يتخلّى أبداً عن عبيده، وربما لا تصدّقي أن المدير الكبير حين صعدت له ذلك اليوم وفي قدمي الحذاء نظر إلي رئيسي ذي الشرائط الثلاث وقال له إنني أرتدي الحذاء. وقال رئيسي: إنني أخبىء الشبشب وتصوّرت أن المدير سيأمر بتفتيش الغرفة لكنه لم يأمر بالتفتيش وضحك فجأة، ولم أعرف هل أضحك مثله، فالمفروض أنني أضحك حين يضحك وإن لم يكن هناك شيء مضحك، وقلت له يا سعادة البيه الدنيا حر وأنا أخلع الحذاء من شدّة الحر كما تخلع سعادتك الجاكته، ولم يغضب مني المدير وظلّ يضحك ويقول لرئيسي أليس في قلبك رحمة على هذا الرجل العجوز، أقسم بالله العظيم لم أر في حياتي أطيب من هذا المدير، ولن أرى إنساناً عنده كل هذه الرحمة في قلبه، وظلّ يضحك، وأنا أيضاً ضحكت وأقول لنفسي لا بد أن هناك شيئاً مضحكاً.

وسمعته يضحك كأنه يسعل، ويهزّ رأسه كالمختنق بغصّة في حلقه، ومسح عينيه الدامعتين من الضحك أو السعال بكف كبيرة مشقّقة، ظلت تخفي وجهه طويلاً كأنه أغمض عينيه ونام، لكن كفّه هبطت من فوق وجهه مبلّلة بدموع أو عرق غزير. . .

الغرفة كانت مختنقة بهواء راكد لا يتحرّك، ورائحة تشبه التراب أو بطن الأرض، والعرق الغزير ينساب فوق وجهي وعنقي وظهري كخيوط رفيعة تتحرك وتزحف فوق جسدي كالكائنات

الحيّة. وكنت لا أزال أتمشى في الغرفة ذهاباً وإياباً كحيوان محبوس داخل قفص، وتوقفت فجأة وأنا أقول للرجل: أريد أن أذهب إلى دورة المياه. وردّ الرجل على الفور: لا توجد هنا إلا دورة مياه واحدة، وهي في الدور الأول، بجوار مكتب المدير، ولا أحد يدخلها من غير المديرين، أو على الأقل من الرجال، فما بال امرأة مثلك. . .

وسرى الغضب المفاجىء كالقشعريرة فوق جسدي وانتفضت أو ربما قفزت في الهواء كفرخة مذبوحة وقلت: ماذا تقصد بقولك امرأة مثلي؟ أتظن أنني امرأة أقل من الرجال؟! أنا امرأة أكثر احتراماً من أي رجل هنا بمن فيهم مديرك الكبير!

ولم يظهر على الرجل أي تغيّر وقال بصوته الخافت وكأنه ينبعث من قبر أو من جسد شخص ميّت: «لا يأتي إلى هنا إلا الناس المحترمة، أما الناس غير المحترمة فلا يأتون عندي، ويذهبون إلى غرفة أخرى في المبنى الآخر، والحارس عليهم أقل مني درجة، وهو الذي يكنّس الغرفة ويمسح ولا يرتدي الزي الرسميّ مثلي. الحارس هنا محترم، لأن الناس التي تأتي هنا كلها محترمة! وزراء جاؤوا هنا وأكبر من وزراء! كلهم محترمون ويعاملونني باحترام. ينادونني بكلمة أستاذ. أما هناك فالناس كلها غير محترمة، ويبيت في الغرفة مائة شخص أو أكثر، بعضهم يبُول وهو نائم أو جالس، والحارس هو الذي يمسح ويكنّس، أما هنا، هنا. نعمة، أنت في نعمة ولا تكفري بنعمة الله، قولي الحمد لله! وابتسمي هكذا ولا تكشري! من يأتي إلى هنا ويكشّر

يعرِّض نفسه للمتاعب. إنهم لا يحبون من يغضب، ولا يحبون أيضاً من يظهر الفرح، لا تغضبي ولا تفرحي وتقبَّلي كل شيء بهدوء دون أن تبتسمي في سرور أو تغضبي أو تحزني، فالحزن يضايقهم أيضاً، لأنهم يتصورون أن الناس تحزن لأنها تكرههم، وهذا غير صحيح، لأن الناس التي تأتي هنا لا تكرههم، كلهم ناس محترمون لا تعرف الكره ولا الحقد، وليس في قلوبهم إلا الحب والإيمان بالله!

وتوقف الرجل عن الكلام كأنما مات فجأة، ورفعت عيني إليه. كنت قد جلست مرة أخرى وسقط رأسي فوق صدري ربما غفوت. تجمَّد الرجل لحظة وهو واقف كالتمثال ثم خبط قدميه إحداهما بالأخرى ورفع ذراعه إلى أعلى ولامست يده رأسه، وظلَّ واقفاً هكذا ولم أعرف ماذا حدث. لكنني رأيت ضابطاً جديداً يدخل إلى الغرفة ويقول لي:

هيا بنا.

ـ وقلت: إلى أين؟

ـ وقال: أبداً.. لا شيء.. مجرَّد ساعة أو ساعتين وتعودين إلى البيت!

*

لا أدري كيف صدَّقته حين قال لي ستعودين إلى البيت بعد ساعة أو ساعتين. تصوَّرت أنه لا يمكن أن يكذِّب. لم تكن ملامحه توحي بالكذب، أو هكذا خيِّل لي، ولم أكن أفقت بعد من الإغفاءة في الغرفة الخانقة في بطن الأرض. ولا زال صوت

الرجل العجوز في أذني كصوت الشياطين أو الملائكة يحاسبون الموتى في القبور، والتجاعيد ملأت وجهه كوجه جدتي حين كانت تحكي لنا ونحن أطفال عن عذاب القبر.

خرجت من باب الغرفة. لفحني تيار هواء شديد، دفعني بقوَّة أمام الضابط ورأيت السيارة تنتظر، تصورت فعلاً أنه سيأخذني إلى البيت بعد ساعة أو ساعتين، وأنني سأغلق عيني وأفتحها وأرى بيتي وزوجي وابنتي وابني.

وكنت أحملق في وجه الضابط في تلك اللحظة. كان يبتسم وعلى وجهه ذلك التعبير عن الحرج أو الخجل، وفي عينيه نظرة إنسانية غريبة، لا توحي أبداً أنه رجل بوليس، أو رجل كاذب، أو رجل غريب عني. كأنني رأيته من قبل، وملامحه مألوفة وسألني والسيارة سائرة: هل أشتري لك زجاجة كوكاكولا، لا بد أنك تشعرين بالظمأ! قلت وأنا أكاد أضحك كطفلة: سأموت من الظمأ!

وأوقف السيارة، وأرسل السائق ليشتري. لاحظت أيضاً أنه ليس السائق السابق، لكني لمحت من خلال نافذة صغيرة وراء ظهري عدداً من الرجال المسلَّحين يركبون معنا في الخلف. عاد السائق ومعه زجاجتان من الكوكاكولا ورغيفان فينو داخل كل منهما قطعة من الجبن الرومي. لم أكن جائعة لكن الضابط دسَّ الرغيف في حقيبة يدي وهو يقول: ستجوعين فيما بعد.

ملأني رده بالريبة والشك وثقل قلبي بإحساس غامض، إنني

ذاهبة إلى مكان سأجوع فيه. لكنني طردت الريبة والشك، وتصوَّرت أن ملامح الضابط صادقة وبريئة، ولم أدرك أنني كنت أرسم له ملامح من عندي، وأن الأمل في عودتي إلى بيتي جعلني كالعمياء لا أرى أن السيارة تتجه بي في طريق آخر.

كالعمياء تماماً لم أر أن مدينة القاهرة كلها أصبحت وراء ظهري، وأن الشارع الذي نسير فيه ليس شارعنا، رأيته يشبه شارعنا، ومن البعد رأيت وجهاً يشبه وجه ابني يطلّ من نافذة، وكدت أهتف وأنادي عليه لكنني أطبقت شفتي في صمت. بعيني المفتوحتين عن آخرهما رأيت أننا أصبحنا خارج القاهرة وأن السيارة تنحرف في طريق زراعيّ، وعن يميني أرى الحقول الواسعة تمتد في الظلمة، وعن يساري يجلس الضابط وإلى جواره السائق، ومن خلال النافذة بجوار السائق رأيت مياه النيل تلمع تحت ضوء مصابيح الشارع.

ونظرت إلى وجه الضابط ورأيت ملامحه البوليسية دون دهشة ودون صدمة وكأنني كنت أراها طول الوقت، وكأنني أعرف طول الوقت أنه يكذب علي، وأنني لن أعود إلى بيتي وأن وجه ابني قد أصبح بعيداً عني، أبعد من ذلك النجم الذي يلمع في السماء. وأطرقت رأسي ونظرت إلى أصابع يدي، لمست يدي اليمنى بيدي اليسرى. أنا يقظة وعلى قيد الحياة! رفعت رأسي ونظرت من النافذة. نسمة الليل محمَّلة برائحة الزرع. الهواء كالضربات الخفيفة السريعة على وجهي. هواء الليل معبأ برائحة الخريف. تعرفت على الطريق. أول رحلة إلى القناطر الخيريّة. كنت طفلة

في الابتدائيّ. عندي صورة قديمة راقدة على العشب الأخضر ومن حولي تلميذات الفصل ومن خلفنا القناطر.... الحقول ممتدّة.. من بعيد ألمح بيتاً صغيراً فيه ضوء. يشبه بيتنا وسط الحقول وأنا طفلة. وجه أمي يلوح لي في الظلمة... ووجه أبي... مات الاثنان منذ أكثر من عشرين عاماً... عيونهما تلمع في الظلمة... ابتسامة ربما أو دموع. عيناي جافتان. حلقي جاف. ابتلعت لعاباً مراً.

توقفت السيارة فجأة في الخلاء. تجمَّد الدم في عروقي. عصابة لصوص مسلَّحة. ستذبحني وتخفي جثتي في الحقول. وربما اغتصاب قبل القتل. مخاوف وقصص قديمة منذ الطفولة. تأهبت للدفاع عن نفسي، لكنني سمعت السائق يقول: السيارة تعطلت. هبط الجميع، وحوطني الرجال المسلَّحون، فتح السائق غطاء السيارة وانهمك هو والضابط في إصلاحها. صوت الموتور كحشرجات حيوان يحتضر، السيارة تنتفض فوق العجلات في قفزات متقطعة كفرخة مذبوحة. أطلّ الضابط برأسه من تحت غطاء السيارة وصاح في الرجال المسلَّحين بصوت غاضب: لماذا تحوطون الدكتورة بهذ الشكل؟!... تعالوا هنا!!...

بدأت أتمشى على جانب الطريق. نسمة الليل هادئة حزينة. الحقول ممتدّة في الظلمة. ابتعدت عن السيارة قليلاً. قدماي تسرعان الخطى. قلبي يدق، بأمل مفاجيء في الحرية. لحسن حظي أنني ولدت في بلد متخلِّف والجهاز البوليسيّ سياراته قديمة تتعطَّل. لأول مرة أدرك فوائد التخلّف. الرجال المسلّحون

وضعوا بنادقهم على الأرض وراحوا يدفعون مؤخرة السيارة. السائق داخلها يحاول أن يوقظ الموتور الميت. الضابط يمسح عرقه بمنديل أبيض ويلعن السائق.

أخذت شهيقاً عميقاً.. وحرَّكت ذراعيَّ وساقيَّ في الهواء. وبدأت أسير إلى الأمام... دون أن أنظر خلفي...

لكنني سمعت صوت السيارة يزأر، وعجلاتها تجري فوق الأسفلت. تبدّد الأمل الخاطف. هذه السيارات العتيقة كالقطط بسبعة أرواح.

وجدتني مرَّة أخرى جالسة إلى جوار الضابط. قبعته على ركبتيه. يمسح عرقه بالمنديل وأصابعه عليها بقع سوداء.

وقال: الحمد لله.

وقلت: الذي لا يحمد على مكروه سواه! وضحك. ولم أضحك. كان رأسي خارج النافذة وعيناي شاردتين وعقلي لازال متشككاً لا يدرك تماماً ما يحدث، أو إلى أين تنتهي هذه الرحلة المجهولة مع رجال غرباء مسلّحين.

وسمعت الضابط يقول فجأة: أتعرفين أنني قرأت كتبك ورواياتك. اتسعت عيناي في دهشة. أيخاطبني؟ وهل أنا كتبت كتباً أو روايات؟! كأنما نسيت من أنا...

وقلت متسائلة: كتبي. رواياتي؟!

وقال: نعم، كتبك ورواياتك.

رأيت قبعته البوليسيَّة فوق ركبتيه وأفقت تماماً متذكِّرة ما حدث.

وقلت: هذا عجيب!

وقال: ما هو العجيب؟

وقلت: كنت أظن أن رجال البوليس لا يقرأون الكتب أو الروايات.

وقال: نحن مثل كل البشر، ومهنتنا مثل مهن كل الرجال.

قلت: مهن الرجال! ألا توجد نساء في البوليس؟

وقال: لا، لا البوليس ولا الجيش ولا القضاء ولا الحاكم ولا الوالي ولا رجل الدين.. هذه كلها مجالات مغلقة أمام المرأة... كتبت ذلك في أحد كتبك أليس كذلك؟

قلت: هذا صحيح.

قال: نحن في بلد إسلاميّ، والمرأة في الإسلام ناقصة عقل ودين... أم أنك ضد الإسلام؟...

وقلت: ليس هناك إسلام واحد... كل دولة تفسر الإسلام كما تشاء... أليس كذلك؟

خيلَ إليّ وأنا أتحاور معه أنني أتبادل حديثاً عادياً مع أحد الزملاء في نزهة بالسيارة على شاطىء النيل، لكني لمحت النافذة الزجاجية خلف رأسي ورؤوس الرجال ورؤوس البنادق فأطبقت شفتي صامتة لحظة ثم قلت في غضب: إلى أين نذهب؟! ظلَّ

صامتاً وهو ينظر أمامه إلى الطريق ثم قال: ستعرفين حالاً . . . لا تتعجّلي الأمور.

وقلت: هذا هو طريق القناطر الخيرية وأنت تأخذني إلى سجن القناطر. لماذا لم تقل ذلك منذ البداية؟!

وقال: أبداً . . لن آخذك إلى سجن القناطر.

تابعت الطريق بعيني. إذا لم يكن هو السجن فماذا يكون؟ السجن أفضل فهو شيء معلوم، أما هذا المصير المجهول! عيناي تجولان في الظلمة. لازالت الحقول عن يميني، والنيل عن يساري. مياه النيل تحت ضوء السيارة تبدو منكسرة حزينة. السماء سوداء تبرق فيها النجوم والأشجار كالأشباح تتحرّك بغير صوت. صوت الموتور يرتفع فوق الصمت وعجلات السيارة تصطك بالأرض الأسفلت. أغمض الضابط عينيه ونام. السائق أسدل أيضاً جفنيه فوق عينيه، والسيارة تسير وحدها وتنحرف لتسقط في النيل، لولا حركة سريعة من يد السائق. اهتزت السيارة وارتطم رأس الضابط بسقفها. فتح عينيه مذعوراً وصاح في السائق: أتنام يا حمار؟ أتريد أن نموت كلنا غرقاً في النيل؟ ألا يكفيك أنك خرجت بسيارة لا تصلح إلا للبيع في سوق الخردة! . . .

انطلقت الكلمات من بين شفتيه كالقذائف مختلطة برذاذ لعابه. ثم أغلق شفتيه وظل محملقاً أمامه في الطريق، وجفناه يسقطان شيئاً فشيئاً فوق عينيه إلى أن أصبحت عيناه مغلقتين تماماً . . .

وسقط رأسه فوق صدره وبدأت أنفاسه المنتظمة ترتفع.

أصابع السائق سمراء مشققة تقبض على عجلة القيادة كأنها فأس، وتحركها من اليمين إلى اليسار كشادوف. وجهه أسمر نحيل تنتشر فوقه بقع بيضاء. مرض جلديّ معروف في الطب باسم البلاجرا. نقص في الغذاء وعلى الأخص فيتامين ب. يضعف العضلات ويخدّر الأعصاب وخلايا المخ. يصيب الإنسان بتبلّد الإحساس. منتشر بين أبناء الفلاحين الفقراء. الوجوه الشاحبة السمراء ذات البقع البيضاء واقفة في الطابور الطويل. اشتغلت طبيبة في الريف منذ سنين. وجه السائق يذكّرني بوجوه المرضى من الفلاحين. الضابط لعن أباه وجده وهو صامت مطرق حزين حزن آلاف السنين.

السيارة تعتدل فوق الطريق، صوت الموتور الرتيب والضابط شخيره يرتفع فوق صوت الموتور. شفتاه تتهدّلان. شفّتان سمينتان. تسقط الشفّة السفلى فوق ذقن مربعة ممتلئة، وعنق سمين أبيض سترته مفتوحة عند العنق، ورأسه يهتزّ ثم يسقط فوق صدر سمين. خيط رفيع من اللعاب الأبيض ينساب من بين الشفتين ويسقط فوق قطعة ذهبية تلمع على الصدر.

رفعت رأسي نحو الطريق. أنوار القناطر الخيريّة تنعكس على صفحة النيل. تنحرف السيارة بعيداً عن الأنوار. تدخل في طريق مظلم ضيّق كالسرداب. تنحرف في طريق آخر أكثر ظلمة وأكثر ضيقاً. اختفت رائحة الزرع والنيل. ملأت أنفي رائحة تراب.

في نهاية السرداب المظلم رأيت عموداً طويلاً يسدّ الطريق. توقفت السيارة عند العمود. فتح الضابط عينيه فجأة بذعر ومسح فمه بكفّه، برز من جانب الطريق رجل نحيل عيناه تلمعان وتتحركان بسرعة كعيني قاطع طريق. رمق الضابط والسيارة ثم أسرع يجري بظهر محني وشد العمود بحبل أو سلسلة، فارتفع العمود في الهواء عن مساحة تسمح بمرور السيارة ثم سقط مرّة أخرى وأغلق الطريق خلفنا.

السيارة تزحف ببطء في ممر مظلم طويل. الهواء راكد والظلمة تشتدّ. صمت يشبه صمت القبور. جدران عالية كالقلعة. اختفت السماء والنجوم. ثم توقفت السيارة تماماً.

عيناي تصطدمان بباب أسود ضخم. كأبواب القلاع والحصون في عهود المماليك. أقبل علينا عدد من الرجال المسلّحين كزبانية محاكم التفتيش، البنادق والسناكي طويلة مدبّبة كالإبر التي كانوا يغرسونها في أجساد الساحرات بحثاً عن علامة الشيطان. عيونهم تجري كقطع الزجاج. نظراتهم تحوطني ترمقني من الأمام ومن الخلف ومن رأسي إلى قدمي.

دقّ أحدهم الباب بكعب بندقيته. أطلّ من الشق رأس بدون شعر وعينان زجاجيتان تدوران بسرعة. رفع يده بالتحيّة حين رأى الضابط وانحنى داخل الشق.

الشق في الباب بحجم رجل قزم. العتبة عالية. رفعت قدمي في الهواء لأجتاز العتبة. قامتي طويلة لا تدخل من الشق دون أن

انحني. ظهري ينثني كجسد يدخل من فتحة القبر. ثوبي أبيض بلون الكفن. يدا الضابط تساعداني في الدخول كيدي الحانوتي. كأنما رأيت هذا المشهد من قبل. متى! ظلمة شديدة ورائحة تراب وعفونة.

شددت جفني لأفتحهما. كانا مفتوحين من قبل. رأيت الممر المظلم. في نهايته شبح أسود رأسه مربوط بمنديل أبيض. من فوق الرأس لمبة كهربية كالعين الواحدة المفتوحة الحمراء. رفع يده بالتحية. خبط كعب البندقية في الأرض الأسمنت. ضرب كعبي حذائه الحديدي أحدهما بالآخر.

ثم انفتح في الجدار ثقب وابتلعتني الأرض

إلا أن الأرض لم تبتلعني كما تصوّرت، وأصبحت وأنا داخل السجن أقل خوفاً مما كنت خارجه. ربما توقعت أسوأ مما رأيت، أو ربما لا يشعر الإنسان بالخطر إلا وهو خارجه، فإذا ما أصبح في قلب الخطر صار جزءاً منه ولم يعد يشعر به.

أو لعلّها الابتسامة الرقيقة التي قابلني بها مسؤول السجن. أرق ابتسامة رأيتها على وجه رجل أو امرأة في كل مراحل حياتي. لا أذكر أنني رأيت مثل هذه الابتسامة على وجه أحد. أيمكن أن تكون ابتسامة حقيقيّة. أم أنني أرسم له بيدي الملامح التي أريدها، كما فعلت مع ضابط البوليس. أو أن رجال البوليس لديهم تلك القدرة على الابتسام وهم يقودون الإنسان إلى المشنقة، وكلما اقترب حبل المشنقة من عنقه زادت ابتسامتهم رقة

وزاد صوتهم عذوبة وهم يقولون له: ماذا تطلب. ماذا تشرب؟ أتريد سيجارة؟

وسمعت المسؤول يقول برقَّة: ماذا تشربين؟ وسرت فوق جسدي قشعريرة كالرجفة وأنا أحملق في وجهه وهو جالس إلى مكتبه، ومن فوق رأسه صورة مكبَّرة للسادات، بالملابس العسكرية وفي يده عصا.

كان الضابط مازال واقفاً وفي يده ورقة مدَّها نحو المسؤول وهو يقول: أرجو أن توقِّع عليها باستلام المتحفظ عليها.

رنَّت كلمة «المتحفظ عليها» في أذني غريبة. تلفت حولي كأنما أبحث عن واحدة غيري. ثم أدركت أنهم يتحدّثون عني. لم يعد لي اسمي أو لقبي أو شخصيتي. أصبحت المتحفظ عليها رقم ١٥٣٦. في القائمة الطويلة استبدل اسمي بهذا الرقم، ووقَّع مسؤول السجن باستلام المتحفظ عليها من الضابط، ووقَّع الضابط في دفتر السجن أنه سلَّم المتحفظ عليها إلى مسؤول السجن. كل ذلك وأنا جالسة مكاني لم أتحرك.

ثم بأصابع رقيقة أرق من ابتسامته سحب مني المسؤول حقيبة يدي. أفرغ محتوياتها فوق مكتبه. بطاقتي الشخصيَّة. مفكرتي الصغيرة. وقلمي. مفتاح الشقة والسيارة. منديل يد أبيض. عشرة جنيهات والرغيف الفينو. هزَّ الحقيبة عدة مرات. أدخل أصابعه في الجراب الداخلي، وخرجت يده تمسك مرآة صغيرة.

أعاد إلى الحقيبة المنديل الأبيض والرغيف وناولها لي وهو

يقول: بقية الأشياء كلها ممنوعة، وسنضعها لك في أمانات السجن حتى تخرجي من عندنا بإذن الله.

«تخرجي»! الكلمة ترنُّ عجيبة، والخروج من هنا كالانتقال من الموت إلى الحياة. كالتحوّل من جسد إلى جسد أو من شكل إلى شكل آخر.

لمحت مرآتي الصغيرة على المكتب، فمممدت يدي إليها، وكدت أرفعها أمام وجهي لكنَّ يد المسؤول كانت أسرع.

ـ المرآة ممنوعة.

ـ لماذا؟

ـ تعتبر من الأدوات الحادَّة والأدوات الحادَّة كلها ممنوعة.

أدوات حادَّة؟! أنا في طريقي إلى مكان بكل هذه الخطورة! عيناي تدوران حولي فوق الجدران، والسقف، مكتب عادي كأي مكتب في الحكومة، والوجه داخل اطار الصورة كاشف عن أسنانه، ضاغط على فكيه، من تحته رأس المسؤول الأصلع، شعرات قليلة فوق الأذنين، قطع ذهبية أو نحاسية فوق الكتفين، يدون شيئاً في الدفتر. رفع رأسه، عيناه مرهقتان حمراوان كأنما أيقظوه من النوم فجأة. دق الجرس. دخلت امرأة سمراء قصيرة، ترتدي معطفاً رمادياً، في يدها سلسلة حديدية تضم عدداً من المفاتيح الضخمة.

انفرجت شفتاه عن ابتسامة واهنة: متأسف يا دكتورة... كنت أود أن أراك في مكان آخر. ثم وقف ووقفت. قامتي أطول من

قامته. سار ناحية الباب وتوقف. من فوق رأسه مرآة معلّقة في الحائط. لمحت فيها وجهي. وجهي لازال كما كان. لكنّه شاحب وأكثر طولاً، خداي وأسناني الأمامية أكثر بروزاً. عيناي تشوبهما حمرة خفيفة لكن سواد العين كما كان أسود لامع. خفق قلبي بفرحة مفاجئة، كنت أظن أنني مت، أو أن شكلي لم يعد هو شكلي. رأيت التليفون الأسود على منضدة صغيرة، مددت إليه يدي لأدير رقم بيتي وأطمئن زوجي وابنتي وابني على أنني لا زلت بخير. لكن يد المسؤول كانت أسرع: هذا ممنوع! متأسّف يا دكتورة.

رمقت التليفون وأنا أستدير لأخرج، كأنما ألقي النظرة الأخيرة على آخر شيء في عالم لم أعد فيه.

ثم رفعت وجهي وأنا واقفة على عتبة الباب. المرأة تواجهني. رأسها مربوط بمنديل أبيض. بشرتها شديدة السمرة. وجهها مليء بالحفر الصغيرة كآثار جدري قديم. بقع بيضاء فوق أنفها وخديها.

سارت أمامي تطرقع بشبشبها البلاستيك، والمفاتيح في يدها تصطك، والسلسلة الحديدية حلقاتها صغيرة مستديرة كالسلسلة التي يربط بها الكلاب.

*

الجـــزء الثـــاني

السجـــن

إذا كانت أصعب لحظة في حياة المحكوم عليه بالإعدام هي اللحظة التي تسبق سقوط المقصلة على عنقه، فإن أصعب لحظة في حياتي هي التي سبقت دخولي الزنزانة.

عيناي تتابعان حركة السلسلة في اليد السمراء المبقعة والأصابع المشقّقة، ومن حولها المفاتيح الضخمة تهتز. المفتاح الواحد كالمطرقة الضخمة له رأس شاكوش وذراع حديدية طويلة لها أسنان مشرشرة.

الأبواب ذات القضبان الحديدية تنعكس ظلالها على الجدران المرتفعة في الظلمة كالأشباح الخرافيّة. حديد يدور في الحديد ويصطك. الصوت يرتطم بالأسوار، ويرتدّ الصدى فوق الجدران، كأن مئات الأبواب الحديدية توصد، وتغلق، وصفير حادّ كالصمت، وأصوات تطنّ كالصفير، كريح من الدخان المكتوم ينفذ من ثقب ضيق.

الشبشب البلاستيك في القدمين السمراوين المشققتين يرتطم بالأرض. ظهرها محني داخل المعطف الرمادي. الياقة حول العنق مسودَّة بعرق قديم. كتف أعلى من كتف. على الكتف العلوي شريط أسود كريشة سوداء على رأس طائر خرافيّ، أو حيوان أسطوريّ في الأزمنة القديمة. لكن المفاتيح في يدها تجعلها أشبه بزعيم عصابة في غابة أو أحد الأحراش المهجورة.

الظلمة تشتدّ وتصبح لها كثافة فوق جفني. الهواء يركد ويثقل وتصبح له رائحة نفّاذة تحرق غشاء الأنف كالغاز الخانق.

توقفت المرأة عند أحد الأبواب الضخمة ذي القضبان الحديدية. أدخلت المفتاح في الباب وظهرها ناحيتي. أنفاسها لها صوت مسموع كأنما تلهث.

ثم رنَّ صوتها في الظلمة وبعيداً كأنما يأتيني من بطن الأرض، أو من زمن سحيق بالغ القدم:

ـ ادخلي.

كان الباب الحديديّ ضخماً وثقيلاً، دفعته بيدها بصعوبة لم ينفتح إلا عن مساحة صغيرة تتسع لمرور جسدي. رأيت أصابعها المشققة فوق ثوبي الأبيض تساعدني في الدخول.

رأيت هذا المشهد من قبل. الآن تذكرت، منذ سنين بعيدة. الأصابع السمراء المشققة تحوط جسد أمي الملفوف في الكفن الأبيض وتدفعه ببطء داخل الثقب المفتوح في الأرض. ومن حولي أبي وأهلي بملابس الحداد. عيونهم تلمع بالدموع.

عيناي مفتوحتان بغير دموع. ارتطم رأسي بحديد الباب.

ـ حاسبي على نفسك.

صوتها أيضاً مألوف. لاتزال واقفة على عتبة الباب. عيناها تتسعان بلمعة خاطفة قبل أن تختفيا.

دار المفتاح في الباب ثلاث دورات ودبَّ الصمت في أذني كالصفير الحادّ. كصرخة واحدة ممتدَّة بغير انقطاع. سددت أذني بأصابعي والمنديل الأبيض وضعته على أنفي. في السقف لمبة كهربية تحملق كالعين الجاحظة المشنوقة. أسرّة حديدية من دورين..... أجسام تتحرك داخل عباءات سوداء. الرؤوس ملفوفة بالطرح البيضاء أو السوداء. وجوه مختفية تحت النقاب. ثقوب صغيرة تطل منها عيون.

هل سقطت في قاع بئر؟ أم هبطت على كوكب آخر؟ أم أنني عدت إلى زمن العبيد والحريم! أم هذا حلم وأنا نائمة؟

لكنني لست نائمة. أنا واقفة صاحية واعية تماماً أنني داخل السجن. وهذه هي الزنزانة أو العنبر. الجدران الأربعة. الباب الحديدي ذو القضبان.

أغمضت عيني ثم فتحتهما... لاتزال الأشباح أمامي. تعرفت على أحد الوجوه تحت الضوء الأصفر....

هتفت بسرور: صافيناز.

وتعانقنا. صحافية وأديبة لم أكن رأيتها من سنين طويلة. تغيَّرت كثيراً. لم تكن ترتدي الحجاب.

رمقتني عينان من خلال ثقبين في النقاب الأسود وسألت:

ـ من زميلتنا الجديدة؟!

ردت صافيناز: الدكتورة نوال السعداوي صاحبة الكتب الخطيرة. . . . الكتب المليئة بالكفر!

رأيت جسماً يتحرّك فوق الدور العلويّ لأحد الأسرة، ونهضت من نومها فجأة تهتف:

ـ أهلاً نوال!

الدكتورة أمينة رشيد، أستاذة بجامعة القاهرة. التقيت بها عدَّة مرّات في بيتي وبيوت بعض الصديقات. ونشأت بيننا صداقة. تعانقنا بفرح. وقالت صافيناز لأمينة: هل قرأت الكتب التي نشرتها نوال.

وقالت أمينة: طبعاً، قرأتها، وطالباتي في الجامعة قرأن الكتب وطلبن مني أن أستضيف نوال في الكلية ليتحدثن معها. . . إنها كتب مهمَّة والكثيرون يعجبون بها.

رددت صافيناز: إنها كتب كافرة وملحدة.

قالت أمينة: هل قرأتها.

ردَّت صافيناز: أنا لا أقرأ إلا كتاب الله.

قالت أمينة: وكيف تحكمين على كتب لم تقرئيها!

ومرَّت لحظة صمت.

بدأت بعض الفتيات المنقبات يسألن في استطلاع عن هذه الكتب. عينان من خلال الثقبين اقتربتا مني وسمعت الصوت يسألني:

ـ هل تصلين؟ هل تصومين رمضان؟ أليس وجه المرأة عورة؟

وقلت: العورة هي الظلم والكذب وإلغاء عقل الإنسان. . امرأة أو رجل. . . . العورة هي وجودنا في هذا السجن بدون جريمة وبدون تحقيق!

اتَّسعت العينان داخل الثقبين وامتلأت بالبريق. التفت ناحية أمينة: وأنت يا أمينة متى جئت؟

قالت أمينة: من يومين. جاءت القوة المسلَّحة إلى بيتي. كان معي ابني، ومنهمكة في نقل أثاث بيتي إلى شقتي الجديدة، وطلبت منهم تأجيل القبض عليَّ حتى يسافر ابني وحتى أنهي نقل الأثاث. . . لكنهم رفضوا. . . وجاؤوا بي إلى السجن. لم نكن في هذا العنبر. كنا في المستشفى في الغرفة نفسها مع فريدة النقاش وشاهندة مقلد. ولم أشعر أنني في سجن. كان عندنا الصحف والراديو والأطعمة والباب يفتح علينا طول النهار. لكنهم نقلونا إلى هذا العنبر، ومنعوا عنا كل شيء. وأنت ماذا حدث لك يا نوال؟

قلت: دقوا الباب، رفضت أن أفتح لهم. لم يكن معهم أمر من النيابة. كسروا الباب وجاؤوا بي إلى هنا.

اتسعت عينا أمينة: كسروا الباب؟!

وفجأة سمعنا المفتاح يدور في الباب. انفتح باب العنبر ودخلت امرأة ثم انغلق الباب.

رأيت وجهها في الضوء الأصفر وهي تقبل نحونا وهتفت بسرور: لطيفة!

الدكتورة لطيفة الزيّات. التقينا منذ عشرين عاماً وتصادقنا، يجمع بيننا الأدب والفن، والصداقة... تعانقنا بفرح.

وقالت لطيفة: قرأت في جريدة المساء اسمي ضمن قائمة المتحفظ عليهم، وحين عدت إلى البيت وجدت رجال البوليس. كانوا يظنون أن أختي هي أنا. وضحكت.....

ثم نظرت إليَّ: وأنت يا نوال ماذا حدث؟

قلت: رفضت أن أفتح لهم الباب بدون أمر النيابة ـ كسروا الباب....

وقالت لطيفة: وصلت الأمور إلى نهايتها ليقبضوا على كاتبة مستقلّة مثل نوال رحمة الله على الديموقراطيَّة وحريّة الرأي!

كان الفجر على وشك الطلوع.

وقلت: لا بد ننام قليلاً لنستأنف المعارك غداً...

وضحكنا... لكن القلب ثقيل.... والوجوه مرهقة... والعيون فيها قلق. عادت أمينة إلى مكانها فوق الدور العلوي للسرير، إلى جوارها فتاة مسيحية اسمها «نور»... لها وجه طفلة. حاولت لطيفة أن تنام على نصف سرير إلى جوار صافيناز، لكنها نهضت

بعد قليل، وضعت المرتبة على الأرض ولفَّت حول عينيها رباط أبيض ونامت..

ظللت مفتوحة العينين أتأمل ما حولي.. السقف الأجرب الأسود. الجدران المشققة. القضبان الحديديَّة، نافذة صغيرة قرب السقف مسدودة بالأعمدة الحديدية. أجسام نساء وفتيات يرقدن على الأرض أو فوق الأسرة الحديدية السوداء ذات الدورين.

فردت ذراعي ونظرت إلى أصابعي. حرّكت يدي وأمسكت اليد الأخرى. كل ما حدث حقيقة وليس حلماً. لا زلت أرتدي الثوب الأبيض الذي ارتديته بسرعة وهم يدقون الباب. والحذاء المفتوح. قدماي متورمتان قليلاً. إرهاق اليوم الطويل. حلقي جاف، وفي رأسي طنين، وصور تتابع كالشريط السينمائي، أحداث قديمة منذ الطفولة وأحداث جديدة، الدقّات العنيفة فوق الباب، صوت الباب وهو ينكسر... فوهات البنادق المفتوحة. العيون الزجاجيَّة تجري وتدور. صوت الرجل العجوز. السرداب الضيِّق المظلم، والعمود يرتفع وينخفض. والشقّ في الباب الضخم الأسود، الجو خانق شديد الحرارة. تمددت على الأرض. إلى جواري سرير حديديّ بدورين. في الدور الأول ترقد امرأة شعرها طويل يخفي كل وجهها. وفي الدور الثاني ترقد امرأة ملفوفة بالسواد من الرأس حتى القدم. أجساد أخرى راقدة على الأسرة أو على الأرض. بعضها نصف عار، وبعضها ملفوف بالسواد. لمحت سريراً خالياً. اتكأت بيدي على الأرض وحملت

جسدي فوق قدمي وسرت نحو السرير. لكن ما أن جلست عليه حتى هبطت شرائطه الحديدية الممزّقة ولامست الأرض. رفعت المرتبة المطاط من فوق السرير ووضعتها على الأرض. تمدّدت عليها. من فوق رأسي جدار أسود تلتصق به لمبة كهرباء مضاءة طول الوقت تسكب في عيني شعاعاً أحمر كسيخ من الحديد المنصهر. وأصوات كالطنين أو الصفير الحاد تنسكب في أذني كخيط طويل من السائل الكاوي. من أين تأتي هذه الأصوات؟

وضعت المنديل الأبيض على عيني، سددت أذني بأصابعي وأغمضت عيني. لكن الأصوات ظلّت تخرق أذني، والضوء ظلّ ينفذ من خلال المنديل ومن خلال الجفن إلى عينيّ، فتحت عيني. بين العين والجفن مساحة كبيرة من الألم الحارق الذي لا يخف، ومسافة طويلة من الزمن الذي لن ينقضي. الزمن لم يعد هو الزمن، أصبح هو والجدار شيئاً واحداً، والهواء أيضاً لا يتحرّك. ولا شيء يتحرّك حولي إلا الصراصير والفئران، ومن تحتي مرتبة رفيعة من المطاط تفوح منها رائحة بول قديم، وتحت رأسي حقيبة يدي الفارغة، ولا زلت أرتدي الفستان الأبيض الذي خرجت به، والحذاء في قدمي.

رفعت المنديل من فوق وجهي ودسسته في أذني. طنين وصراخ حادّ متّصل لا أعرف مصدره. أصوات عجيبة وضجيج لم أسمعه من قبل. من أين تأتي هذه الأصوات؟ كأنها تنفذ من الجدران الأربعة، ومن السقف، ومن بطن الأرض. أصوات بشريّة وغير بشرية. صراخ حاد كصراخ الطفل المولود ونحيب

ونواح كعواء الذئاب وشجار وسباب وبكاء مكتوم كالنشيج، وسعال كالصفير، وصفعات باليد وركلات بالقدم، وخرير ماء كالشخير، ودعاء وابتهال وترتيل كالصلاة، ونقيق ضفادع، ومواء قطط ونباح كلاب، ومن فوق كل ذلك صفارة حادّة.. نداءات الصراصير.

كنت راقدة فوق ظهري لأبعد رأسي ما أمكن عن رائحة المرتبة تحتي. الحرّ كان شديداً. العرق أحسّه لزجاً، والفستان التصق بجسمي. لا نقطة هواء واحدة. وصدري لم يعد يتحرّك لا صاعداً ولا هابطاً. لا زفير ولا شهيق. وخيّل إليّ أنني أموت أو متُّ فعلاً.

وبغريزة الدفاع عن الحياة انفتح جفناي وحدهما في ذعر. لم أكن مذعورة بالمعنى الصحيح. كنت في حالة من الإعياء القريبة من الموت تتلاشى فيها كل المشاعر ومنها الشعور بالذعر.

ولا أدري لماذا انفتح جفناي. كان يمكن أن أموت وأنا مغمضة العينين. لكن اكتشفت شيئاً لم أكن أعرفه: أن الإنسان يموت وهو مفتوح العينين، كأنما يريد أن يرى كيف يموت، أو كأنما يدافع عن حياته بكل حواسه ومنها حاسة البصر.

في تلك اللحظة خيّل إليّ أنني أمتصّ بعيني الهواء الذي عجز صدري عن امتصاصه. وربما لهذا السبب لم أمت. ظللت أحس وأرى، لكن صدري لم يكن يتحرّك.

ماذا كنت أرى في تلك اللّحظة!

عيناي كانتا ناحية السقف. ورأيت برصاً كبيراً أصفر ملتصقاً بالسقف، يزحف ببطء. وخطرت لي فكرة غريبة أن نظراتي الثابتة عليه قد تجذبه نحوي فيسقط فوقي، وأغمضت عيني ثم فتحت عيناً واحدة بحذر شديد. ورأيت البرص يحرّك أرجله ثم سقط فجأة.

لو كنت في حالتي العاديَّة كان لابد أن أنهض مذعورة قبل أن يسقط البرص فوقي. لكني لم أتحرّك. وأحسست بالبرص يجري فوق ساقي ولم أحرّك ساقي. ثم رأيته يقفز مذعوراً ويختفي في شق الجدار.

اتسعت عيناي في دهشة، وغمرني فجأة شعور غير مفهوم من السعادة، وأغمضت عيني في راحة ونمت حتى الصباح.

حتى هذه اللَّحظة لا أعرف كيف نمت، ولا أعرف سر تلك الراحة أو السعادة التي غمرتني فجأة. ربما لأن البرص هو الذي خاف مني وأنا لم أخف منه، أو ربما هي سعادة الإنسان حين يكتشف ذاته، أو تبدى أمام عينيه شجاعة جديدة في نفسه لم يكن يعرفها، أو يتبدد خوف أو وهم كان يعيش به.

وكنت أعيش بوهم غريب، أو بخوف غير منطقي من البُرص. جدَّتي كانت تقول إن البرص إذا لامس جسم بني آدم مرض بداء «البَرَص»، كنت طفلة حين سمعت هذا الكلام وارتبط في ذهني «البُرص» كحشرة «بالبَرَصَ» كمرض جلديّ. وظلَّ هذا الارتباط في وجداني حتى بعد أن درست الطب وعرفت أن لا علاقة بين البُرص والبَرَص.

وتعلَّمت في السجن ما لم أتعلمه في كليَّة الطب. زحف البرص على جسمي ولم يحدث لي أي شيء. وزحفت الصراصير عليَّ ولم يحدث لي أي شيء. وتبدَّد الخوف الذي عشت به من هذه الكائنات الصغيرة البريئة، التي تتحرَّك برشاقة عجيبة في الليل وتبحث لنفسها عن الطعام في القمامة وشقوق الجدران. وأصبحت أنام نوماً عميقاً هنيئاً وهي تتراقص من حولي دون أن يصيبني شيء.

أول ليلة في السجن نسيت وأنا نائمة ما حدث، وتصوَّرت في الصباح أنني سأرى غرفة نومي، سريري الأبيض الصغير إلى جواره سرير زوجي، صفوف الكتب في المكتبة البيضاء، وجه ابني يطلّ من الباب، صوت ابنتي في الحمام... أنغام الموسيقى من الصالة الصغيرة... لكني فتحت عيني على جدار أسود عالٍ مليء بالشقوق تزحف فيها الحشرات السوداء والبيضاء، ومن تحتي أرض أسمنت تنفث رطوبة وعفونة، وأصوات من بطن الأرض أو من تحت الجدار تصرخ بالسباب. . «يا بنت الـ..» لعنات تصبّ على أعضاء الأم الجنسيّة، وعلى كل أعضاء النساء. سباب من كل نوع يلعن الأم والأب والجدود وجدود الجدود. يلعن الدين والدنيا. بكاء ونحيب وشجار وصراخ أطفال.. صوت امرأة يصيح: «نادي يا بت على البت فتحية».... صوت آخر يردّ صائحاً: «فتحية مين فيهم. فتحية الحراميّة والا فتحية القتّالة!... أصوات تصرخ وتولول... جرادل وصفائح تخبط بعضها بعضاً... حديد يرتطم بالحديد وأبواب تفتح وتغلق

وتصفق... خبطات فوق الجدران ومن تحت ومن فوق.

أغمضت عيني وفتحتهما. أين أنا؟ أتحسَّس رأسي. ما الذي تحت رأسي؟ حذائي! ما الذي تحت جسدي؟ الأرض الأسمنت! وما هذه الرائحة الغريبة كرائحة المجاري؟ وهذه الأجساد السوداء والرؤوس الملفوفة بالسواد؟ والعيون المطلَّة من الثقوب! تشككت في يقظتي الكاملة. لكن الحقيقة الباردة زحفت فوق جسدي كالشلل. كنت جالسة أكتب الرواية وفجأة دقوا الباب... رفضت أن أفتح لهم... كسروا الباب ودخلوا... تتابعت الأحداث كشريط يجري فوق كرة من المطّاط.

لأول مرة في حياتي أحس بالعجز أمام قوّة أكبر مني. زحف الإحساس بالعجز على جسدي كالشلل. خيِّل إليَّ أنني لم أعد قادرة على تحريك ذراعيَّ ولا ساقيَّ، ومن شدَّة الفزع وجدتني أقفز واقفة على قدمي.

لا أدري كيف انتقلت من النقيض إلى النقيض لمجرَّد اكتشافي أن جسدي قادر على الحركة كما كان. انقلب الإحساس بالعجز إلى إحساس بالقدرة، ولم يعد مهماً أن يكون أمامي جدار أو قضبان، لكن المهم أن يظل جسدي قادراً على الحركة، وأن أستطيع أن أنقل قدمي فوق الأرض قدماً وراء قدم...

في حركة قدميّ وأنا أنقلهما على الأرض شيء أشبه بالفرح، كمريض بالشلل شفي فجأة وأصبح يمشي.

لا أدري ما سر تلك القدرة الإنسانية على التكيُّف والانتصار

على أسوأ الظروف. لكن كل شيء بدا محتملاً ما دام جسدي يتحرَّك. لعلِّي بدأت بفكرة الموت أو الشلل ليبدو كل شيء بعد ذلك أقل خطراً. وربما هذه هي قدرة الإنسان على التكيف. أن يبدأ بالأسوأ فيصبح الأقل سوءاً محتملاً.

*

ولم يمض يومان حتى رأينا الدكتورة عواطف عبد الرحمن تدخل علينا العنبر. إنها أيضاً صديقة لي منذ سنين.

فرحت بها وعانقتها... وأنا أقول ضاحكة: لماذا تأخرت في الحضور يا عواطف؟! قالت وهي تضحك: كنت مسافرة وقبضوا عليَّ في المطار، هبطت من الطائرة فرأيت البوليس في انتظاري، وكان ابني ينتظرني في المطار، وسار معي والبوليس من حولنا، لم يفزع ولم يخجل بل سار إلى جواري مزهواً بأمه... وكان معه الصحف ورأيت صورنا جميعاً، وحكى لي ابني ما حدث، وقال لي إنهم كسروا باب بيتك يا نوال هل هذا صحيح؟!

وبدأنا نحكي ما حدث. وانضمَّت إلينا جميع الزميلات في العنبر... كنا أربع عشرة امرأة وفتاة... من مختلف الأجيال والأعمار والأفكار.

*

منذ اللحظة التي فتحت فيها عينيّ على أول صباح في السجن أدركت من حركة جسمي وأنا أنهض وأشد عضلات ظهري وعنقي أن قراراً حاسماً قد استقرَّ في رأسي: أن أعيش في هذا المكان

وتصفق. . . خبطات فوق الجدران ومن تحت ومن فوق.

أغمضت عيني وفتحتهما. أين أنا؟ أتحسَّس رأسي. ما الذي تحت رأسي؟ حذائي! ما الذي تحت جسدي؟ الأرض الأسمنت! وما هذه الرائحة الغريبة كرائحة المجاري؟ وهذه الأجساد السوداء والرؤوس الملفوفة بالسواد؟ والعيون المطلَّة من الثقوب! تشككت في يقظتي الكاملة. لكن الحقيقة الباردة زحفت فوق جسدي كالشلل. كنت جالسة أكتب الرواية وفجأة دقوا الباب. . . رفضت أن أفتح لهم. . . كسروا الباب ودخلوا. . . تتابعت الأحداث كشريط يجري فوق كرة من المطّاط.

لأول مرة في حياتي أحس بالعجز أمام قوّة أكبر مني. زحف الإحساس بالعجز على جسدي كالشلل. خيِّل إليَّ أنني لم أعد قادرة على تحريك ذراعيَّ ولا ساقيَّ، ومن شدَّة الفزع وجدتني أقفز واقفة على قدمي.

لا أدري كيف انتقلت من النقيض إلى النقيض لمجرَّد اكتشافي أن جسدي قادر على الحركة كما كان. انقلب الإحساس بالعجز إلى إحساس بالقدرة، ولم يعد مهماً أن يكون أمامي جدار أو قضبان، لكن المهم أن يظل جسدي قادراً على الحركة، وأن أستطيع أن أنقل قدمي فوق الأرض قدماً وراء قدم. . .

في حركة قدميّ وأنا أنقلهما على الأرض شيء أشبه بالفرح، كمريض بالشلل شفي فجأة وأصبح يمشي.

لا أدري ما سر تلك القدرة الإنسانية على التكيّف والانتصار

على أسوأ الظروف. لكن كل شيء بدا محتملاً ما دام جسدي يتحرَّك. لعلِّي بدأت بفكرة الموت أو الشلل ليبدو كل شيء بعد ذلك أقل خطراً. وربما هذه هي قدرة الإنسان على التكيف. أن يبدأ بالأسوأ فيصبح الأقل سوءاً محتملاً.

*

ولم يمض يومان حتى رأينا الدكتورة عواطف عبد الرحمن تدخل علينا العنبر. إنها أيضاً صديقة لي منذ سنين.

فرحت بها وعانقتها. . . وأنا أقول ضاحكة: لماذا تأخرت في الحضور يا عواطف؟! قالت وهي تضحك: كنت مسافرة وقبضوا عليَّ في المطار، هبطت من الطائرة فرأيت البوليس في انتظاري، وكان ابني ينتظرني في المطار، وسار معي والبوليس من حولنا، لم يفزع ولم يخجل بل سار إلى جواري مزهواً بأمه. . . وكان معه الصحف ورأيت صورنا جميعاً، وحكى لي ابني ما حدث، وقال لي إنهم كسروا باب بيتك يا نوال هل هذا صحيح؟!

وبدأنا نحكي ما حدث. وانضمَّت إلينا جميع الزميلات في العنبر. . . كنا أربع عشرة امرأة وفتاة. . . من مختلف الأجيال والأعمار والأفكار.

*

منذ اللحظة التي فتحت فيها عينيَّ على أول صباح في السجن أدركت من حركة جسمي وأنا أنهض وأشد عضلات ظهري وعنقي أن قراراً حاسماً قد استقرَّ في رأسي: أن أعيش في هذا المكان

كما عشت في أي مكان آخر. قرار حاسم بدا لي كالجنون، لأنه يلغي الواقع ويلغي المنطق ويلغي الجدران والأبواب الحديد.

في كل مكان ذهبت أو سافرت إليه، ومهما كان بعيداً أو غريباً، أتلفت حولي في دهشة، وكأنني ولدت فيه وسأموت فيه ولم أعرف مكاناً غيره، والوجوه من حولي مهما بدت غريبة تبدو لي وكأنني رأيتها من قبل.

وجدتني واقفة أمام الباب ذي القضبان أقفز على أطراف أصابعي وأحرِّك ذراعيَّ وساقيَّ في الهواء، بتلك الحركات الرياضية التي تعوّدت أن أقوم بها كل صباح في بيتي أو في النادي. ومن بين القضبان الحديدية أرمق قطعة من السماء الزرقاء المطلّة فوق الأسوار والأسلاك وأكاد أضحك كطفل، وأتطلّع إلى كل الوجوه من حولي وأبتسم وأقول: صباح الخير، صوتي يرنّ في أذني مرحاً متفائلاً مستبشراً خيراً، يرنّ في الجوّ من حولي صافياً كرنين آنية من الفضة المجلوة، وكأنني في بيتي، وكأن هذه العيون من حولي هي عيون أهلي.

حتى الآن لا أعرف ما سرّ ذلك المرح الذي أستقبل به أي صباح جديد. هل يغسل النوم مخي من الأحزان والآلام؟ أم أنني أتصوّر بسذاجة طفل أن اليوم الجديد سيأتي بشيء جديد. أم أن لذاكرتي قدرة خارقة على طرد الحزن والألم. أحياناً كنت أتهم نفسي بالسذاجة أو الطفولة، وأود التخلّص منها. وحين ماتت أمي ومات أبي حاولت التخلص من طفولتي، وحين كبرت ابنتي وأصبحت فتاة شابّة، وحين كبر ابني ولم يعد طفلاً.

أمي كانت تنهرني حين أضحك فجأة في معزى أو مأتم، وأبي أيضاً كان يرمقني بنظرات حادّة ويقول: أنت كبرت... ولست طفلة! بل إن ابنتي قالت لي مرّة: أنت كبرت يا ماما!

حتى في عزّ الأزمات، وفي أشد الأوقات واللحظات التي تستدعي اليأس، لم أكن أعرف من أين ينبعث ذلك التفاؤل غير المنطقيّ كتفاؤل طفل ساذج.

كانت الأمور تسوء أحياناً أكثر مما هي سيئة، وتتدهور أحوالنا داخل السجن، ونسمع عن أخبار تنبيء بالخطر، ويسود التشاؤم جميع المسجونات معي في العنبر، وتظن كل واحدة منهن أنها محاطة بأبشع المخاطر ويجلسن جميعاً ساكتات واجمات متشائمات، فإذا بشيء يهبّ فجأة منتصباً داخلي كالمارد، غاضباً ثائراً على الوجوم والاستسلام للكآبة والحزن... متمرِّداً على الجمود وعدم الحركة... يقاوم الانهزام... والتشاؤم.... لأقول: لن نموت، وإذا متنا فلن نموت ساكتات، لن نمضي في الليل دون ضجّة، لا بد أن نغضب ونغضب، نضرب الأرض ونرجُّ الأرض، لن نموت دون ثورة!

ثم نضحك. تضحك عواطف ولطيفة وأمينة وصافيناز.. كلنا كنا نقاوم ونضحك أحياناً... إلّا إثنتين. لم تكن عيونهما تعرف اللمعة أو التفاؤل. واحدة منهما كان اسمها «بدور». شابّة في الثلاثين من عمرها في نقابها الأسود ثقبان للعينين. ترتل القرآن بصوت يذكّرني بترتيل القرآن في المآتم، وملابس الحداد، والطرح السوداء تلفها المعزيات حول رؤوسهن، متلاصقات في صف واحد كرؤوس

الغربان، مناديل بيضاء يرفعنها فوق عيون حمراء، أو يحركنها في الهواء حول رؤوسهن السوداء، ويطلقن أصواتاً حادَّة.

لم أكن أفرّق في طفولتي بين أصوات الندب والنواح في المآتم وأصوات الزغاريد في الأفراح. وكنت أضحك أحياناً في المآتم فإذا بالشفاه من حولي كلها ممطوطة، وقد أسمع من يقول لي: عيب. . . أو حرام.

وفي السجن لم أكن أسمع من «بدور» إلا كلمة حرام. كل شيء عندها حرام حتى الرياضة البدنية: فالمرأة يجب ألا تهزّ جسمها. والضحك عندها حرام لأن في القرآن آية تقول: «إن الله لا يحب الفرحين». رأيتها مرة تضحك دون أن تدري فرفعت يدها بسرعة إلى فمها وكتمت الضحك وهي تقول: «اللهم اجعله خيراً يا رب»!

صوتها وحركة يدها والطرحة السوداء على رأسها تشبه جدّتي الريفية أم أبي، إلا أن جدّتي كانت تكشف وجهها ولم تعرف النقاب أو الحجاب. وجدتي كانت نحيفة الجسم خفيفة الحركة تشتغل طول النهار في الحقل وتعود إلى البيت لتطبخ وتخبز. لكن «بدور» سمينة ثقيلة الحركة لا تفعل شيئاً طول النهار سوى الجلوس، أو تتناقش مع زميلاتها المنقبات حول ما في القرآن ونقاشها كالشجار.

والثانية كان اسمها «فوقية»، شابة في حوالى الثلاثين أيضاً. تشبه «بدور» إلى حد كبير في ملامحها وحركاتها. لكنها لم تكن ترتدي النقاب على وجهها، ولا الحجاب. كانت سافرة مثلنا

تماماً. لكنها كانت تضع الحجاب على عقلها ولا تتصور أن هناك من يفكر بطريقة أخرى غير طريقتها. ونقاشها أيضاً يأخذ شكل الشجار.

كانت تشبه «بدور» في ذلك الإيمان الأعمى بفكرة واحدة، ومن لا يؤمن مثلها يكون كافراً. لكن إيمانها لم يكن بالله أو محمد مثل «بدور». لا تتحرك من مكانها إلا نادراً. تظل جالسة طول النهار تتناقش في السياسة والحزب والجماهير الكادحة. وتختلف مع الأخريات حول معاني الاشتراكية العلمية.

التجربة الأولى في السجن، وفي أعماقي عشق عجيب لأول كل شيء في حياتي. أول مرّة ركبت الحمار وأنا طفلة. وأول مرة ركبت القطار إلى المدرسة. وأول مرة ركبت الطائرة من القاهرة إلى أسوان. وأول مرة أسبح في بحر الإسكندرية. وأول مرة أفقد زوجي بالطلاق. وأول مرة أفقد عملي في الحكومة. وأول مرة أخوض آلام الولادة ليخرج من جسدي رأس طفلي. وأول مرة أضع السماعة في أذني وأسمع دقات القلب. وأول مرة أرى حروف اسمي في المطبعة. وأول خطوة أخطوها نحو أول رجل في حياتي.

في كل مرة كانت تنتابني رعشة. مزيج من الخوف والفرح. وفي كل مرة تغلّب الفرح على الخوف. حتى هذه المرة وهم يسوقونني إلى السجن تغلّب الفرح على الخوف. . كيف؟ لا أدري! لكني كنت أحسّه في أعماقي كامناً مختفياً يخشى الظهور أمام الآخرين وكأنه نوع من الإثم.

لقد ولدت في عالم يكره الفرح والفرحين. حتى أمي كانت ترمقني بضيق أو كراهية حين تراني أرقص بفرح. كنت أظن أول الأمر أنها لا تريدني أرقص، لكني أدركت فيما بعد أنها لا تريدني أفرح. لماذا؟

عرفت حين كبرت أنها ولدت مثلي في عالم يكره الفرح والفرحين، وينظر إلى كل لذّة إنسانية على أنها انحراف. أما لذة الاستكشاف فهي محرَّمة، لأن المعرفة محرَّمة. الآلهة وحدها هي التي تمتلك المعرفة. والجهل هو النعمة التي منحها الله لعبيده من البشر، ومن يشتهي المعرفة كمن يشتهي الإثم والخطيئة والثمرة المحرمة.

لكني ولدت بغريزة عارمة جامحة للمعرفة، لمعرفة كل شيء، كل شيء، حتى الموت. وربما بلغت حافة الموت أحياناً لمجرّد إشباع استكشافات طفولية.

أما السجن فهو في نظري كالموت يستحق الاستكشاف. وطوال حياتي أنظر إلى من دخل السجن وخرج على أنه عرف شيئاً لم أعرفه، وعاش حياة لم أعشها.

والفرق بين السجن والموت، أن الإنسان قد يخرج من السجن ويعود إلى الحياة ويحكي للناس عما رآه. أما الموت فلا أحد يعود ولا أحد يحكي.

لهذا لم تكن تجربة الموت تطوف بخيالي. أما السجن! كم تمنيت أن أدخل السجن، بشرط أن أخرج منه مرة أخرى سليمة،

وفي الوقت الذي أريده. لكنها شروط لا يمكن أن يضمنها أحد. وظلّ السجن في خيالي كالكابوس، كالموت، الداخل إليه مفقود، والخارج منه مولود.

وفي السجن عرفت النقيضين معاً. قمّة الحزن وقمّة الفرح. ذروة الألم وذروة اللذة. أعظم جمال وأشد قبح. وفي بعض اللحظات تصورت نفسي أعيش قصة حب جديدة. كيف؟ لا أدري، لكني في السجن وجدت قلبي متفتحاً للحب كما كنت في أول الشباب وربيع عمري. وفي السجن تذكرت ضحكتي المنطلقة وأنا طفلة، وعاد إلى فمي طعم دموعي في أقسى وأصعب أيام حياتي.

وفي السجن استعدت كل طفولتي وأصبحت أصفق وأرقص فرحاً لمجرّد سماع صوت الملعقة وهي تقلب السكر في كوب من الشاي.

كان الشاي كالتراب الأسود والقش، والسكر قطع سمراء يحوطها النمل، لكن ما أن أفتح عيني في الصباح وأشم بخار الشاي يتصاعد من الإبريق حتى أقفز من مكاني، وأصبّ الشاي في الكوب البلاستيك الأخضر، أرشفه على مهل رشفة رشفة، ومذاقه في فمي ألذّ من أي شاي في حياتي، والوجوه من حولي كلها محببة، قريبة إلى نفسي. حتى تلك الوجوه المختفية تحت النقاب الأسود، حين رفعت النقاب رأيت وجوهاً مشرقة صافية تفيض بالحب والتعاون والإنسانية.

وعشت الحياة الجماعيّة وسط النساء والفتيات. استعدت سعادتي حين كنت تلميذة في المدرسة الثانوية. نفرح ونغضب ونتخاصم ثم نتصالح. نفرح بأقل شيء ونحزن لأبسط سبب. تظهر الدموع في عيوننا ونحن نبتسم... وتشرق الابتسامة ونحن لا نزال نبكي. تبدو الخلافات بيننا أحياناً كالبحور تفصل بين الواحدة والأخرى، وكل واحدة منا جزيرة وحدها. ويشتدّ العراك والخلاف. لكن سرعان ما يحدث التقارب والتآلف والوقوف صفاً واحداً في مواجهة السلطة الواحدة التي وضعتنا وراء القضبان.

«نور» الفتاة الوحيدة المسيحيّة. قبضوا عليها ضمن من قبضوا عليهم من المسيحيين والأقباط. فتاة في حوالى العشرين من عمرها رقيقة خجولة لا علاقة لها بالسياسة أو الفتنة الطائفيّة، التهمة التي ألصقت بكل من انتمى إلى المعارضة. وكنا نتساءل: إذا كانت الدولة تتهم هؤلاء المتحفظ عليهم داخل السجون بإشعال الفتنة الطائفية والكراهية والحقد بين فئات الشعب، لماذا إذن وضعتهم جميعاً في عنابر واحدة. لماذا حبست المسلم المتطرّف مع المسيحيّ مع اليمين مع اليسار! أتريد بذلك أن يفتك بعضهم ببعض داخل السجون؟!

لكن الذي حدث هو العكس تماماً. ساد الوئام بين الجميع. تحقق التفاهم داخل السجون بين كل فصائل المعارضة...

وفجأة صدر قرار جديد... فصل المسيحيين عن المسلمين... حبس كل فريق في عنابر منفصلة!

ودخل مسؤول السجن علينا ذات صباح ينادي على «نور» اسم الفتاة المسيحية.

قال: هاتي ملابسك وتعالي معي.

شحب وجهها بالخوف.

قلنا جميعاً في صوت واحد: إلى أين تأخذها!

قال: صدر أمر بفصل المسيحيين عن المسلمين.

قلنا: لماذا؟ لا يمكن أن تحبس وحدها بعيداً عنا!

وقفنا صفاً واحداً لنحول دون فصلها. لكنه انتزعها بالقوة. عانقتنا واحدة واحدة وهي تبكي.

جلسنا واجمات صامتات... وفي الصمت أدركنا حقيقة الأمر.. إن قرار التحفّظ لم يصدر خوفاً من الفتنة الطائفية لكن خوفاً من الوحدة الوطنية...

*

أشد الكوارث بداياتها، وأخطر ما في حياة المسجون هو الانتقال المفاجىء من حياة إلى حياة، ومن عادات اكتسبها طوال حياته إلى عادات جديدة لا بد أن يتعلّمها. وتزداد المشقّة كلما كان الإنسان مرفهاً أو مدللاً، ينتظر دائماً أن يخدمه الآخرون.

لكنني تعودت أن أخدم نفسي، أعمل كثيراً وآكل قليلاً. وأستحم بالماء البارد في الشتاء. وأمارس الرياضة البدنيّة منذ الطفولة. أدركت مبكراً حاجتي إلى ذراعين قويتين أدافع بهما عن نفسي عند الضرورة... في الشارع أو في الأوتوبيس حين يحاول

أي رجل أن يحوّل كياني إلى جسد أنثوي يستطيع أن يمسكه من الخلف أو الأمام.

وفي الجامعة حين كانت زميلاتي الطالبات يتفاخرن بنعومة أيديهن وصغر أقدامهن ورقة أجسادهن الصغيرة وارتخاء عضلاتهن الضعيفة، كنت أفخر بقامتي الفارعة وعضلاتي القوية المشدودة. كيف حدث ذلك؟ لا أدري! كنت أحس في أعماقي عقلاً يرفض الضعف كأنوثة، أو الأنوثة كضعف. لم أضع أبداً مساحيق التجميل على وجهي. لكني تعوَّدت أن أغسل وجهي كل صباح، وأسناني بالفرشاة والمعجون، وأمارس رياضتي الصباحيَّة ثم أضع جسمي تحت ماء الدش الغزير.

فتحت عيني ذلك الصباح الأول في السجن فلم أجد ماء في الصنبور ولا فرشاة أسنان ولا معجون ولا صابونة ولا فوطة ولا دش. والمرحاض ثقب في الأرض بغير باب وبغير سيفون. طافح بمياه المجاري والصراصير.

بدأت حياتنا في السجن بإصلاح حال المرحاض. كان ذلك هو نقطة الاتفاق الأولى وبداية اللقاء بين جميع الزميلات منقبات وسافرات.

لحسن الحظ أن أمعاء الإنسان لا تفرِّق بين يمين أو يسار أو دين ودين. ومهما اختلف الإنسان مع الإنسان فكرياً أو سياسياً فحاجتهما إلى المرحاض واحدة.

وعقدنا أول اجتماع في العنبر حضرته جميع الزميلات، حتى

«بدور» التي رفضت أول الأمر أن تعقد جلسة واحدة مع اللائي أطلقت عليهن «الكافرات الملحدات» كانت أكثرنا حماساً لهذا الاجتماع. لم أرها متحمِّسة بهذا الشكل حتى وهي تصلي أو تقرأ القرآن. وعرفت من بعد أنها كانت تخاف دخول المرحاض بسبب الصراصير. ولولا الإمساك الشديد الذي كاد يقتلها لظلَّت على هذا النحو إلى الأبد.

«فوقية» أيضاً كانت شديدة الحماس لهذا الاجتماع الأول. كانت مثل «بدور»، تقاطع المرحاض، ليس خوفاً من الصراصير، وإنما عجزاً عن الجلوس القرفصاء فوق ذلك الثقب في الأرض.

كنا جميعاً نعاني هذه المشكلة، وتفزعنا الصراصير، والحشرات، إلا أن المشكلة كانت حادَّة بالنسبة لبدور وفوقية.

ظننت أول الأمر أن مشكلة الإمساك هي سبب حماسها للاجتماع، لكني أدركت من بعد أنها تعشق عقدالاجتماعات، أو أنها أدمنت هذه العادة. عادة تنظيم الاجتماعات. وتعوَّدت أيضاً الكلام باللغة الفصيحة والضغط على مخارج الألفاظ والجلوس في كرسي الرئاسة.

وفي السجن الكراسي من الممنوعات. كنا نجلس على الأرض، وبدا عليها في الأيام الأولى تفتقد الكرسي والمنصة. ثم خلقت لنفسها منصة وهمية من الدور العلوي للسرير الحديدي، صعدت إليه بصعوبة شديدة، ثم عدلت عنه بعد أن سقط السرير بها، وأصبحت تجلس على الدور السفليّ. ثم

تعوَّدت الجلوس على الأرض. لكنها لم تتعود أبداً أن تربع ساقيها أو تثنيهما تحتها وهي جالسة. وكانت مثل «بدور» ضد تحريك عضلات الجسم، ليس بسبب الحرام أو القرآن، ولكن بسبب إضاعة الوقت في حركات عضلية لا طائل وراءها... وكنا نضحك معها ونقول لها: ألا تؤمنين بجدوى الحركة لأية عضلة في الجسم إلا اللِّسان؟

خلال الاجتماع الأول بدأنا نوزِّع على أنفسنا الأعمال والمسؤوليات لنحقق لأنفسنا معيشة الآدميين داخل العنبر. واتخذنا قراراً جماعياً واحداً بالوقوف صفاً واحداً متماسكاً في مواجهة إدارة السجن لتحقيق المطالب الآتية:

١ . إصلاح المراحيض وصنابير المياه وتركيب دش في أحد المراحيض من أجل الاستحمام.

٢ . إبادة الصراصير والحشرات القارضة وغير القارضة.

٣ . الحصول على «الخبز الملكي» وليس خبز السجن العادي الذي يسعى داخله الدود والسوس.

٤ . سد الفراغ في الجدار بيننا وبين عنبر الأمهات لمنع الأصوات التي تقلقنا طول الليل والنهار.

اكتشفنا أن الأصوات العجيبة، الصراخ والنواح والعواء والنحيب كلها تأتي من عنبر الأمهات السجينات مع أطفالهن الذين ولدوا في السجن. ثلاثمائة أم وثلاثمائة طفل داخل عنبر واحد مثل عنبرنا لا يفصلنا عنهم إلا نصف جدار لا يصل إلى

السقف. إذا كفَّت الأمهات عن الشجار والصراخ بدأ الأطفال في العويل. وإذا كفَّ الأطفال بدأت الأمهات... وهكذا ليل نهار...

إذا كان هناك من جحيم فوق الأرض فإنه عنبر الأمهات في سجن النساء بالقناطر الخيريّة. أصبح عنبرنا بالنسبة لذلك العنبر هو النعيم، وجنَّة الله فوق الأرض. والمسائل كلها نسبية. نحن أربع عشرة امرأة في العنبر... عندنا مساحة من الأرض.. نستطيع أن نفرد أجسامنا... نستطيع أن نمدَّ الساقين... أن نتمشى بين الأسرَّة...

لكن إلى جوارنا وعلى المساحة نفسها من الأرض تتكدَّس مئات الأمهات، ومئات الأطفال... لكل أم طفل على الأقل... أجساد النساء متلاصقة والأطفال... الحشرات تقرض أجساد المواليد... الأطفال تصرخ... الأمهات يتنازعن على جرادل الماء، على قليل من السكر يذاب في الماء ليشربه الطفل... تمسك كل واحدة بشعر الأخرى.... يتشابكن بالأيدي والأرجل... تدوس الأقدام الحافية المشقَّقة على بطون الأطفال وأردافهم العارية فوق الأرض... ينطلق السباب... المرأة تسب المرأة وتلعن أمها وأعضاء الأنثى. تسبّ نفسها. تلعن اليوم الذي ولدتها أمها... وتلعن اليوم الذي ولدت فيه طفلها. نساء فقيرات أميّات دخلن السجن بسبب الفقر أو بسبب الجهل أو بسبب قهر الرجال... وراء المسجونة منهن رجل... أب يكوي ابنته لتسرق... زوج يضرب زوجته لتمارس الدعارة.

أخ يهدّد أخته لتهرّب له الحشيش والمخدرات. . . رئيس عصابة سرق طفلة ودربّها في الشوارع على التسوّل. . .

قاع المجتمع، قاع القاع. المعذبات فوق الأرض. الوجه الآخر من النظام. . .

في الليلة الثالثة أمسكت رأسي. أحسست أنني سأفقد عقلي. لا بد أنهم وضعونا في هذا المكان لتصيبنا هذه الأصوات بالجنون!

في كل حياتي لم أسمع مثل هذه الأصوات. كملايين المطارق تدقّ فوق الأذنين. . . وتتحوّل الأصوات كلها إلى صوت واحد كثيف حارق ويكاد يلمس باليد كالسائل الكاوي.

كل شيء بدا محتملاً. . . السوس في الفول والدود في الخبز والصراصير والبق والقمل والأبراص والثعابين. . . كل شيء إلا هذا السائل الكاوي الذي يمتدّ في الأذنين وينتشر في الرأس ويغزو كل خلايا المخ ويضغط على العقل كالغاز السام.

وفي صباح اليوم الرابع كنا جميعاً وقوفاً منقبات وسافرات صفاً واحداً. . . ومطلبنا الأول. . قبل المرحاض وقبل الخبز الملكيّ وقبل احضار ملابس من البيوت وقبل خروجنا في الفناء إلى الهواء والشمس. . هو سد ذلك الجدار بيننا وبين عنبر الأمهات والأطفال بالطوب والإسمنت.

*

أصابتنا الدّهشة حين بادرت إدارة السجن إلى تلبية هذا الطلب بأسرع من أي طلب آخر. في صباح اليوم التالي رأينا الرجال بالسراويل والسترات الزرقاء البالية، يحملون الطوب والإسمنت وأدوات البناء، ومن حولهم عدد من الجنود المسلّحين بالبنادق.

ما أن ظهروا في الفناء الواسع حتى دبّت في عنابر المسجونات حركة غير عاديّة. رؤوس منكوشة الشعر تطل من بين القضبان وعيون تلمع. أياد تلوّح. . ابتسامات. . ضحكات. . غمزات العين. . عنبر الدعارة كلّه خرج إلى الفناء يشهد موكب الرجال. . . موكب حزين من الشباب عاشوا الشهور والسنين داخل الزنازين في سجن الرجال المجاور لنا. أقدامهم حافية وجوههم ناحلة شاحبة. . عيونهم منكسرة حزينة. . رفع أحدهم عينيه ورأى النساء والفتيات بالجلاليب البيضاء. . لمح العيون تبرق وتبتسم. . . لمعت عيناه فجأة. . ابتسم. . ثم أطرق إلى الأرض. . . رفع الآخرون رؤوسهم. . . لمعت عيونهم. . . اقتربت الفتيات من الصف الطويل المنتظم. . واحدة مدّت يدها وصافحت واحداً منهم، ناولته سيجارة. . . أخذها بلهفة. . . توقف آخرون عن السير وبدأوا يرمقون الفتاة بعيون وجلة. . . تعرج الصف المنتظم وبدأت حركة كالهرج. . . وعيونهم تبرق. . حرّك الجنود المسلحون بنادقهم فانتظم الصف من جديد. .

من خلال القضبان لمحتهم «بدور» من بعيد فأطلقت صرخة: رجال قادمون! قفزت الزميلات المنقبات والمحجبات يرتدين العباءات والطرح والنقاب ويختفين وراء الأسرة والجدران.

فتحت لهم الشاويشة باب الحوش الصغير، ثم باب العنبر، ودخلوا، وأكملوا بناء الجدار بيننا وبين عنبر الأمهات.

انقطع السائل الكاوي الذي كان يخرق الأذنين. أحسسنا فجأة أننا انتقلنا من الجحيم إلى النعيم.. تبادلنا نظرات التشكك... وهتفت واحدة: غريبة... هل يمكن أن نصدق أن إدارة السجن تسعى إلى راحتنا بمثل هذه السرعة؟... رفعت «فوقية» عينيها الصغيرتين تفحصان بدقة الجدار الذي تمَّ بناؤه ثم قالت وهي تضغط على الكلمات بثقة وتأكد: إني أعتقد دون أدنى شك أن الغرض الوحيد من بنائهم هذا الجدار هو تركيب أجهزة داخله لتسجيل كل ما يدور هنا.

ارتفعت عيون زائغة تفحص الجدار بنظرات وجلة قلقة... وساد جو من الكآبة والصمت والخوف المكبوت...

وضحكت وأنا أقول: هذا شيء جميل... سوف تصلهم بسرعة آراؤناالتي يخاف الآخرون من البوح بها أمامهم...

وضحكت لطيفة وقالت: وسيسمعون أننا نضحكَ... وضحكت جميع الزميلات إلا «بدور» و «فوقية» ظلت عضلات وجهيهما متقلّصة. رمقت «بدور» زميلاتها المنقبات بعينين غاضبتين وقالت: الضحك بهذا الصوت العالي حرام. أما «فوقية» فقالت بصوت مكتئب: لا بد أن نناقش هذه المشكلة، التكنولوجيا تقدَّمت وهم يركبون أجهزة تسجيل بأحجام صغيرة جداً في كل مكان، فما بال السجون أو عنابر المساجين

السياسيين!... سوف يسجلون كل كلمة نقولها ولن نستطيع أن نتنفّس دون أن تنقل الأجهزة الإلكترونية حركة صدورنا وشكل أنفاسنا!

الهواء بدأ يثقل، صدورنا أصبحت تتحرّك بحذر شديد أو لا تتحرّك على الإطلاق... أحسست بالاختناق.... حاولت أن أخفف جو الكآبة.. وقلت: فليسجلوا ما شاؤوا لهم التسجيل... ونتنفس نحن كما نشاء ونقول ما نشاء، لقد دخلنا السجن لأننا ننادي بالحريّة ونرفض القيود فهل نضع على أنفسنا القيود داخل السجن! هل نخنق أنفسنا بأنفسنا! ثم ماذا سيحدث لنا أكثر مما نحن فيه! لا ينقص إلا الموت!

وقالت لطيفة: صحيح لا ينقصنا إلا الموت... وماذا بعد السجن؟

وضحكت عواطف: على الأقل قبل أن نموت يسمعوا آراءنا.

تحمّست واحدة من المنقبات: والله العظيم سوف أقول كل ما عندي وليسمع الطاغوت!

وردَّت واحدة: يسقط قرار التحفّظ! وقانون العيب! وأخلاق القرية! وتوالت الهتافات... يسقط قانون الاشتباه! ومحكمة القيم! يسقط الانفتاح! تسقط معاهدة كامب ديفيد! والتطبيع! تسقط الدكتاتوريّة! يسقط الاستعمار الجديد! تسقط الامبريالية! والصهيونيّة! وصديقي كارتر وريجان وصديقي بيجن! يسقط الكذب والزيف!

ورددت الجميع الهتاف بصوت واحد.. ثم بدأت الضحكات

ترنّ في العنبر، وغمزت واحدة بعينها للجدار الجديد وهي تقول: سجِّل يا عم سجِّل!

*

في الأيام الأولى كانت الأوامر مشدَّدة. والذعر منتشر خارج السجن وداخله. صوت السادات الجهوري لا ينقطع في الراديو، وصورته في الصحف وعلى شاشة التلفزيون كل يوم، فاغرا فَاهُ عن آخره، كاشفاً عن أسنانه كلها، ضاغطاً على فكيه بكل قوته، ملوِّحاً بقبضة يده في الهواء...

لن أرحم... سوف أسحق... لن أرحم...

من حوله رجالات الدولة، الجيش والبوليس والمباحث والمخابرات والصحافة والإعلام، مجلس الشعب والشورى، جهاز المدعي الاشتراكي، كبار موظفي الحكومة والوزارات والقطاع الخاص وشركات الانفتاح والبنوك الأجنبية ومشاريع الثورة الخضراء والأمن الغذائي والرخاء وأقطاب الأمن والسلام.

من شدّة الذعر أصبح الناس يخافون السير في الشوارع. وكل من له قريب أو قريبة في السجن بات قلقاً ينتظر من يدقّ بابه ليأخذه إلى السجن. وأصبح كل من يرفع سمّاعة التليفون يظن أن صوته يذهب مباشرة إلى المباحث. وكل إنسان ينام في غرفة نومه يتلفَّت وينظر إلى الجدران متصوراً أنها مليئة بأجهزة التسجيل والعدسات الإلكترونية.

كان المفروض ألا نعرف شيئاً عما يحدث خارج السجن، أو

داخل السجن. أن نظل داخل العنبر وراء البابين الحديديين. لا تصل إلينا الصحف ولا راديو ولا رسائل ولا زيارات أهل، ولا أطعمة من البيوت، ولا اتصال ولا كلام من خلال القضبان، مع أي واحدة من المسجونات السائرات في الفناء.

لم يكن يدخل عندنا إلا الشاويشة والضابطة ومسؤول السجن والمسؤولون الآخرون القادمون من وزارة الداخلية أو المباحث.

في كل يوم كنا نرى هؤلاء المسؤولين ذوي الملابس البوليسيّة أو ذوي النظارات السوداء الذين يفدون إلى عنبرنا في زيارات متكرّرة مفاجئة، يفاجئون بها إدارة السجن بمثل ما يفاجئوننا.

ملامحهم متشابهة، وعضلات وجوههم مشدودة كأنما بالأسلاك، ومشيتهم وحركاتهم، والعصا ذات البوز المدبب في اليد اليسرى، وفي اليد اليمنى سبحة حباتها صفراء صغيرة، يحركونها دون توقف والأظافر مقصوصة بعناية شديدة من الجوانب ولها بوز مدبب ينتهي رفيعاً دقيقاً كالإبرة.

وجوههم حليقة ورؤوسهم أيضاً حليقة بشكل واحد، كأنما يذهبون إلى حلاقٍ واحد، ورائحتهم واحدة، ذلك النوع من ماء الكولونيا الذي يسكبه الرجل على وجهه بعد الحلاقة.

الرائحة كانت تفوح في العنبر وتبدو لنا غريبة شاذّة. تفتح لهم الشاويشة باب الحوش الصغير ثم باب العنبر وينتشرون أمامنا كالجراد الناعم الخالي من الأجنحة، وقد خبّأ أجنحته في طيّات بطنه الكبير، البارز فوق حزام البنطلون.

يتقدمهم كبيرهم أو رئيسهم، بكامل هيئته البوليسية، النجوم تلمع على صدره وكتفيه، والعصا ذات البوز يحرّكها في الهواء، وعضلات عنقه وظهره مشدودة إلى الوراء، نائبه إلى جواره بالملابس البوليسية أيضاً. نجومه على كتفيه أقل. وإلى جوار النائب مساعده بالملابس البوليسية أيضاً. لكن النجوم أقل فأقل. مسؤول المباحث بالملابس غير الرسمية، والوجه التنكري خلف النظارة السوداء أصغر حجماً، وارتفاعة بطنه فوق حزام البنطلون أقل.

في آخر الصف كان طبيب السجن، بدون معطف أبيض، يرتدي أيضاً الملابس البوليسيَّة، يسرع الخطى ليقترب بأذنه من فم الذي أمامه في الصف. ومن وراء الطبيب تقف الضابطة، منتصبة إلى جوار مسؤول السجن، تشبهه لكنها بدون ملابس رسمية. تشدّ عضلات وجهها وشفتاها مضمومتان بقوة وذراعاها حول صدرها مضمومتان وساقاها السميتتان مضمومتان بشدة تهتزان فوق كعبين عاليين رفيعين من الألومونيوم. والشاويشة إلى جوارها تحاول هي الأخرى أن تشدّ عضلات ظهرها المحني داخل معطفها الرماديّ، والشريط الأسود الباهت فوق كتفها، ويداها المعروقتان السمراوان مضمومتان فوق صدرها، وقدماها المشققتان داخل الشبشب البلاستيك.

كنا نجلس بعضنا على الأرض وبعضنا على الأسرَّة، شاخصات بعيوننا المفتوحة المكشوفة أو المختفية وراء الحجاب أو المطلّة من خلال ثقوب النقاب، نتابع حركة ذلك الطابور

الطويل من الهيئة العليا لإدارة الدولة البوليسيّة.

وهزَّ رئيسهم رأسه وهو يهزّ عصاه وارتفع كتفاه إلى أعلى وفحص الجدران بعينيه ثم دار بهما على الوجوه أمامه، وقال:

ـ أرجو أن تكونوا مرتاحين هنا...

تبادلت الزميلات النظرات الساخرة وقالت واحدة بسخرية:

مرتاحين جداً.. بوجودكم!

انطلقت ضحكة من تحت نقاب أسود. تجاهل الرئيس الضحكة وقال: نحن نحاول أن نلبي طلباتكم في حدود السلطة المتاحة لنا... وفي حدود التعليمات التي وصلتنا حتى الآن.. أليس كذلك يا أستاذ عبد الرحمن؟!

ونظر إلى أحد المسؤولين في إدارة السجن...

وقال المسؤول بسرعة: أيوه يا فندم... تمّ بناء الجدار حتى السقف ليمنع عنهن أصوات الأمهات والأطفال... وتمّ تركيب دش في أحد المراحيض... وأخطرنا إدارة الحشرات بوزارة الصحة لإرسال حملة لإبادة الحشرات من العنبر.. وخصصنا لهن نوبتجية من عنبر الدعارة لتنظيف العنبر، وتم صرف الخبز الملكي لهن، ونحن لا نتأخر يا سعادة البيه عن تلبية طلباتهن.

ونهضت واحدة من الفتيات: أنا أريد ورقة وقلماً لأكتب رسالة لأمي... و... وقاطعها قائلاً: إلا الورق والقلم!... ممنوع منعاً باتاً! إلا الورقة والقلم!! الطبنجة أهون من الورقة والقلم!

رنَّت المقارنة بين الطبنجة والورقة والقلم في أذني غريبة، كعبارة في تمثيليَّة هزليّة. ظننت أنني جالسة في مسرح. لم أتصور أن الورقة والقلم يمكن أن يكونا أخطر من الطبنجة في عالم الواقع والحقيقة.

لكن يبدو أن الأمر كان كذلك بل أكثر من ذلك. رأينا سجينات يفتشن جسدياً. تمد الضابطة أو الشاويشة يدها داخل جسد المرأة فإذا ما عثرت على قصاصة ورق انقلب السجن رأساً على عقب.

أخذ يتمشى في العنبر ومن خلفه الطابور... ألقى نظرة على المراحيض... ثم استدار نحونا وقال: أنتم في نعمة هنا... عندكم دورة مياه... ونحن نراعي دائماً راحة النساء... لا يمكن أن نعامل المرأة كالرجل...

رمقني بنظرة وهو يقول: أليس كذلك يا دكتورة نوال؟ أم أنك تريدين المساواة بالرجال المتحفظ عليهم في طرة!

وقلت: لا بد أن أرى أولاً كيف يعيش المتحفظ عليهم في طرة ثم أصدر حكمي!

وقال: هنا جنّة بالنسبة للسجون الأخرى.

وقالت عواطف: ولماذا لا تأتي وتسكن في الجنّة!

تقلّصت ملامحه

ثم قال: هل هناك طلبات أخرى؟

وقالت واحدة من الفتيات: «نريد ملابس من بيوتنا.. أنا جئت بهذا الثوب الوحيد الذي ارتديه ليل نهار، وأغسله وأجلس إلى جواره حتى يجفّ ثم أرتديه»...

أخفت المنقبات عيونهن بأيديهن خجلاً... خطر في بال بعضهن أن هذا الصنف من الرجال تخيلها جالسة عارية بدون ملابس تنتظر أن يجفّ ثوبها. وأطرقت الفتاة في خجل أيضاً...

وقلت: هذا أمر لا يخجلنا ولكنه يخجل رجال البوليس الذين كذبوا علينا ولم يصرّحوا بأنهم يسوقوننا إلى السجن. أنا أيضاً أغسل ثوبي الوحيد وأنتظره حتى يجف...

وهزّ الرئيس رأسه وقال: هذا أمر علاجه سهل... أليس كذلك يا شفيق بيه؟ ونظر إلى مسؤول المباحث. وهز مسؤول المباحث رأسه فاهتزَّت النظارة السوداء فوق عينيه.

وقال: طبعاً يا صلاح بيه هذا موضوع بسيط جداً وسوف تصل إليهن الملابس خلال أيّام.

وانبسطت أسارير صلاح بيه فجأة وكاد يبتسم وهو يقول: عال عال... إذن لا توجد مشكلة!

وانتقلت الابتسامة كأنما بالعدوى السريعة من فوق شفتي صلاح بيه إلى شفتي نائبه ثم مساعده ثم الآخرين واحداً وراء الآخر حتى الضابطة والشاويشة... الطبيب كان آخر من ابتسم. تردَّد لحظة في أن يفتح شفتيه المزمومتين. ربما أراد أن تكون شفتاه مستقلتين تماماً عن شفتي الرئيس. ولكن يبدو أنه أعاد

التفكير وتذكّر أنه موظف في وزارة الداخلية شأنه شأن الضابطة فانفرجت شفتاه باسماً، ولم يكتف بالابتسامة بل ألقى رأسه إلى الوراء وضحك بصوت عال مؤكداً وجوده ومحققاً ذاته المستقلة عن الضابطة أو الشاويشة.

وقالت واحدة من المنقبات بصوت خافت لا يكاد يسمع: وكيف سنحصل على الملابس من بيوتنا. هل سيسمح لأهلنا بزيارتنا وإحضار الملابس معهم.

وردّ مسؤول المباحث بسرعة: لا. الزيارات ممنوعة. كل واحدة منكن تحتاج إلى ملابس تكتب طلباً بالملابس التي تريدها وتسلّم الطلب لضابط المباحث المسؤول.

وهتف صلاح بيه: عال.. عال.. إذن لا توجد مشكلة.

واتّجه نحو الباب ليخرج من العنبر ومن خلفه الطابور الطويل، لكني ناديت عليه قائلة: يا أستاذ صلاح...

استدار نحوي وعيناه تتعكران بغضب مفاجىء. ربما لأنني ناديته باسمه أو بلقب «أستاذ» وليس «بيه»...

قلت: توجد مشكلة يا أستاذ صلاح.

تعكّرت جميع العيون وتقلّصت الوجوه...

وقلت: المشكلة أننا لا نعرف كيف سنكتب هذه الطلبات دون أن يكون معنا قلم وورقة.

تراخت العضلات وهز الرئيس رأسه موافقاً وقال: معك

حق... ثم نظر إلى مساعده، ونظر مساعده إلى مسؤول المباحث، ونظر مسؤول المباحث إلى ضابط المباحث الذي قال: هذه ليست مشكلة، سوف تحضر لكم الضابطة قلماً وورقة لكتابة هذه الطلبات. ورمق الضابطة من تحت النظارة السوداء وهو يردُد: لكتابة هذه الطلبات فقط كل واحدة تأخذ ورقة واحدة وتكتبها أمامك ثم تأخذي منها القلم والطلب على الفور.

وهتفت الضابطة: حاضر يا بيه.

ونهضت واحدة من المنقبات وقالت: وأنا أريد أن أكتب رسالة لأمي، قبضوا عليّ في الشارع، وهي في البيت لا تعرف أين أنا. لا بد أنها تدور في الشوارع تبحث عني.

وقال صلاح بيه: .. لا تقلقي.. لا بد أنها عرفت الآن.

وقالت الفتاة المنقبة: عرفت ماذا؟

وقال ضابط المباحث: عرفت أنك في مكان أمين ولا خوف عليك. لقد أعلن السيد رئيس الجمهورية أن قرار التحفّظ لا يعني إلا الحفاظ عليكن في مكان أمين حتى يبدأ المدعي الاشتراكي التحقيقات.

ورنّت ضحكة في العنبر.

وقالت واحدة من السافرات: ومتى سيبدأ المدعي الاشتراكي التحقيقات؟ ورفع مسؤول المباحث يديه إلى فوق قائلاً: الله أعلم... نحن مثلكم لا نعرف شيئاً... وننتظر التعليمات من فوق...

وتابعت حركة يديه عينان صغيرتان ساذجتان تلمعان من خلال ثقوب النقاب ورفعت عينيها إلى السقف ثم شهقت بدهشة: من فوق؟!

ردَّ صلاح بيه بسرعة وهو يحرِّك العصا في الهواء:

كلنا في انتظار التعليمات من فوق... وتعشموا خيراً إن شاء الله فأنتم في دولة القانون والمؤسسات ولن تبقى في السجن أية واحدة تثبت براءتها.

واستدار ليتجه نحو الباب... ولم أشعر إلا وأنا واقفة على قدمي، وقد عاد إلى ذاكرتي فجأة كل ما حدث... كأنما كنت نائمة وصحوت... الدقات العنيفة على الباب.. صوت الباب ينكسر كالانفجار... البنادق المشهرة في وجهي... صوت الرجل العجوز... الطريق الطويل المظلم... رحلة الساعات المظلمة إلى المجهول... السلسلة ـ المفاتيح ـ الجدران ـ القضبان ـ الحشرات... الأرق... ابني وابنتي وزوجي يدورون في الشوارع يبحثون عني.. الأيام والليالي والعمر الذي يضيع في الظلام... وبعد كل ذلك يأتي هؤلاء الرجال المعطّرون بعد أن ناموا الليل كله وغيّروا ملابسهم واستحموا بالصابون وأكلوا وشربوا... جاؤوا يستعرضون علينا ملابسهم البوليسية ونجومهم اللامعة، ونحن جالسات على الأرض، وجوه شاحبة مرهقة ـ عيون قلقة مؤرقة ـ متربة ـ أقدام معفّرة اسودت كعوبها من السير فوق تراب الحوش ثم الخوض في مياه المجاري بالمرحاض... ويقولون إننا في الجنّة وفي مكان أمين، ومن تثبت براءتها سوف تخرج!!

وهتفت بصوت عالٍ: يا أستاذ صلاح!

واستدار نحوي ـ واستدار معه كل الطابور... رأيت عيونهم متّسعة تحملق فيّ، فأخذت أحملق فيهم، وأنا أحسّ أن صدري ينتفخ بالغضب، لكني تذكّرت أن هؤلاء ينتظرون الأوامر من فوق... إنهم ينفذون الأوامر فحسب... تحكمت في غضبي وقلت بصوت بارد لكنه قاطع كحد السكين:

إن العقل والمنطق يا أستاذ صلاح لا يمكن أن يفهم ما قلته الآن عن هذه البريئة التي ستخرج من السجن بعد أن تثبت براءتها... ألا ترى أن هذه العبارة ضد القانون! إذا خرجت هذه البريئة من السجن بعد شهر أو سنة فمن يا ترى هذا الذي سيعوّضها عن هذه الأيام والليالي التي عاشتها هنا؟! وكيف يمكن أن تقول لنا هذه العبارة وتخرج هكذا باسماً مستريح الضمير... وتقول عال عال... لا توجد مشاكل!... أول مشكلة يا أستاذ صلاح أن البريئة كان يجب أصلاً ألا تكون هنا...ثم ها نحن هنا منذ أيام وأسابيع ولم يبدأ أحد معنا التحقيق!! ولا تعرف أي واحدة منا ما هي التهمة الموجّهة ضدها! اقتحموا بيوتنا بالقوّة المسلّحة وبدون أمر من النيابة وحتى اليوم لا يعرف أهلنا عنّا شيئاً، ولا نعرف عنهم شيئاً. وبيننا الأمهات اللائي تركن أطفالهن في سن الرضاعة، والطالبات اللائي حرمن الدراسة، والعاملات اللائي انقطعن عن العمل والوظيفة، والكاتبات اللائي توقفن عن الكتابة، ومعنا الحامل في الأسابيع الأخيرة بدون رعاية طبيّة، والزميلات اللائي انتقلت إليهن عدوى مرض الجرب، وكلنا

مهدَّدات بالأمراض المنتشرة من حولنا، والتي ينقلها الذباب والحشرات والهواء المحمَّل بالدخان والتراب وميكروبات الدرن. . . هل يمكن أن تسمي هذا بالمكان الأمين؟!. . . وتقول إننا في دولة القانون؟!. . . أين هو القانون ولماذا لم يبدأ التحقيق معنا حتى اليوم؟! وكيف نحبس بدون تحقيق؟!

كنت واقفة مشدودة العضلات عيناي ثابتتان على وجه رئيس الطابور. . وظهري ناحية الزميلات. . . ورأيت الوجوه أمامي كلّها تتقلّص، والعيون تتعكّر، والجو يتكهرب. . . لكن الطابور واقف صامت لا يتحرَّك. كل واحد ينظر إلى الآخر بطرف عين، والعيون كلها ترمق صلاح بيه لترى ماذا سيفعل لتفعل مثله. وصلاح بيه واقف لا يتحرَّك. وجهه ناحيتي لكن عينيه مرفوعتان إلى أعلى كأنما في انتظار تعليمات تهبط من فوق وتقول له بماذا يرد عليّ.

وأحسست حركة خلفي. لمحت بطرف عيني الزميلات وقد وقفن جميعاً، مشدودات الرؤوس والظهور. الوجوه المكشوفة تنمّ عن الغضب والوجوه المختفية تحت النقاب انتصبت عظامها في تحد ولمعت العيون من خلال الثقوب تأهباً للانقضاض.

ظلّت عينا صلاح بيه مرفوعتين وهو صامت، ثم هبطت عيناه بحركة تنم عن خيبة الأمل. ربما لم تهبط إليه أية تعليمات، وأصبح عليه أن يتصرَّف وحده،. . . أو لعلَّ أفكاراً كثيرة متضاربة دارت في رأسه ولم يعرف أيغضب أم لا يغضب. إن أمور السياسة على كفّ عفريت. لا أحد يعرف ما الذي يمكن أن

يحدث غداً أو بعد ساعة واحدة. لم تعد هناك ضمانات لبقاء أي واحد في مقعده. أي حاكم في أكبر دولة يمكن أن يختفي بطلقة رصاص واحدة. أي حكومة ممكن أن تطير في غمضة عين بانقلاب في الجيش. أو ثورة بين الشعب. وفي يوم وليلة يصبح من في الحكم في السجن، ومن في السجن في الحكم، وسبحان الباقي على حال. وأطرق برأسه كأنه يفكر.

وقالت لطيفة «بغضب شديد»: أين هو القانون وأين دولة القانون ونحن هنا في السجن بدون جريمة وبدون تحقيق! كيف ندان ونحبس قبل أن نحاكم؟!. . . هذا ظلم. . . وانتهاك لحقوق الإنسان!

وقالت عواطف «ثائرة»: المفروض أن نحاكم أولاً بحسب القانون لا أن نحبس ثم نحاكم. . . هذا هو الدستور. . . !

وقالت واحدة من المنقبات: أنا لا أعرف لماذا أنا هنا! كنت ذاهبة لأزور خالتي وقبضوا عليّ في الشارع؟

وقالت أمينة: إذا كنا متهمات فلماذا لا تحققوا معنا. . . لماذا يتأخر التحقيق. . . إن ساعة واحدة في السجن بدون جريمة تساوي عشر سنين!

ظلّ صامتاً يستمع ولا أحد يعرف ما الذي سيفعله.

ثم هزّ رأسه وابتسم ابتسامة مفتعلة وقال بصوت هادىء تماماً:

لست أنا الذي وضعتكم في السجن. أنا لست إلا منفذاً

للأوامر. . . وحتى الآن لم تصل إليّ أي أوامر بشأن التحقيقات، ولا زلت في انتظار التعليمات من فوق. . .

العينان الساذجتان البريئتان المطلتان من ثقبي النقاب، عينا طفلة في السادسة عشرة. . لا تعرف شيئاً في الحياة. . تابعتا حركة يديه وهو يرفعهما إلى أعلى. . . وهتفت بصوت طفولي: من فوق؟ من أين؟

وحرّك مسؤول المباحث رأسه إلى أعلى قائلاً: من عند ربنا!

وفجأة رأينا «بدور» تنتفض رافعة يدها إلى أعلى: أستغفر الله العظيم. . الله جلّ جلاله لا يصدر تعليمات بالحبس في السجون. . . إنه الطاغوت! أخذه الله. . ردت المنقبات في نفس واحد: آمين!

وانفرجت شفتا الشاويشة دون أن تدري وقالت هي الأخرى: آمين!

رمقها صلاح بيه بنظرة غاضبة وقال بلهجة آمرة: أسكتي أنت. . . لا تفتحي فمك!

وقالت الشاويشة بصوت خافت: أنا لم أقل شيئاً. . أنا قلت آمين. .

وانفجر غاضباً يصيح: قلت اسكتي. . . لا تتكلمي وأنا موجود. . .

صبَّ على رأسها كل غضبه المكتوم، فهي مجرد شاويشة، في

أسفل السلّم الوظيفي ويمكن له أن ينفّس عن غضبه فيها دون أن ترد. وفعلاً انكمشت الشاويشة والتصقت بالجدار.

ورفع هو رأسه منبسط الأسارير وكأنما استعاد سلطته وهيبته، واستدار وخرج من باب العنبر إلى الحوش يرفع قدماً فيرتفع كتفه إلى أعلى ويهبط الكتف الآخر ثم يدوس بقدمه على الأرض فيرتفع الكتف الهابط، ويهبط الكتف الذي ارتفع. مفاصل جسمه وأطرافه كأنها مشدودة بخيوط من أعلى المسرح.

ومن خلفه الطابور الطويل، يحاول كل منهم أن يمشي مشيته. . . وفي نهاية الطابور الشاويشة تحمل في يدها المفاتيح. . . خرجت وراءهم بعد أن أغلقت البابين الحديديين.

*

عادت الضابطة شكرية ومعها الشاويشة تحمل كرسياً خشبياً. جلست الضابطة على الكرسي، رأيت في يدها بعض الأوراق البيضاء وقلماً. عدَّت الأوراق ورقة ورقة. ثم عدتنا واحدة واحدة. . .

وقالت: أربع عشرة واحدة وأربع عشرة ورقة. . . لكل واحدة منكن ورقة واحدة. تكتب الطلب الآن أمامي بالملابس التي تريدها ثم تسلّمني الطلب والقلم.

*

تعودت أن أكتب، والكتابة تقطع الزمن كحد السيف، والزمن في السجن يمتد طويلاً كأنه اللازمن. لكنني لا أكتب إلا في الليل.

في النهار الحراسة علينا مشدّدة محكمة. يغلق علينا بابان حديديان. لا نتحرك إلا داخل العنبر، أو ذلك الحوش الترابيّ الصغير أمام العنبر. نخرج إليه من الساعة الثامنة والنصف صباحاً حتى الرابعة بعد الظهر. تحوطه أربعة أسوار عالية من فوق أسلاك شائكة. ألفُّ الحوش خمسين مرة في بضع دقائق ثم أقف وراء الباب أنظر من خلال القضبان إلى السجينات وهن يسرن في الفناء بشعورهن الطويلة المنكوشة، وجلابيبهن البيضاء الطويلة الممزقة، تكشف عن أجزاء من أجسامهن، حاملات جرادل الماء على رؤوسهن. سائرات بخطوات ثقيلة بطيئة كسرب من البقر المريض المساق إلى السلخانة.

واحدة منهن طويلة نحيلة اقتربت نحو قضبان الباب. خداها عظامهما بارزة. على كل خد دائرة سوداء من الطين. عيناها واسعتان غائرتان في عظام الرأس كالخندقين العميقين. مقلتان سوداوان بارزتان فوق بياض العين. جمرتان مشتعلتان بوهج أسود.

نار سوداء تطل من الرماد قبل الاحتراق النهائيّ أو الانطفاء الكامل.

من وراء القضبان حيث أقف نفذت المقلتان المشتعلتان إلى عيني. كاللهب الحارق أحسستهما بين الجفن والعين.

أمسكت بيديها قضبان الباب. أظافرها طويلة مدببة وبين الظفر واللحم مساحة من الطين الأسود. وشعرها منكوش طويل كامرأة

من أهل الكهف عاشت في بطن الأرض قروناً، واشتعل عقلها بنار مجنونة لم تجد لها منفذاً إلا الثقبين في عظام الرأس.

شهقت بصوت كالزفير الطويل: رغيف... هاتي لها رغيف...

تلفت حولي متسائلة: لها؟

أشارت بإصبع مدبب إلى صدرها وقالت: هاتي لها رغيف...

تخاطب نفسها وكأنها شخص آخر. انفصام في الشخصية يعالج به الإنسان الألم الفادح... متوهماً أن الألم يحدث لشخص آخر وليس له هو.

لم يكن في عنبرنا خبز. لا زلنا في أول الصباح والشاويشة نبوية لم تحضر الخبز بعد. في الأيام الأولى كان لكل واحدة منا رغيفان في اليوم. قدمنا احتجاجاً لإدارة السجن. أصبح لكل واحدة ثلاثة أرغفة من الخبزالملكي وليس ذلك الخبز القديم أو الخبز الميري.

في اليوم الأول لم آكل منه شيئاً. فتحت الرغيف فرأيت الدود الأبيض والسوس الأسود كرؤوس الدبابيس ملتصقاً بلبابة الخبز. وعلى صحن الفول أيضاً رأيت عدداً لا نهائياً من تلك الكائنات الدقيقة السوداء والبيضاء طافية على السطح.

ظل الصحن بالفول ومن فوقه الرغيف بجوار الجدار طول النهار وطول الليل حتى الفجر. فتحت عيني على صوت فتاة من

المنقبات تتوضأ لصلاة الفجر. أسفل الجدار رأيت صحن الألومينيوم من فوقه الرغيف والصراصير والخنافس تجري من حوله. اختفت في شقوق الجدار ما أن أحست بقدم تدب إلى جوارها. رأيتها وهي تنثني فوق الصحن. وسمعتها وهي تمضغ الخبز وابتلعت قليلاً من الماء وهي تهمس لنفسها: الجوع كفر!

أسفل الجدار وفي المكان نفسه عثرت على رغيف قديم جاف كقرص من الأسمنت. اختطفته من فوق الأرض وعدت أجري إلى الحوش. لم أرهما. الجمرتان في عظام الجمجمة. رأيت ظهرها المحني وهي تجري وتعرج ومن خلفها الشاويشة بالعصا الخيزران: لا تقتربي من عنبر السياسة يا شحاته يا بنت الشحاتة إلّهي ربنا ياخدك ويريّح السجن منك!

ثم ألقت العصا. بصقت على الأرض ومسحت فمها بكفها. دخلت الحوش ومن خلفها مساعدتها «ذوبة» تحمل فوق صدرها صفاً طويلاً من الأرغفة ومن فوقه صحن كبير من الألومينيوم.

هتفت «ذوبة» بصوت مرح وهي تبتسم كاشفة عن صفين من الأسنان الصغيرة الشديدة البياض في وجه شديد السمرة: اثنين وأربعين رغيفاً. بالتمام والكمال كل واحدة ثلاثة أرغفة. والصحن ملآن بالفول حتى الحافة. كل هذا لأجل خاطر ماما نبوية وخاطركم يا ستات يا سياسيّات.

اختطفت من فوق صدرها رغيفاً وجريت نحو باب الحوش. رأيت المقلتين السوداوين تلمعان من بعيد في الفناء. مختفية وراء

جدار. تطلّ برأسها ثم تختفي، وعيناها تلمعان لحظة خاطفة وتختفيان، كنجمين يبرقان ثم ينطفئان.

وهتفت بصوت عال: تعالي... لا تخافي...

سمعت الشاويشة نبوية صوتي وكانت داخل العنبر مع ذوبة يوزعان الأرغفة على الزميلات فأقبلت تجري مهرولة وهي تقول:

أرجوك يا دكتورة... ممنوع الكلام مع المسجونات، سيأتي ضابط المباحث حالاً وإذا رآها تكلمك فلن يفوت اليوم على خير.

قلت: هذه المرأة تكاد تموت من الجوع... انظري إلى عينيها نار الجوع مشتعلة في عينيها.

وقالت الشاويشة: أتصدقين أنها ستأخذ الرغيف لتأكله؟... إنها تلقيه في القمامة، ثم تجلس وتنبش التراب وتأكله. إنها امرأة مجنونة... انظري إنها تضحك من بعيد وليس في فمها إلاّ ثلاث أسنان!

فرشت الشاويشة البطانية على أرض الحوش وجلست. وقفت إلى جوارها أراقب المرأة من خلال قضبان الباب.

رأيتها تجلس على الأرض، تنبش التراب بأظافرها الطويلة وتغني بصوت عالٍ:

آدي الزمن اللي لوع اللي كان على كيفه

وبلبل الصبر في الفنجان وسقاه على كيفه

المنقبات تتوضأ لصلاة الفجر. أسفل الجدار رأيت صحن الألومينيوم من فوقه الرغيف والصراصير والخنافس تجري من حوله. اختفت في شقوق الجدار ما أن أحست بقدم تدب إلى جوارها. رأيتها وهي تنثني فوق الصحن. وسمعتها وهي تمضغ الخبز وابتلعت قليلاً من الماء وهي تهمس لنفسها: الجوع كفر!

أسفل الجدار وفي المكان نفسه عثرت على رغيف قديم جاف كقرص من الأسمنت. اختطفته من فوق الأرض وعدت أجري إلى الحوش. لم أرهما. الجمرتان في عظام الجمجمة. رأيت ظهرها المحني وهي تجري وتعرج ومن خلفها الشاويشة بالعصا الخيزران: لا تقتربي من عنبر السياسة يا شحاته يا بنت الشحاتة إلّهي ربنا ياخدك ويريَّح السجن منك!

ثم ألقت العصا. بصقت على الأرض ومسحت فمها بكفها. دخلت الحوش ومن خلفها مساعدتها «ذوبة» تحمل فوق صدرها صفاً طويلاً من الأرغفة ومن فوقه صحن كبير من الألومينيوم.

هتفت «ذوبة» بصوت مرح وهي تبتسم كاشفة عن صفين من الأسنان الصغيرة الشديدة البياض في وجه شديد السمرة: اثنين وأربعين رغيفاً. بالتمام والكمال كل واحدة ثلاثة أرغفة. والصحن ملآن بالفول حتى الحافة. كل هذا لأجل خاطر ماما نبوية وخاطركم يا ستات يا سياسيّات.

اختطفت من فوق صدرها رغيفاً وجريت نحو باب الحوش. رأيت المقلتين السوداوين تلمعان من بعيد في الفناء. مختفية وراء

جدار. تطلّ برأسها ثم تختفي، وعيناها تلمعان لحظة خاطفة وتختفيان، كنجمين يبرقان ثم ينطفئان.

وهتفت بصوت عال: تعالي... لا تخافي...

سمعت الشاويشة نبوية صوتي وكانت داخل العنبر مع ذوبة يوزعان الأرغفة على الزميلات فأقبلت تجري مهرولة وهي تقول:

أرجوك يا دكتورة... ممنوع الكلام مع المسجونات، سيأتي ضابط المباحث حالاً وإذا رآها تكلمك فلن يفوت اليوم على خير.

قلت: هذه المرأة تكاد تموت من الجوع.. انظري إلى عينيها نار الجوع مشتعلة في عينيها.

وقالت الشاويشة: أتصدقين أنها ستأخذ الرغيف لتأكله؟... إنها تلقيه في القمامة، ثم تجلس وتنبش التراب وتأكله. إنها امرأة مجنونة... انظري إنها تضحك من بعيد وليس في فمها إلاّ ثلاث أسنان!

فرشت الشاويشة البطانية على أرض الحوش وجلست. وقفت إلى جوارها أراقب المرأة من خلال قضبان الباب.

رأيتها تجلس على الأرض، تنبش التراب بأظافرها الطويلة وتغني بصوت عالٍ:

آدي الزمن اللي لوع اللي كان على كيفه

وبلبل الصبر في الفنجان وسقاه على كيفه

وضحكت الشاويشة: إلّهي ربنا ياخدك يا بت يا صباح. والنبي أنت مكانك السرايه الصفرا وليس السجن.

تربعت إلى جوار الشاويشة وأسندت ظهري إلى الجدار...

وقلت: ولماذا هي في السجن؟ ما جريمتها؟

وقالت نبوية: جريمتها تسول. تخرج من السجن تتسول في السيدة زينب. ثم تدخل السجن تتسول وتدور في الفناء طول النهار والليل تعرج أو تجلس تنبش التراب وتغني. امرأة مجنونة. عقلها طق. كانت هنا في عنبر المتسولات، قبل أن تأتوا. أخلينا العنبر لكم. المتسولات ليس لهن إلا كشك صغير في الفناء لا يتسع لهن. يرقدن في الفناء والواحدة منهن تبول على نفسها وهي جالسة أو راقدة. عيشتهن تصعب على الكافر... إلا هذه المرأة المجنونة... اسمعي ماذا تغني، وصوتها كئيب مثل نعيق البوم.

أرهفت السمع لألتقط كلمات الأغنية. صوتها مليء بشجن عجيب. صوت مبحوح يبدأ عالياً ثم ينخفض، كحبال صوت تتمزق، ثم يرتفع كوتر مشدود، ويشتد عذوبة ويرق حتى ينقطع ولا أسمع إلا حشرجة أنفاس مشروخة متقطعة..

آدى الزمن اللي لوع اللي كان على كيفه

وبلبل الصبر في الفنجان وسقاه على كيفه

وآدى بنت الحلال في السجن مرميه

وابن الهفية بيتحكم على كيفه...

أطلقت الشاويشة ضحكة عالية: الله يلعنك يا صباح... ابن الهفية بيتحكم على كيفه؟! آه لو سمعك ضابط المباحث!

كانت فتاة من المنقبات قد خرجت من العنبر، في يدها المصحف، وتساءلت وهي تجلس إلى جوار الشاويشة: من هو ابن الهفية!

وأخفت الشاويشة فمها وهي تضحك وقالت: لا أعلم، إسألي الدكتورة... دمعت عيناها من الضحك ومسحت عينيها بكفها وهي تقول: اللّهم اجعله خيراً يا رب... اللّهم اجعل كلامنا خفيفاً على قلوبهم...

وتساءلت الفتاة المنقبة: من هم؟

وواصلت الشاويشة وهي تضحك: أرواح الجان يا ابنتي. فهذا السجن مليء بأرواح الجان!

رفعت الفتاة النقاب عن فمها وبصقت في فتحة العباءة وهي تقول: اللهم احمنا شرهم!

وبدأت مدخنة السجن تقذف علينا الدخان الكثيف الأسود. والشاويشة لاتزال تضحك وأنفاسها تتقطع بضحك مكتوم كالنشيج، وتمسح عينيها الدامعتين من فرط الضحك بمنديل أبيض أخرجته من جيب معطفها الرمادي. مسحت به جبهتها وأنفها وخديها ثم بسطت المنديل تحت عينيها فإذا به قد اسود.

كفّت عن الضحك وقالت بأسى: نهارك اسود يا صباح مثل وجهك ومثل هذا الهباب الأسود الذي تردمنا بها المدخنة كل

يوم. متى تتوب عليّ يا رب من هذا السجن!

كانت ذوبة قد خرجت من العنبر ووقفت إلى جوار الشاويشة بقدميها الحافيتين وقامتها الطويلة النحيلة داخل جلباب أبيض مفتوح عند الصدر، يكشف عن شق عميق بين نهديها النافرين السمراوين. . .

وهتفت ذوبة رافعة يديها إلى السماء: متى تتوب علينا كلنا يا رب!

رفعت الفتاة المنقبة عينيها من فوق المصحف وقالت: سيتوب الله عليك حين ترتدين النقاب!

وضحكت ذوبة وهي تجلس على الأرض: والله يا رب لو خرجت إفراج في الجلسة غداً لأرتدي النقاب وأتوب!

ولكزتها الشاويشة في كتفها: والله لو تابت كل بنات الدعارة فلن تتوب ذوبة. . . إنها بنت حرام وأبوها ابن حرام!

اعترضت ذوبة: لا يا ماما نبوية، كله إلا أبويا. . . أبويا كان رجلاً طيباً ابن حلال. لكن ابن الحرام هو زوجي! إلّهي ربنا يأخذه ويأخذ أمثاله.

وأخرجت من جيب جلبابها سيجارة. نفثت الدخان من أنفها وهي شاخصة بعينيها نحو السماء. رأسها مرفوع يكشف عن عنق طويل أسمر لمع في الضوء كعنق من الأبنوس لتمثال في متحف لرأس شاب زنجيّ من عصور الرق.

مساحة السماء المطلّة من فوق الأسوار تغطيها سحابة رمادية بلون الدخان. ينفذ منها شعاع شمس، يجتاز الأسلاك ويهبط على السور متعثراً فوق النتوءات الحجرية، متعرجاً مع الشقوق، يستقر على شكل دائرة من اللون الذهبي إلى جوار قدمي وأنا جالسة على الأرض، والرغيف مازال في حجري. . . وصباح المتسوّلة لاتزال تنبش التراب وتغني. .

مددت قدمي. الشعاع فوق ساقي ساخن يحرق كشعاع من اللهب. سحبت قدمي. رفعت يدي أمام وجهي وبدأت أحركها كمروحة. لكن الهواء لا يتحرّك. لا يدخل أنفي هواء، وإنما ذرات صغيرة سوداء تحرق غشاء الأنف وتتطاير في الجو كرمال في صحراء سوداء أو رذاذ ماء في بحر من القطران.

مسحت وجهي بالمنديل الأبيض فأصبح أسود. الصوت المبحوح لازال يرنّ في أذني. والكلمات كالشهيق المذبوح محمولة فوق الهواء الساكن. تتحرك مع ذرات الدخان الأسود وتدخل أذني كسائل مضغوط من الغاز السام:

والصبر كله حكم واللي شبك أهو بان

من برة مزوق ومن جوه ملان دخان

واصبر يا عين ده كله شيء بأوان

وسمعت صوتاً غريباً إلى جواري. كمصمصة مئات الشفاه في مأتم ضخم. ورأيت الزميلات المنقبات جالسات على الأرض. ظهورهن إلى الجدار. رؤوسهن منكّسة فوق صدورهن. والشفاه

تتحرك بتلك المصمصة الغريبة.

ورفعت فتاة رأسها المغطى بالنقاب الأسود نحو السماء وقالت: كل شيء بأوان، ولن نخرج من هنا إلا حين يأتي الأوان ويإذن الله.

وهتفت الأخريات في نفس واحد: كله بإذن الله.

ورنّ صوت فتحية القتالة من وراء قضبان الباب: افتحي يا نبوية.

امرأة طويلة ترتدي جلباب المسجونات الأبيض وعلى رأسها صينية. دخلت إلى الحوش وأغلقت الشاويشة الباب. رفعت الصينية من فوق رأسها ووضعتها على الأرض أمام الشاويشة. حركتها تشبه حركة ابنة عمتي نفيسة وهي ترفع عن رأسها زلعة الماء وتضعها على الأرض دون أن تسقط منها قطرة ماء. عظامها قوية. عضلاتها قوية. رأسها مرفوع في كبرياء. كشفت الغطاء عن الصينية. صحن كبير مملوء بالملوخية حتى الحافة. لم تسقط منه قطرة واحدة. دجاجة محمّرة في صحن آخر. بطاطس محمّرة وباذنجان مخلّل وأرز مفلفل ورغيفان وكوب شاي مملوء حتى الحافة لم تسقط منه قطرة واحدة... وإبريق مليء بالماء وصابونة وفوطة.

شمّرت الشاويشة كميّ المعطف وغسّلت يديها. أمسكت الدجاجة وهي تقول: بسم الله الرحمن الرحيم... تفضلوا معي يا ستات.

ردت الزميلات في نفس واحد: بالهنا والشفا يا شاويشة.

استغرقت الشاويشة في الأكل. عن يمينها تربعت فتحية القتالة تهشّ الذباب عن الطعام بالفوطة... ذوبة نهضت لتمسح العنبر ودورة المياه... الزميلات المنقبات جالسات في أماكنهن على الأرض. ظهورهن إلى الجدار. عيونهن على المصحف... وشفاههن تتحرك بسرعة ودون صوت.

ولم يتنبه إليها أحد وهي تقترب من قضبان الباب. لمحت الجمرتين المشتعلتين كالنجمين يبرقان. مددت لها ذراعي بالرغيف من بين القضبان. اختطفته بأصابعها الطويلة ذات الأظافر المدببة كمخالب الحدأة. فتحت فمها كاشفة عن ثلاثة أسنان أمامية صغيرة، كفم طفل لم تكتمل أسنانه بعد. عيناها تلمعان كعيون الأطفال. أطلقت ضحكة كالشهقة واستدارت تجري وهي تعرج... وتغني.

*

صوت صباح المتسوّلة وهي تغني يذكرني بصوت عمتي زينب.

كنت تلميذة في المدرسة الثانوية حين ماتت بالكوليرا سنة ١٩٤٨. قبل أن تموت كنت أسمعها تغني وهي جالسة على الأرض الترابية في حوش الدار. ظهرها إلى الجدار وفي حجرها طفلها يرضع. بعد أن ماتت رأيت جدتي تجلس مكانها وفي حجرها الطفل تغني له، وتعطيه ثدياً ضامراً ليس فيه قطرة لبن.

الحوش الترابي هنا يذكرني بالحوش في دار جدتي. لهجة

السجينات الريفيّة كنساء قريتي كفر طحلة. أقدامهن الحافية المشقّقة. أيديهن السمراء المعروقة. ذكريات طفولتي صورة واحدة ممتدّة في الماضي حتى الحاضر دون زمن أو فواصل. تنتهي الصورة فجأة كأنما تبتر عند وجه ابني أو ابنتي أو زوجي. ثلاثة وجوه لم تعد تلوح لخيالي حتى وأنا نائمة.

كصورة على الشاشة تقترب من بيتي وتكاد تكشف عن وجه واحد منهم أو حتى ظهره... ثم تنقطع فجأة. كأنما تمتد لها يد الرقيب بالمقص. يد حديدية كإرادتي، وقراري القاطع كحد السكين. قرار واع أصدره عقلي الظاهر والباطن. أن أعيش السجن وكأنه حياتي منذ ولدت وحتى أموت. لا أمل في الغد سوى أن أفتح عيني على هذه الجدران الأربعة فأجدها أقل سواداً. وشقوقها وثقوبها ضاقت والتحمت وابتلعت الكائنات ذات الأرجل المشرشرة. والثقب المسدود في المرحاض لم يعد مسدوداً والثقوب في الدش انفتحت ونزل منها الماء غزيراً، والثقب في فوهة المدخنة ضاق وانسد.

في الأيام الأولى لم تكن آمالي في المستقبل تتجاوز جدران العنبر... والمرحاض. وحين نخرج إلى الحوش الترابي الصغير تتسع آمالي لتشمل جدران الحوش. وأطل من بين قضبان الباب الحديديّ على فناء السجن الكبير وأحس بآمالي تتسلّل إلى الفناء الواسع، وتلك الشجرة الضخمة بفروعها المتشعبة وأوراقها الخضراء الناعمة... ربما تلامسها أصابعي في الغد.

لم يكن عقلي حين يفكر في المستقبل يتجاوز أسوار الحوش أو

أسوار الفناء. وكلما فتحت عيني على يوم جديد ورأيت شيئاً من آمال المستقبل تتحقق داخل المرحاض أو العنبر يهزني التفاؤل والمرح.. وحين تم تركيب الدش وهبط رذاذ الماء الغزير على جسمي لأول مرة منذ دخولي السجن أخذت أغني وأنا أغسل شعري بلحن قديم أحبه منذ الطفولة، ورائحة الصابون في أنفي وطعم الماء في فمي لهما عذوبة لم أحسها منذ الطفولة، وملمس الماء له لذة عارمة فوق جسدي، وكأني لم أستحم منذ الطفولة، وصوتي أيضاً له عذوبة وهو يرن في أذني وكأني لم أغنِّ منذ كنت طفلة.

سمعت الصوت من خارج الباب المكسور نصف المفتوح. ورأيت الثقبين الصغيرين في النقاب الأسود. ارتفعت اليد داخل القفاز الأسود بسرعة وأخفت الثقبين، واليد الأخرى سدت الأذن، وسمعتها تقول: أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم... الغناء حرام!

اتسعت عيناي في دهشة. حتى جدتي والدة أمي، التي ولدت من أم تركية وعاشت في عصر الحريم في بيت جدي، ولم أر شعرها طوال حياتي، ولم أرها تخرج من البيت إلا محمولة داخل نعش، كنت أسمعها تغني، وهي جالسة في الصالة الفسيحة على الشلتة الناعمة، قدماها داخل الجورب الصوفي ممدودتان فوق السجادة العجمي المزركشة ورأسها الملفوف بالطرحة البيضاء يهتز وهي تغني. وكان جدي الرجل العسكري الصارم وابن الشيخ الديني المتشدد يمر عليها وهي جالسة ويسمعها تغني دون أن يقول لها مرة واحدة إن الغناء حرام.

وبدا لي شكلها من خلال رذاذ الماء وهي واقفة وراء ضلفة الباب المكسور، برأسها وجسمها الملفوفين بالسواد ويد سوداء على أذنها ويد أخرى على عينيها كتمثال حجري من عصور الإقطاع الأولى والعبودية.

*

حلم كان يداعبني وأنا واقفة من وراء الباب الحديديّ، أنظر من خلال القضبان السجينات السائرات في الفناء الواسع، أن أفتح عيني فأجدني واحدة منهن أسير في ذلك الفناء الممتد حتى الشجرة الضخمة بفروعها المتشعبة الكبيرة وأوراقها الخضراء تبرق وتهتزّ من بعيد.

تسمعني الشاويشة فتضرب صدرها بكفّها السمراء المشققة وتقول: بعيد الشر عنك يا دكتورة... هؤلاء كلهن من عنابر الدعارة والمخدِّرات والنشّالات والمتسوِّلات وكلهن بنات حرام.

وأقول لها ضاحكة: ولكنهن طليقات يسرن بحرية في الفناء ونحن هنا سجينات!

وتقول الشاويشة: شدّة وتزول... كلها أسبوعين أو ثلاثة وتنتهي فترة التكدير.... ثم ماذا في الفناء؟ لا شيء أكثر من هذا الحوش... تراب في تراب.

وقلت: هناك شجرة.

كانت فتحية القتالة تهشّ الذباب عن صحون الطعام أمام الشاويشة فتنهدت وقالت: لك حق يا دكتورة... هذه الشجرة

أذهب إليها كل يوم وأجلس تحتها وكأني جالسة في الحقل أمام دارنا في البلد.

لكزتها الشاويشة في كتفها ضاحكة: أصلك فلاحة بنت فلّاح، لكن هي دكتورة، لا تعرف الحقل ولا الدار في بلدكم الفقرانة.

ضحكتها تشبه ضحكة جدتي الفلاحة أم أبي.

نظرت إليها فتحية بعينيها الصغيرتين. الآن فقط رأيتهما. بريق يخطف البصر. ونظرة ثابتة قوية. الآن فقط أدرك أنها يمكن أن تقتل. ظننت من قبل أنها عاجزة عن قتل بعوضة.

وقالت: بلدنا الفقرانة يا نبوية؟!.. يا شاويشة يا فقرانة!!

تداركت الشاويشة قائلة: كلنا فقرانين والفلاحين كلهم فقراء والفقر ليس عيباً... ما عيب إلا العيب.

وقالت فتحية ضاحكة: ما عيب إلا قانون العيب! أليس كذلك يا دكتورة؟

قلت: صدقت والله يا فتحية!

يسمونها فتحية القتالة. في السجن تتشابه أسماء النساء... يفرقون بين الواحدة والأخرى بجريمتها، وتضاف إلى اسمها كاللقب. يقولون فتحية القتالة، أو فتحية دعارة، أو فتحية مخدرات، أو فتحية الحرامية...، أو فتحية سياسيّة.. إذا كانت السجينة تهمتها سياسية.

فتحية القتالة كانت تدهشني أحياناً بحركاتها الممشوقة القوية،

أو صوتها الواثق، أو كلامها الساخر، أو ذلك البريق الذي كان يكسو عينيها فتذكرني بزينب ابنة عمتي الفلاحة.

وقلت لها: لي ابنة عمة تشبهك يا فتحية.

ـ وضحكت: دكتورة مثلك أم فلاحة مثلي؟

وقلت: هي فلاحة لكن لها عقل دكتورة.... كانت معي في المدرسة الابتدائية.

وكانت الأولى على الفصل لكن أبوها زوجها لابن عمها الفلاح... جدتي الفلاحة أم أبي أرادت أن تزوجني ابن عمتي الفلاح. لو تزوجته لأصبحت مثلها تماماً فلاحة أشتغل بالفأس في الحقل.

وتنهدت فتحية: ما أحلى الشغل بالفأس في الحقل. لا أستطيع أن أعيش بغير فأس. الفأس هي حياتي منذ خرجت من بطن أمي.

وقالت الشاويشة ضاحكة: أصلك قتالة بنت قتالة! فتحية هذه التي تبتسم أمامك يا دكتورة كالملائكة ضربت زوجها على رأسه بالفأس ثم قطّعت جسمه قطعاً صغيرة جمعتها في شوال وألقته في البحر ليأكله السمك!

وضحكت فتحية: ولماذا لا يأكله السمك؟ على الأقل تكون له فائدة أخيرة في الدنيا يكفّر بها ذنبه قبل أن يلقى وجه ربه!

ثم نهضت من جلستها على الأرض رافعة ذيل جلبابها كاشفة عن ساقين عضلاتهما نافرة قوية، وسارت نحو الباب تدبّ على

الأرض بقدميها الحافيتين وتشمّر أكمام جلبابها عن ذراعين قويتين: افتحي لي الباب يا نبوية... لا أكره في الدنيا قدر القعدة هكذا بدون فائدة!

رمقت بعينيها الصغيرتين الفتيات المنقبات وهن جالسات ملتصقات بالجدار، مختفيات تحت النقاب والعباءات السوداء، أيديهن داخل القفازات ثابتة فوق المصاحف في حجرهن.

شوّحت بذراعها وهي تخاطبهن: مالكن يا بناتي ملفوفات في الكفن الأسود قبل الأوان؟!..

ردّت عليها واحدة وهي ترمق ذراعيها وساقيها العارية: حرام أن تكشفي ذراعيك وساقيك بهذا الشكل! وانثنت فتحية تتحسس ساقيها وقالت: ذراعاي وساقاي.. حلوة.. لماذا أغطيها؟!... افتحي يا نبوية، أريد أن أخرج من هنا... عندي أشغالي كثيرة...

كشفت ذوبة ذراعيها وساقيها هي الأخرى وقالت: وأنا أيضاً يا ماما فتحية ذراعاي وساقاي حلوة...

لكزتها الشاويشة في كتفها وهي تناولها المفتاحين الضخمين: قومي افتحي لأمك فتحية... أنت سوداء مثل الجواري ولا أعرف كيف تمارسين الدعارة وأنت جلدة على عظمة وليس فيك لحم.

نهضت ذوبة وهي تمط عنقها بكبرياء وتنفث الدخان من أنفها قائلة: أنا لا أمارس يا ماما نبوية... أنا عندي شقة وثلاث

بنات.. أنا قوّادة على سنّ ورمح وأنت عارفة.

فتحت الباب وخرجت فتحية القتالة، أغلقت الباب وراءها ثم عادت لتجلس إلى جوار الشاويشة.

لكزتها الشاويشة مرّة أخرى: أنا لا أعرف حاجة عنك ولا عن أي واحدة معك في عنبر الدعارة. حدّ الله بيني وبينكن. أنا لا أعرف إلا الستات المحترمات في عنبر السياسة.

ورمقتنا الشاويشة بعينيها الصغيرتين واحدة وراء الأخرى كأنما تعدّنا... وفجأة صاحت: يا مصيبتي أنتن ثلاث عشرة فقط.. أين الرابعة عشرة؟!

وجاء صوت الفتاة الصغيرة من داخل العنبر تقول: أنا هنا يا شاويشة... اكنس العنبر.

لكزت الشاويشة ذوبة في كتفها مرة أخرى وقالت: قومي يا ذوبة امسحي العنبر والدورة واغسلي الملابس.

ألقت ذوبة عقب السيجارة من فمها وأطفأته في التراب بقدمها الحافية... ونظرت إلينا وهي تقول: مَنْ عندها ملابس تريد غسلها؟

*

لم أكن أعطِيها ملابس لتغسلها. بعد الرياضة الصباحيّة كنت أغسل ملابسي وأنشرها على الحبل في الحوش قبل أن تهرب الشمس من فوق السور. تعوّدت أن أغسل ملابسي بيدي قبل أن

أشتري الغسّالة الكهربية منذ عامين. وفي السجن أجد لذة غريبة في غسل ملابسي ونشرها على الحبل قطعة قطعة تحت الشمس.

لم يكن عندي مشابك، والهواء إذا هبَّ يطيرها فتسقط على الأرض التراب. ثم ألتقطها وأغسلها مرة أخرى. وحين تهب المدخنة تتساقط رقائق الهباب فوقها كاللطع السوداء، فأعود أغسلها من جديد.

طوال حياتي كنت أكره التكرار وأمله. لكن في السجن لم أمل غسل ملابسي مرَّة بعد مرَّة، وذراعي حتى الكوع في الماء ورغاوي الصابون تضربان الملابس بشدَّة، وأعصرها بقوّة، ثم أنشرها على الحبل. أفردها قطعة قطعة حتى آخر المدى لتجف بسرعة، وأجلس أمامها شاخصة إليها، فإذا ما سقطت قطعة جريت فأمسكتها قبل أن تلامس الأرض. فإذا لامست الأرض قبل أن أصل إليها كوّرتها بين يدي، وجريت داخل العنبر لأغسلها في الجردل ثم أعود لأنشرها، وأجلس أراقبها بعينين يقظتين أحرّكهما من أول الحبل إلى آخره، وألتقط بعيني الهباب الأسود الطائر في الجو قبل أن يهبط فوقها. أرى الذرّات الدقيقة تتحرك أمام عدسة عيني، وأشد عضلات عنقي لأثبت رأسي كأنني أنظر من خلال ميكروسكوب. أحاول أن أثبت عيني فوق الدوائر السوداء العائمة في الضوء، كدوائر الخلايا تحت عيني في معمل كليّة الطب. لكنها ليست إلا لحظات وتتحرّك عيناي بعيداً عن الملابس المنشورة على الحبل لتنفذ من خلال قضبان الباب إلى الفناء الواسع. امرأة قصيرة نحيفة شعرها قصير أكرت، على

وجهها آثار جروح قديمة، تشير إليّ بإصبعها. لكن صوت الشاويشة الجاد يرنّ عالياً: امشي يا حرامية يا بنت الحرامية، ممنوع الكلام مع السياسيات.

عينا الشاويشة لا يمكن أن يفوتهما شيء. جالسة في الحوش معظم الوقت. ساقاها ممدودتان، نحيلتان مشققتان، تدلكهما ذوبة بكفيها الصغيرتين الناعمتين السمراوين... تغمض الشاويشة عينيها. من يراها يظن أنها نائمة لكنها ترى كل شيء من تحت الجفنين نصف المغلقين.

وسمعتها تقول فجأة: ماذا تقولين في الرواية يا دكتورة؟

قلت بدهشة: أية رواية؟

غمزت لي بعينها وقالت: الرواية التي تكتبينها هنا عن السجن.

وضحكت: أنا أكتبها في الذاكرة، ليس عندي قلم وورق!

وهتفت ذوبة: هو أنت دكتورة في الطب أم في الكتابة؟

وردّت الشاويشة: هي دكتورة في الطب والكتابة، لكن تهمتها الوحيدة هي الكتابة. لا هي في الجماعات الدينية ولا هي في الأحزاب الشيوعيّة ولا هي في أي حزب. يقولون عنك إنك كتبت كلاماً ضد السادات.. صحيح يا دكتورة؟ وهتفت ذوبة وعيناها السوداوان تلمعان: ضد السادات شخصياً؟!

وقلت: ليس ضده شخصياً، أنا لا أكتب ضد أي أحد شخصياً. لي آرائي وأفكاري. المفروض أن البلد فيها ديموقراطية وكل إنسان من حقه أن يكتب رأيه الحر.

وقالت الشاويشة: طبعاً، الناس لازم تكتب رأيها وتقول الحق. لكن كل الناس تخاف وتسكت. والكتابة يعني لها فائدة يا دكتورة؟ ما هي الكتابة كلام على الورق وخلاص ولا ينوبك إلا دخول السجن. لكن على العموم كل شيء نصيب ولنا نصيب أن نراك ونرى زميلاتك. كلكم ناس محترمون. لا يمكن يدخل عنبر السياسة إلا الناس المحترمة سواء في سجن النساء أو سجن الرجال. رأيت في عنابر الرجال وزراء وأكبر من الوزراء ومن النساء السياسيات رأيت ستات محترمات. حتى اليوم تزورني واحدة منهن في كل عيد ومعها هدية لي ولأولادي. العشرة في السجن لا يمكن ينساها الإنسان الأصيل. عنابر السياسة كلها ناس عندها أصل لكن العنابر الأخرى.. حرامية ومتسولات ودعارة وتاجرات مخدرات.. وكلهم أولاد حرام.. إلا القتّالات. أحسن ناس القتالات. الواحدة منهن تأتي من بيتها إلى السجن على طول لا تعرف اللف والدوران. والقتل غير كل الجرائم. القتل ليس جريمة. لحظة غضب وتفوت. القتّالة تقتل لأجل أولادها وشرفها.. لكن السرقة والدعارة والمخدرات يدرن في الشوارع هنا وهناك ويدخلن السجن ويخرجن عشرين مرة ولا يمكن الواحدة منهن تتوب أو تعرف ربنا. ولا يمكن تعترف أنها عملت حاجة. كل واحدة تدخل السجن تقول أنا لم أعمل أي ذنب...

أتابع كلامها وأنا جالسة بالقرب منها فوق البطانية الرصاصية. بين أصابعي قطعة مدببة من الحجر أرسم بها على التراب رأس

الشاويشة من الجانب. . كانت قد أخرجت من جيبها مشطاً من العظم مربعاً أبيض. ناولته لذوبة. فكّت المنديل الأبيض حول رأسها، وراحت ذوبة تمشط لها شعرها القصير الأكرت، وهي تواصل كلامها:

«وإذا هي لم تعمل أي ذنب لماذا يمسكها البوليس هي بالذات من دون خلق الله. لازم عملت حاجة. لكن فيه ناس تدخل السجن وهي مظلومة. ويا ما في السجن مظاليم. الناس الغلابة يدخلون السجن، لأنهم غلابة. الواحدة فيهم بريئة وجاهلة ولا تعرف حاجة. لكن البريئة الجاهلة هي التي تدخل السجن. البريئة يحكمون عليها. لكن الواعية لا يمكن تقع، حتى في السياسة. واحدة دخلت عندي هنا في عنبر السياسة من ثلاث سنين. بريئة ولا تعرف حاجة في السياسة. مجرّد خطأ في الاسم. حبسوا البريئة، والثانية الواعية هربت. تعرفي أخذوا كم شهر ليصححوا الخطأ وتخرج إفراج. ثلاثة شهور والله. . . وواحدة ثانية ليس لها دخل بالسياسة. زوجها رجل سياسي. مسكوه وحبسوه. وجدوا معه رسالة من زوجته كتبت فيها: أنا معك يا حبيبي حتى آخر العمر. مسكوها وحبسوها. وفي عنبر القتّالات يا ما مظاليم. الرجل يقتل ويهرب وتدخل أمه السجن أو زوجته أو أخته. الأم تفدي ابنها وتقول أنا التي قتلت. والزوجة تفدي زوجها. الرجل يهرب من الجيش يمسكوا أمه وزوجته. الرجل يشغل زوجته في الدعارة أو في المخدرات، وهي التي تدخل السجن. النساء غلّابة يا دكتورة. . . يدخلوا السجن من أجل غيرهم. . . حتى

صباح الشحاتة، تدخل السجن لأن ضيف كبير للسادات وصل مصر. يجري البوليس يلمها هي وأمثالها من الشوارع. يكنسوا الشوارع من الزبالة ومن المتسولين لأجل خاطر الضيف الكبير يقول إن بلدنا نظيفة. تدخل صباح السجن أسبوعين وتخرج. ثم تدخل وتخرج. حالتها تصعب على الكافر. وغيرها كثير. حتى هنا في عنبر السياسة. الواحدة فيهم تدخل وتخرج ويمسكوها كل ما يحصل في البلد حاجة. حتى البنت البريئة التي دخلت خطأ في الاسم. من يوم ما دخلت السجن كتبوا اسمها في القوائم غلط. وكل ما يحصل إضراب أو مظاهرة يمسكوها. مع الشيوعية يمسكوها. ومع الجماعات الإسلامية يمسكوها. وهي لا شيوعية ولا مسلمة. أبوها نصراني وأمها مسلمة لكن حظها سيىء والعياذ بالله. يعني كان لازم يكون اسمها وداد إبراهيم فوزي. . ينفع يكون اسم واحدة نصرانية أو مسلمة أو شيوعية أو حتى يهودية. لكن حظها سيىء. المسألة كلها حظ. ولا يمكن واحدة لها حظ تدخل السجن أو لها ظهر، أو لها رجل يحميها أو لها أطيان وفلوس. ولا حق ولا عدل ولا محكمة ولا قاضٍ. الفلوس هي كل حاجة. وتطلع أكبرها واحدة في الدعارة أو المخدرات براءة على طول. ولو دخلت السجن تدخل فترة قصيرة. وتعيش في السجن ملكة. .

كانت ذوبة تحرّك المشط العظم داخل شعر الشاويشة الخشن. تحك به جلدة رأسها ثم تخرجه، وتلتقط من بين أسنانه الدقيقة قملة سوداء تضعها على سطح المشط الأبيض ثم تضغط عليها

بظفر إبهامها، محدثة طرقعة خفيفة، وبقعة صغيرة من الدم الأحمر فوق السطح الأبيض.

بين أصابعي لاتزال قطعة الحجر المدببة، أكتب بها على التراب حروفاً وكلمات بلا معنى.. خطي يتعرج كخطي وأنا طفلة.

الشاويشة رقدت على جنبها، وذوبة إلى جوار رأسها تمشّط شعرها وتفليها.. تبتسم في سعادة كلما عثرت بين أسنان المشط على قملة جديدة... تهرش رأسها وتواصل كلامها: «آه يا دكتورة لو رأيت الحاجة بديعة في عنبر المخدرات. حاجة تشرح القلب.. تعيش ملكة. عندها في العنبر كل شيء حتى التلفزيون الملوّن. وتكسب هنا في السجن أضعاف ما تكسبه خارج السجن. لكن كله من عند الله. المكسب من عند الله. والخسارة من عند الله. ربنا إذا أراد يسعد إنسان أعطاه مال قارون. حكمته! إنه لا يعطي إلا من يستحق. والحاجة بديعة تستحق كل خير. قلبها طيب وكريمة. تزكي عن مالها وتصلي وتصوم وتعرف ربنا. وفي الأعياد تذبح الذبائح وتوزع على العنابر وكل السجن يأكل. أنا مسكت عليها في عنبر المخدرات السنة اللي فاتت، ومن يومها وهي ترسل إليّ الصينية. لكن كله من عند الله... وكل شيء نصيب...

وجدتني أكتب على التراب ببوز قطعة الحجر: خطأ في الاسم ثلاثة شهور... عينا الشاويشة وهي راقدة تتابعان حركة يدي فوق التراب.. هزّت رأسها قائلة: لو ظهر ضابط المباحث الآن في

الفناء ورآك من بعيد وأنت تكتبين سيظن أن معك ورقة وقلماً. ليس في باله ولا في خياله إلا الورقة والقلم. يطلبني في المكتب ويسألني وأقسم له بالله العظيم أن عنبر السياسة كله ليس به لا ورقة ولا قلم. لكنه لا يصدّق. دائماً يشك. ومن صباح ربنا يلف السجن. ليس له شغلة ولا مشغلة. ولو رأى واحدة عرجاء أو حتى عمياء تنظر ناحية عنبر السياسة يمسكها ويفتشها. أو ينادي على الضابطة أو الشاويشة لتخلع عنها كل ملابسها ملط! وتفتش جسمها. ويا ويلها لو لقوا ورقة سيجارة فوقها كتابة بالقلم الرصاص أو قلم الحواجب. أي قلم والسلام. وأي كلام مكتوب. كلمتين مثل كيف الحال. أي أي كلام فارغ. يا داهية دقي. هي تروح في داهية. والشاويشة تروح في داهية. لأن الشاويشة هي المسؤولة. والشاويشة غلبانة أغلب من المسجونة. لكن المهم أن ورقة واحدة لا يمكن تكون موجودة. ولا يمكن كلمة واحدة مكتوبة تخرج من عنبر السياسة أو تدخل. العنابر الأخرى ممكن. إلا عنبر السياسة. كلمة واحدة مكتوبة في عنبر السياسة أخطر من الطبنجة. الكتابة أخطر من القتل يا دكتورة. القتل عندنا هنا أبسط حاجة. والقتّالات أحسن ناس. وكلهم غلابة. فتحية القتالة كانت فلاحة غلبانة تزرع بإيدها وتقلع، وزوجها راقد في البيت. تنبل من تنابلة السلطان. يأكل ويتقرع ويشرب الجوزة. في يوم رجعت من الغيط لقيته راقد فوق بنتها. عمرها تسع سنين. ضربته بالفأس على رأسه وأخذت حكم بالسجن المؤبد. هي معنا هنا من عشر سنين. قلبها حنون ورقيق مثل النسمة. ولا يمكن نصدق أنها تقتل ناموسة. لكن حظها

سيىء. ربنا رزقها برجل ابن كلب. لو أن ربنا رزقها برجل طيب كان زمانها في دارها وأرضها وبنتها في حضنها. لكن كل شيء نصيب...

أصابع ذوبة كانت في تلك اللّحظة تطارد قملة مختبئة بين أسنان المشط... رفعت عينيها السوداوين نحو السماء وقالت: لو كان ربنا رزقني برجل محترم لا يشغلني في الدعارة كان زماني في شقتي وبنتي في حضني... ولو كان ربنا رزق صباح الشحاتة برجل محترم كان زمانها في بيتها وأولادها في حضنها. ولو كان ربنا رزق سعاد الحرامية بأب محترم لا يكويها لتسرق كان زمانها ست محترمة في دارها. كل واحدة دخلت السجن هنا وراءها رجل ابن كلب. أب. زوج. أخ. عم. ابن عم. أي رجل. لكن ربنا هو الذي يرزق، وكل شيء نصيب.

لكزتها الشاويشة في كتفها قائلة: لكن ربنا لم يقل لأي واحدة تسرق أو تشتغل دعارة أو تبيع مخدرات. ربنا يرزق صحيح. لكن أعطى الإنسان عقلاً. يعرف الصح من الغلط. أنا ربنا رزقني بأب فقير لم أدخل مدرسة ولا أعرف أقرأ ولا أكتب لكن عندي عقل يقول لي هذا حرام وهذا حلال. ولأجل هذا أنا طلعت شاويشة. لماذا لم أطلع حرامية أو دعارة مثلك يا بت يا ذوبة... الواحدة فيكم تعمل العاملة وتقول ربنا... ربنا ليس له ذنب!

وضعت ذوبة المشط على الأرض والقملة لا تزال بين أسنانه وشوحت بيديها قائلة:

أيوه ربنا... كل شيء بإرادة ربنا. أراد لي الدعارة... بقيت دعارة... لو كان ربنا أراد لي أكون دكتورة كنت بقيت دكتورة... نظرت إليّ ذوبة وقالت: ما رأيك يا دكتورة؟

كنت لا أزال أحرّك إصبعي فوق التراب بقطعة الحجر المدببة... ووجدتني أرسم مربعين. داخل المربع الأول كتبت: ربنا ليس له ذنب. داخل المربع الثاني كتبت: ربنا له ذنب.

تأملت الشاويشة بعينيها الصغيرتين الحروف على الأرض وقالت: ماذا كتبت:

وضحكت وأنا أقول: كتبت أن السادات هو المسؤول الأول...

ضربت الشاويشة على صدرها بيدها: يا مصيبتي... لو جاء الآن ضابط المباحث وقرأ ما كتبته... أروح أنا في داهية. مدّت يدها السمراء المعروقة ومسحت الكلمات فوق التراب وهي تقول: وما فائدة الكتابة يا دكتورة؟... كلام في كلام ولا ينوبك إلا السجن، والسادات فوق في السماء. ملك ولا الملك فاروق في زمانه! ولو طلب لبن العصفور...

ورفعت عينيها نصف المغمضتين نحو السماء. في هذه اللحظة انتفضت العصافير فوق الأسلاك الشائكة وطارت في الجو مذعورة. وارتجّت الأسوار بصوت كالرعد أو الزلزال ثم حجبت السماء طائرة هليوكوبتر حلّقت فوق رؤوسنا لحظة خاطفة ثم اختفت. لم أرَ إلا بطنها الرماديّ. لمع في الشمس كالبطن

الحامل لحيوان مائيّ ضخم أو حشرة خرافية مجنونة أجنحتها في رأسها تدور.

انتفضت الشاويشة واقفة على قدميها، ودقّت الأرض بقدم حافية أدخلتها بسرعة في الشبشب، ثم ضربت كعبها المشقق في الكعب الآخر ورفعت يدها بأصابع مشدودة إلى جبهتها تؤدي التحية العسكرية أو البوليسية المألوفة منذ سلاطين الأتراك والمماليك.

وشهقت: السادات!

عاد الهدوء إلى السماء كما كانت. وعادت العصافير ووقفت على الأسلاك الشائكة. وعادت الشاويشة وجلست تربط شعرها بالمنديل وهي لاتزال تلهث: السادات خارج من استراحته في القناطر.. يا مصيبتي لو كان سمعني! تبقى رحت في داهية يا نبوية يا بنت زكية!

شوحت ذوبة بيديها: وكيف يسمعك السادات وهو فوق في السماء؟!

كانت ذوبة هي الأخرى قد انتفضت واقفة حين سمعت هدير الطائرة، وزميلات العنبر أيضاً خرجن إلى الحوش مسرعات يرفعن عيونهن إلى السماء.

قذفت الشاويشة ذوبة بطوبة صغيرة وهي تقول:

«اسكتي أنت يا بت يا ذوبة. أنت لا تعرفين شيئاً. أنا شاويشة وأعرف أكثر منك. دبّة النملة هنا»...

ودقّت الشاويشة بيدها على الأرض.

«دبة النملة هنا ممكن تتسمع في أي مكان في السماء أو الأرض. الدنيا تقدّمت وكل شيء ممكن. واحدة دكتورة محترمة مثلك يا دكتورة قالت لزوجها كلمة وهي راقدة في السرير في حجرة النوم. في اليوم الثاني كانت هنا في السجن معي. زمان ونحن عيال كنا نضحك على أمي إذا قالت «الحيطان لها ودان». لكن عشت يا نبوية ورأيت بعينك أن الحيطان لها ودان بحق وحقيق».

وتحرّكت عيناها الصغيرتان بغير رموش فوق الجدران تفحصها.. تفتح عيناً وتغمض عيناً. وكانت الزميلات المنقبات قد جلسن في أماكنهن المعتادة في الحوش. يسندن ظهورهن إلى الجدار. وارتفعت العيون الصغيرة تدور حول الجدران من خلال ثقوب ضيقة في مساحات كبيرة من السواد... وهتفن بصوت واحد: الله فوق الجميع!

*

سألتني الشاويشة وهي راقدة على جنبها: هل رأيت السادات شخصياً؟

قلت: نعم.

قالت: كم مرة؟

قلت: مرتان أو ثلاث لا أتذكر.

قالت: وهل تكلمت معه؟

قلت: كانت اجتماعات كبيرة، ولم أتكلم معه، ولكني تكلمت في الاجتماع.

أغمضت عينيها كأنها تنعس وهي تقول: أي اجتماع.

ولم تفتح عينيها. لا بد أنها نامت. وتأملت وجهها الأسمر الطويل.

ثم شدَّت جفنيها فجأة وقالت بدهشة: ماذا قلت للسادات؟

وضحكت وأنا أقول: لا شيء... نامي يا شاويشة وسأحرس لك الباب.

ابتسمت وأغلقت عينيها مرة أخرى.

تذكرت ذلك اليوم منذ سنين بعيدة، قبل عام ١٩٧٠ لأن جمال عبد الناصر كان لايزال حياً. وفي أحد الاجتماعات الكبرى للاتحاد الاشتراكي دعيت للحضور ضمن مئات من أعضاء النقابات المهنية. كنت عضواً في مجلس نقابة الأطباء، وجلست في مقعدي مثل الآخرين أنتظر وصول المسؤولين الكبار في الاتحاد الاشتراكي.

كنا حوالى ثلاثمائة أو أكثر من الأطباء والصحافيين والمحامين والمهندسين وغيرهم من مختلف المهن في مصر. جلسوا في مقاعدهم أكثر من ساعتين في انتظار ظهور أحد على المنصَّة الضخمة في القاعة الرئيسية للاتحاد الاشتراكي.

كان أول اجتماع لي مع هؤلاء الكبار من أعوان عبد الناصر. وقلت لزميلي الجالس إلى جواري: موعد الاجتماع الساعة

الحادية عشرة، والساعة الآن تجاوزت الواحدة ظهراً، لا بد أن شيئاً ما خطيراً حدث ومنع حضورهم.. وجاءني أغرب رد يمكن أن أسمعه.. قال بهدوء كمن تعود على هذا الحال: إنهم يتأخرون دائماً هكذا.

قلت بدهشة: غير معقول! وهؤلاء الناس لماذا ينتظرون؟

قال بهدوء: يخافون الانصراف.

وقلت متعجِّبة: لا أستطيع أن أصدق هذا.

وقطع حديثنا انتفاضة وقوف وتصفيق، ورأيت أنور السادات يدخل (كان نائباً لرئيس الجمهورية) ومن خلفه كبار رجال الدولة والاتحاد الاشتراكي. وجلسوا إلى المنصة. وبدأ أنور السادات الاجتماع دون أن يذكر كلمة واحدة لتبرير أو تفسير ذلك التأخير. وأدركت صدق الزميل حين قال لي إنهم يتأخرون دائماً هكذا.

وانتهى السادات من كلامه وبدأ الحوار بينه وبين الحاضرين. تكلَّم بعض رؤساء النقابات ولم يشر أحدهم إلى موضوع التأخير. تكلَّم آخرون ولم يذكر أحد شيئاً عن ذلك الموضوع. وأدركت صدق الزميل حين قال إنهم يخافون الانصراف فما بال الكلام.

ورفعت يدي وطلبت الكلمة. وبدأت كلامي كالآتي: تكلم السيد أنور السادات عن المعركة.. وأن اقتصاديات الحرب تستدعي الإدخار في كل شيء والعمل الجاد في جميع المواقع وزيادة الانتاج في كل المجالات، لكني لاحظت اليوم أن أكثر من ثلاثمائة شخص تعطَّلوا عن أعمالهم أكثر من ساعتين في

انتظار وصولكم إلى هذه القاعة، ويبدو أن هذه هي العادة المتَّبعة في مثل هذه الاجتماعات لأنكم لم تذكروا شيئاً عن سبب هذا التأخير، وإني أطلب أن نحسب بلغة الاقتصاد والأرقام مقدار ما ضاع على الدولة أو الدخل القوميّ من جراء مثل هذا التأخير.

ثم تحدثت عن نقاط أخرى تتعلق بزيف الشعارات وغياب الديموقراطية. كنت أتكلم بهدوء، وأدلل على ملاحظاتي بالأمثلة الواقعية التي نعيشها. لا أذكر تماماً ماذا قال السادات. لكنه لم يرد على النقاط التي ذكرتها. تجاهل أيضاً موضوع التأخير. وقال كلاماً عاماً معناه أنني أطلب الكمال أو المثالية. لكن المثالية أو الكمال ليست إلا صفات الله سبحانه وتعالى.

ودهشت، ودهش جميع الحاضرين. لأني لم أكن أطلب الكمال. ولكني كنت أطلب الحد الأدنى لاحترام الإنسان المصري أو الجماهير المصرية التي تكدّس في قاعات الاجتماعات وتعطل عن الانتاج.

قبل أن ينتهي الاجتماع أحسست بيد توضع على كتفي، ومسؤول كبير من وزارة الداخلية يدعوني لمقابلة مسؤول أكبر في الداخلية. وقال لي المسؤول: نحن في معركة ولا نريد أي نقد الآن.

وقلت: لكن المعركة تتطلب النقد الموضوعي من أجل عدم تكرار الهزيمة! واندرج اسمي في القائمة المغضوب عليها.

*

فتحت الشاويشة عينيها وقالت فجأة:

وزوجة السادات؟ يقولون هنا في السجن إنها هي التي حرَّضت زوجها ضدك.

قلت: ولماذا تحرِّضه ضدي يا شاويشة؟

وابتسمت الشاويشة في خبث وقالت: ألا تعرفين؟

قلت: لا أعرف شيئاً، وكيف أعرف وأنا داخل السجن؟.

دعكت الشاويشة عينيها بكفها السمراء المعروقة.

وقالت: يقولون إنها تغار من أية امرأة أجمل منها، أو أذكى منها. هي سيدة مصر الأولى، ولا تريد أية امرأة أخرى تتفوق عليها.

قلت: من قال هذا؟

رمقتني بعينيها الضيِّقتين وابتسمت بمكر وقالت:

يا دكتورة.... ألا تعرفين كل هذا؟

قلت: لا أعرف.

قالت: ويقولون إنك كتبت شيئاً ضدها.

قلت: لا أذكر أنني كتبت شيئاً ضدها شخصياً. لكني ضد أن تكون زوجة الحاكم هي السيّدة الأولى. هذا تقليد أميركي وأنا ضد التقليد. كما أنه يضع وظيفة الزوجة أو زوجة الحاكم فوق جميع الوظائف الأخرى. هناك نساء مصريات لهنَّ جهود أكبر من زوجة الحاكم، ولهنَّ منزلة في قلوب وعقول الشعب المصري أكثر منها. المفروض أن تكرم المرأة بسبب جهودها وليس لأنها زوجة رجل له نفوذ وسلطة.

وقالت الشاويشة: كل يوم نقرأ في الجرائد عن نشاطها، أنها تبذل جهوداً كبيرة أيضاً.

قلت: لم نسمع عن نشاطها إلا بعد أن تولى زوجها الحكم، ولا أدري هل يستمر نشاطها بعد أن يذهب عن الحكم؟! ثم ما نوع هذا النشاط؟! وهل فعلاً يغير من وضع المرأة أو يحل مشاكلها وخاصة المرأة الفقيرة التي تشتغل في البيت وخارج البيت؟!

شوّحت الشاويشة بيديها السمراوين وقالت:

الناس الفقراء مثلنا مطحونون وليس لنا إلا الله. يقولون إنها في الحفلات ترتدي جواهر بآلاف الجنيهات، أكثر من جواهر الملكة فريدة في زمانها. والله يا دكتورة نحن شعب غلبان، تعوّد على الذل. وعلى الضرب بالكرباج.

تلفتت حولها وأطبقت شفتيها... ثم همست بصوت خافت:

يا مصيبتي لو كانت الحيطان لها ودان بصحيح!...

ثم ضحكت وأحكمت المنديل حول رأسها، وهي تقول: وإذا سمعوني ماذا يفعلون لي؟ لا شيء أكثر مما أنا فيه. ثم مصمصت شفتيها: وهل يسخطون القرد أكثر مما هو قرد؟! حملقت فيّ بعينيها الذابلتين وقالت: ولكني أخاف عليكِ أنت.

قلت: لا تخافي يا شاويشة عليّ.

قالت: كيف لا أخاف عليكِ؟ سبّبوا لك أضراراً كثيرة. عرفت ذلك من ابنة أختي طالبة في كليّة الطب، قرأت كتبك كلها

وعرفت أنهم رفضوك من عملك، ومنعوك من النشر. حتى مجلة «الصحة» قفلوها. وكانت تواظب على قراءة مجلة «الصحة»، وكل كلمة تكتبينها في مجلة نقابة الأطباء أو أي جريدة، وتابعتك لما تطوّعت مع الفدائيين الفلسطينيين في الأردن بعد الهزيمة وفي القنال، وفي الإسماعيلية.. لا يمكن يفوتها شيء أو كلمة تكتبينها.. ولما عرفت أنك في السجن معي هنا أرادت أن تأتي معي لتراك.. أمنية حياتها أن تراك. وعدتها أنه بمجرد أن تخرجي إفراج إن شاء الله أن أزورك أنا وهي في بيتك بإذن الله تعالى... يا رب يفرجها عنك وعن كل زميلاتك يا دكتورة.

رفعت يديها إلى فوق، ثم أمسكت رأسها وظلّت تحملق في الفراغ طويلاً كأنما تصلي في صمت..

ثم نظرت نحوي وقالت: ابنة أختي تقول لي دائماً إنها ستكون دكتورة مثلك... تريد أن تكون مثلك في كل شيء..

وضحكت وقلت: فيما عدا أن تدخل السجن وانفرجت شفتا الشاويشة الجافتين عن ابتسامة وقالت: وماله السجن يا دكتورة!. السجن شرف في هذا الزمن، شرف والله العظيم! ونعمة من عند الله! نعمة وأي نعمة... نشكرك يا رب!

وقبلت كفها ظهراً وبطناً ثم نادت في ذوبة: يا بت يا ذوبة! أين أنت يا بت!

*

أحضرت ذوبة جردل الماء وصابونة وقطعة حجر. مدّت

الشاويشة ساقيها في الماء. بدأت تدعك لها قدميها المشققتين المسودتين بالتراب والطين. رأسها الصغير يهتز بشعرها الطويل الأسود. بين شفتيها سيجارة، وأنفها من الجانب مرفوع بكبرياء. ينفذ الدخان من فتحتيه الصغيرتين. على طرف الأنف هبطت ذبابة سوداء. لم تكن ذبابة. دائرة سوداء بحجم حبة العدس بارزة فوق السطح، ما لبثت أن انتشرت فوق الخدَّين البارزين كطفح جلديّ أسود. مسحت وجهها في كم جلبابها الأبيض فأصبح أسود. بصقت السيجارة فوق الأرض وداست عليها بكعبها وهي تقول: لعنة الله على السجن ومدخنة السجن التي تصبّ علينا كل صباح زفتاً وقطراناً!

ملأت الشاويشة كفّها بالماء ورشتها على وجهها قائلة: «لا تقولي زفت وقطران. ليس عندنا زفت ولا قطران. سجن القناطر الخيرية جنّة. لو رأيت السجون الأخرى لحمدت الله وقبلت يديك وجه وظهر. أنت يا بت يا ذوبة لا تحمدي الله أبداً. لو رأيت مصائب الناس هانت عليك مصيبتك. اسأليني أنا. رأيت أشياء يشيب لها الرأس. لا تقولي زفت ولا قطران. والمدخنة لا تشتغل إلا نصف النهار والدخان يطير في الجو. ولا يقرص ولا يعض ولا يحرق الجلد ولا يوجع القلب. أنا رأيت أشياء توجع القلب: جلود تحرق، عيون تطفأ فيها السيجارة، بطون تنفخ بمنفاخ. لا تقولي زفت ولا قطران. هنا نعمة. والله العظيم نعمة. لكن ماذا نفعل في بني آدم، لا يملأ عينه إلا التراب».

*

الوقت الآن بعد منتصف الليل، وأنا جالسة أكتب، فوق قعر الصفيحة. منذ دخلت السجن وأنا أكتب على ورق التواليت وورق السجائر. ورق التواليت ليس ممنوعاً. نشتريه بالبطاقة من الكانتين. والسجائر أيضاً.

لم أكن أدخن في السجن. خارج السجن كنت أدخن أحياناً. لكن هنا قررت عدم التدخين. سمعت عن مساجين تضعفهم سيجارة. أو نفس واحد في سيجارة. والدخان أيضاً يقطع النفس. وأنا أحتاج هنا لنفس طويل، فالمعركة أمامي لاتزال طويلة.

السجائر كانت عملة التبادل بدل النقود. كل خدمة تؤدى لها مقابل عدد معين من السجائر. نعطي الشاويشة ومساعدة الشاويشة ذوبة أو أي واحدة أخرى من عنبر الدعارة. يفحصها طبيب السجن، وإذا كانت خالية من الأمراض التناسلية يرسلونها إلينا بضعة أيام. ثم يغيرونها بواحدة أخرى. لا تستمر الواحدة منهن معنا فترة طويلة. يخشون عليها من أفكارنا، أو تعاملنا الإنسانيّ معها. فيصبح ولاؤها لنا أكثر من ولائها لهم.

ذوبة رأيتها مرة شاردة، وفي عينيها دموع. قالت لي: لن آتي في الغد، أرادوا أن أتجسّس عليكم. رفضت. لا أستطيع أن أخونكم وقد أكلت معكم العيش والملح.

عيناها سوداوان فيهما لمعة ذكاء، وصراحة، واستقامة، وشرف...

ثم قالت: ولكني لا أستطيع أن أعيش بدون السجائر... والبرشام... ماذا أعمل يا دكتورة... إذالم آخذ هذه المخدَّرات لا أنام طول الليل... لا بد أتخدّر حتى أنسى وأنام.

عيناها لا تزالان أمامي مليئتان بالدموع. في مؤخرة رأسي ألم حاد كرأس مسمار. آلام في ظهري المقوّس فوق قعر الصفيحة. أصابعي تؤلمني. القلم متعب في الكتابة. قلم قصير أقصر من أصابعي. والورق خفيف شفاف. إذا ضغطت عليه بالقلم ينقطع. وإذا لم أضغط لا تظهر الحروف. والضوء من حولي خافت. لا أكاد أرى. وتحت قدمي وضعت الصحن الألومونيوم لأرفعهما عن الرطوبة.

خنفسة سوداء صعدت فوق الصحن لتزحف على ساقي. ضربتها بقدمي.

نهضت الزميلات المنقبات ليصلين الفجر. خبأت أوراقي تحت البلاطة في ركن دورة المياه. عينان تنظران إليّ من خلال ثقبي النقاب. «بدور» و «فوقية» تقولان عنها إنها جاسوسة تعمل لحساب المباحث. لكن عينيها فيهما استطلاع طفولي بريء اسمها اعتدال. كالأطفال اقتربت مني وقالت: ماذا تكتبين؟

قلت: قصة...

لمعت عيناها: قصة حب؟!

ضحكت وقلت: نعم.

ابتسمت في سعادة: أريد أن أقرأها... أنا مخطوبة لابن

خالتي من ثلاثة شهور... ارتديت النقاب من شهر واحد، من أجله... هو يقرأ القرآن. ولكني لا أعرف القراءة... لم أدخل مدرسة. أريد أن أتعلم القراءة والكتابة. كل البنات هنا يقرأن إلا أنا هل يمكن أن أتعلم القراءة؟

قلت: طبعاً... ما زلت صغيرة... كم عمرك يا اعتدال؟

قالت: ستة عشر عاماً.

ثم قالت في حماس: في كم يوم أتعلم القراءة والكتابة؟

قلت: في ستة عشر يوماً... كل سنة بيوم واحد.

وضحكت: ضحكاتها كالأطفال. طويلة متقطعة كالنشيج.

قالت: هل تعلميني؟!

قلت: ليس عندي مانع.

عانقتني وهي تقفز بالفرح. والفرح كالعدوى. ينتقل بسرعة. أحسست أنني الأخرى أصبحت مثلها طفلة يملأ قلبي الفرح. الآلام في ظهري اختفت. أحسّ بجسمي قوياً نشيطاً. سرت إلى الباب ذي القضبان. نسمة الفجر تلامس وجهي منعشة رطبة. السماء لا تزال سوداء لكن نور الشفق يزحف ببطء...

وفجأة سمعت صوت الكروان...

دقّ قلبي بعنف. قفزت فوق القضبان. أصعد عليها بقدمي الحافيتين وأمد عنقي نحو السماء. أدسّ رأسي بين القضيبين الحديديين.

لا أستطيع أن أراه. لكن صوته يهزني كأنه يناديني. صوت

عذب حزين. يشق السكون. الناي المنفرد في الظلمة. تغريد كصوت الأم. كالدعاء. كالبكاء.. كالضحكة الطويلة يطلقها طفل. أو صرخة وحيدة في الليل. أو النشيج الطويل المتقطع.

كل فجر أنتظره وأسمعه. وكل غروب أيضاً. لا يغرّد الكروان إلا في السكون والظلام. لا يحلّق إلا في هذه اللحظة الساقطة بين الليل والنهار. طائر وحيد في الكون..

أرفع رأسي إلى السماء. أريد أن أراه. لم أر في حياتي أي كروان. لكن السماء محاطة بالأسوار، والكروان يسمعه الإنسان في السجن دون أن يراه. يكفيني أن أسمعه دون أن أراه. يكفيني أن أرى قطرة ضوء من نور الشفق. وقطرة ندى. وأن تظلّ أصابعي قادرة على الإمساك بالقلم. لايزال عندي ورق أحرك القلم فوقه. لا يهم أن أرى الكلمات. لا يهم أي شيء سوى أن تولد الكلمات فوق الورق. ويولد الفجر وتنقشع الظلمة.

ارتديت حذائي الكاوتش لأبدأ التمرينات الصباحيّة. حركة الجسم تعني الحياة. قوة الجسم تعني قوة العقل وقوة النفس. وفي السجن يحتاج الإنسان لمجموع قواه.

وسمعت من خلفي صوت أقدام حافية تقفز فوق الأرض. كانت هي اعتدال... أنهت صلاة الفجر... وخلعت النقاب والعباءة... وبدأت تحرّك جسمها بالتمرينات الرياضية.

تصبّب العرق غزيراً. يغسل الأرق ويغسل التعب. ذابت كل أوجاع الظهر والعنق. وضعت جسمي تحت رذاذ الدش الغزير.

الآن فقط أشعر بانتعاش عجيب. كأنني ولدت الآن وفي هذه اللحظة. شهيتي متفتحة لليوم الجديد، وجوع شديد وظمأ مجنون لكوب من الشاي.

*

ذلك الصباح جاءت فتحية القتالة وفي يدها فأس. ناولته لي وهي تقول: ازرعي الحوش يا دكتورة... أنا زرعت الحوش عندنا في عنبر القتالات وأصبح مثل الجنّة... زرعت ملوخية وجرجير وفجل وبقدونس وفول... وورد وزهور... خبطت الأرض بكعبها القوي... ثم قالت:

الأرض عندكم كلها حجر، اضربي الحجر ببوز الفأس واخرجيه من الأرض، أرض القناطر خصبة، افحتي غويط، حتى تصلي إلى الأرض السوداء الحلوة.

ملمس الفأس في يدي له لذة. وحركة ذراعي صاعدة هابطة. أضرب الأرض بكل قوتي. العرق يتصبب غزيراً. متعة كالنشوة تغزو جسدي وعقلي. منذ الطفولة لم أمسك فأساً. كنت أتسابق إليه أنا وأخي، كان أكبر مني، وساقاه أطول من ساقيّ، لكنني كنت أسبقه وآخذ الفأس. أحب هذه الحركة العنيفة لكل عضلات الجسم. وأحب رائحة بطن الأرض حين أشقها، والبذور أضعها بين الشقوق، الماء يجري في القناة الطويلة له رائحة الطمي... والحقول الخضراء الممتدة... والزرع الأخضر يلمع تحت الشمس...

كل إجازة صيف نسافر إلى قريتنا كفر طحلة. أقفز من الفرح أنا وإخوتي، ونظل طول الليل نحلم بالحقول وركوب الحمير ورائحة الخبيز والفطير وجدتي وعماتي يغمرننا بالقبلات، وبنات عماتي يحملن الجرار على رؤوسهن ونذهب معهن إلى النيل، نملأ الجرار ونصطاد السمك.

وكل إجازة صيف كنا نسافر أيضاً إلى بيت جدي في القاهرة. فيلا كالقصر تحوطها الحديقة الكبيرة، وكلب ضخم ينبح طول الوقت. وخالتي صوتها عالٍ حاد. تصرخ كلما رأتني أمشي بحذائي المتّسخ فوق السجادة العجمي المزركشة. وتمسح بفوطة صفراء أكر الأبواب وكل شيء أدوس عليه أو ألمسه.

كنت أكره خالتي أخت أمي، وأكره القصر والسجاجيد وأكره الأبواب اللامعة. وأحب عمّتي الفلّاحة والحصيرة على الأرض، أدوس عليها بحذائي، أرقد عليها وأتمرّغ في التراب ولا يصرخ أحد. والأبواب بغير أكر تلمع. أمسكها بيدي فلا يمسحها أحد بفوطة صفراء... والحمارة أقفز فوقها وأسوقها إلى الحقل... تسير بي على حافة القناة وتجري دون أن أقع.

*

يد الفأس خشبية خشنة متعرجة ومن حولها يدي، تقبض عليها بكل قوتي. الحجر في الأرض لا ينكسر إلا بعد ضربات قوية عنيفة. حجر أحمر وأبيض. أرفع الفأس عالياً ثم أهبط به فوق الحجر حتى ينكسر.

سال الدم من يدي. ربطت يدي بمنديل أبيض، وواصلت الفحت. في أعماقي طاقة مخزونة منذ الطفولة. ولذة عارمة أحسها وأنا منهمكة، مستغرقة في إخراج الحجر من بطن الأرض.

كم ساعة ذلك النهار مرّت وأنا أشتغل بالفأس؟ لا أدري. لكن الساعة كانت تمرّ وراء الساعة دون أن أحس. نسيت أنني في السجن.

ثم أفقت على صوت. رأيت «الطيفة» تنظر إلى وجهي المحتقن يتصبب منه العرق، والمنديل الأبيض حول يدي مبلّل بالدم الأحمر. سمعتها تقول: كفى... غداً أكملي بقية الحوش.. يدك تنزف...

قلت بعناد الأطفال: لا بد أن أكمله اليوم قبل الساعة الرابعة... قبل أن تغلق الشاويشة علينا باب العنبر.

قبل الساعة الرابعة بدقائق كنت قد انتهيت من فحت الحوش كله. أصبح كالحقل الصغيرالمحروث. الحجر الأبيض والأحمر جمعته ذوبة خارج الحوش في كوم كبير ارتفع عالياً، ثم ألقيت جسدي المنهوك على الأرض. صدري يلهث. المنديل حول يدي ملوّث بالتراب والدم. رمقتني «الطيفة» طويلاً بعينين مذهولتين وقالت: اليوم فقط عرفت المارد الجبّار داخلك.

قلت وأنا أسند ظهري المنهك إلى الجدار: اليوم فقط أشعر بالراحة.. المارد المحبوس خرج.

*

في الليل عادت الآلام إلى ظهري وعنقي. ومن تحتي أتحسَّس اللوح الخشبي الممدود فوق الشرائط الحديديَّة الممزَّقة. من فوقه المرتبة الكاوتش الرفيعة المسودة.

أدلك عنقي بيدي وترتفع أصابعي لأهرش رأسي. شيء ما صغير يزحف فوق جلدة الرأس. أحاول أن أمسكه قبل أن يفلت في ثنايا الشعر أو يزحف من فتحة الجلباب ليهبط إلى ظهري.

في الأيام الأولى لم أكن أغمض عيني. تحررت منذ اليوم الأول من الأبراص والصراصير والفئران. إلاتلك الكائنات الدقيقة التي تلدغ فروة الرأس أو تزحف في الليل تحت الملابس الداخلية وتختفي بين ثنايا الجلد. ليالٍ كثيرة مرت قبل أن أتحرر منها هي الأخرى. ثم انتصر وجودي على وجودها فأصبحت أنام وكأنما هي غير موجودة.

لكن لم أكن أستغرق في النوم. ظهري فوق السرير لا يصبح أبداً في وضع أفقي مستقيم. وتطل أجزاء من جسمي وأطرافي من بين الشرائط وتكاد تلامس الأرض. النوم على الأرض كان أفضل لولا تلك الكائنات الزاحفة أثناء الليل من الحوش إلى العنبر. حيوانات صغيرة وحشرات تدخل من بين القضبان تموء وتصفر وتصرصر وتقرض وتقلب العلب والصفائح رأساً على عقب.

حين قلت للشاويشة إنني لا أنام إلا فوق سرير خشبيّ مستقيم، ذهبت وغابت ثم عادت تلهث ومن خلفها ذوبة تحمل اللوح الخشبي. عثرت عليه في مخزن بالسجن وقدمته لي هدية.

اللوح الخشبي كان طويلاً رفيعاً. يهتزّ مع أي حركة من جسمي. لا أتقلّب دون أن أصحو لأنهض وأغير وضعي فوق اللوح. وإذا تقلبت وأنا غائبة في النوم وجدت نفسي على الأرض. لكن جسمي بعد بضع ليالٍ أصبح يتقلب كما يشاء دون أن أسقط ودون أن أصحو. أفتح عيني في الصباح وأجدني راقدة كالمصلوبة فوق ذلك الصراط الطويل كواحدة من لاعبات السيرك فوق الحبال، أو فقيرة من الهنود ينامون على المسامير. أتأمل جسمي بإعجاب منقطع النظير لقدرته الخارقة على التكّيف والنوم العميق تحت أسوأ الظروف.

*

الليل في السجن أطول من النهار. لكن النهار أقبح من الليل. فالظلمة تخفي الشقوق المسودة، والقمامة في الأركان، وبصمات الأصابع وبقع الدم على المراتب والجدران والقضبان وأعمدة الأسرة ومواسير المياه وأبواب المراحيض والصنابير.

كان عندنا ثلاثة صنابير صفراء عتيقة، أحدها مخلوع. والثاني لا تهبط منه قطرة ماء. والثالث يخر الماء منه ليل نهار. وفي الركن ثلاثة مراحيض. أحدها مسدود لا يمكن استخدامه. الثاني بدون باب وبدون سيفون. الثالث له سيفون لا يشتغل ونصف باب مكسور لا ينغلق، وفي سقفه الدش يخر سرسوباً من الماء طول الوقت. أي واحدة فينا تستخدم المرحاض تحس بالماء يتساقط فوق رأسها من الدش، ومن تحتها تغوص قدماها في مياه المجاري الطافحة من ثقب المرحاض. والصراصير الكبيرة تتطاير حولها.

لم تكن «بدور» تدخل المرحاض إلا ونراها تقفز خارجة قبل أن تكمل مهمتها صارخة: صرصار!

ما أن نسمع صرختها حتى نجري إليها وفي يد كل منا شبشبها شهرته في يدها كالسيف استعداداً لضرب الصرصار.

وفي يوم سمعنا صرختها وهي جالسة في الحوش. وظننا أن صرصاراً هجم عليها، وخلعنا الشباشب وتأهبنا للمعركة لكننا لم نر صرصاراً وإنما رجل. لم تكن مرتدية النقاب وأفزعها أن يلمح رجل شعرها العاري، وقفزت من الحوش إلى العنبر في خطوة واحدة وأخفت شعرها ووجها تحت النقاب.

أصبحنا من بعد كلما سمعنا صرختها وقبل أن نخلع الشباشب نسأل: صرصار أم رجل.

انكفأت مرة على عتبة الباب وهي تجري قبل أن يلمح شعرها رجل فانكسرت سنتها الأمامية وجرحت شفتها العليا. ولم يوقفها الدم النازف من فمها عن الجري وإخفاء شعرها تحت النقاب.

في الأيام الشديدة الحرارة كانت تجلس إلى جوار المنقبات في الحوش وكلهن بدون العباءة وبدون النقاب. في حجر كل واحدة منهن المصحف، وعينها على الصفحة، وعينها الأخرى على الفناء، وما أن يلوح خيال رجل من بعيد حتى ينتفضن قافزات داخل العنبر ليرتدين النقاب والعباءات والقفازات.

في عنبر الدعارة المقابل لنا تحدث الانتفاضة نفسها ولكن في الاتجاه المضاد، ويقفزن خارج العنبر كاشفات عن شعورهن

الطويلة، يغمزن بعيونهن ويضحكن ويطرقعن باللبان.

في سجن النساء كان الرجل، أي رجل، وإن كان سجيناً عجوزاً جاء يجمع القمامة، كائناً هاماً يحدث ضجة خطيرة بين المنقبات من ناحية، وبين سجينات الدعارة من الناحية الأخرى. وكنت أرى الرجل وهو يبتسم مزهواً بأهميته الجديدة حين يلمح الانتفاضة بين النساء والفتيات سواء بالابتعاد والاختفاء أو الظهور والاقتراب.

إلا أن الظهور والاقتراب من ناحية بنات الدعارة لم يكن يحدث في حالة الرجال المسؤولين عن الإدارة. ربما لم يكن هؤلاء الرجال في نظرهن رجالاً. أو لعلَّ الملابس البوليسية كانت تسلب الرجل حقيقته كرجل. أو هي السلطة أو الخوف من السلطة يكتسح أمامه المشاعر البشرية بما فيها الغرائز.

وكانت عينا ذوبة تمتلئان بالغضب والخزي حين ترى زميلاتها من عنبر الدعارة يتقافزن متزاحمات حول الرجل. وتهتف بصوت حاد: اختشوا يا دعارة!

تلوي واحدة منهن خصرها وتضع يديها فوق ردفيها وتشهق صارخة: اسكتي يا تسول يا دعارة غلط!ثم تجري في الفناء وردفاها يتقافزان داخل البنطلون الجينز الضيّق.

تقذفها ذوبة بطوبة وهي تصرخ: أنا لا أتسول هنا في عنبر السياسة، أنا آخذ نصيبي بعرق جبيني، وعنبر السياسة ستات محترمات يا حرامية يا دعارة غلط!

تهزّ المرأة خصرها وردفيها وتصرخ: تمسحين عنبر السياسة بسيجارة يا شحاته! أنا دعارة على سن ورمح، ولا واحدة هنا تقدر تقول عني حرامية!

ضربتها على ردفها امرأة نحيفة شعرها أكرت، وجهها عليه آثار جروح وصاحت: والحرامية ما لها؟ أنا آخذ نصيبي بعرق جبيني ولا أبيع شرفي يا حشاشة يا بائعة المخدّرات!

انتفضت امرأة سمينة بيضاء وصرخت: اخرسي قطع لسانك! ما لها المخدّرات! أنا أبيع حشيش وأشتري حشيش بفلوسي وشرفي، لكني لا أسرق يا حرامية يا بنت الحرامية!

وبدأن يتبادلن السباب وتمسك الواحدة بشعر الأخرى ويتشابكن بالأذرع والأرجل في عراك لا تفضه إلا الشاويشة بالعصا الخيزران.

*

عيناها صغيرتان. الجفنان ملتهبان بغير رموش. لكن لهما قدرة غريبة على الملاحظة. أنفها أيضاً له قدرة على الشم. والشعر الأسود عند فتحتي الأنف يهتز كشوارب القط أو الأرنب حين تقترب من ذلك المكان، حيث دفنا الممنوعات.

بدأت الممنوعات بالقلم والورق ثم الصحف وانتهت براديو ترنزستور بحجم علبة السجائر. كنا ندفنها جميعاً في حفرة في بطن الأرض. في ساعة التمام، بعد أن تغلق الشاويشة علينا باب العنبر نخرج الصحف نقرأها واحدة وراء الأخرى ثم نحرقها في

المرحاض، قبل أن تفتح الشاويشة الباب في الثامنة والنصف صباحاً.

تدخل إلى العنبر تتشمم رائحة الورق المحروق. وترمق بعينيها الصغيرتين الرقائق المفحمة السوداء كالهباب طافية على سطح مياه المجاري في الثقب المستدير، ومن حولها الصراصير.

وتلتقي عيناها بعيوننا، لا نقول شيئاً، وهي لا تقول شيئاً. فالأمر معروف. ولا شيء في السجن ممنوع. المهم أن يعرف الإنسان الطريق الصحيح.

وأصبحنا نتابع الأخبار في مصر والعالم. في الأيام الأولى لم نعرف شيئاً. كنا نلتقط الأخبار من أفواه السجينات السائرات في الفناء. وحين تدخل علينا ذوبة «أو من تنوب عنها» تحمل الأرغفة كل صباح نسألها الأخبار. بل قبل أن نسألها نحس من نظرة عينيها ورنة صوتها إذا ما كانت الأخبار تسوء أو تتحسن. والشاويشة نبوية أيضاً أو من تنوب عنها، رغم العينين الصغيرتين نصف المغلقتين القادرتين على اظهار عكس ما تبطن، استطعنا أن نكتشف أعماقها، ونفك رموزها، ونفسر حركة رأسها، نظرة عينيها، الطريقة التي تفتح بها الباب كل صباح، يدها وهي تدفع الباب الحديدي لتدخل العنبر، رأسها وهي تطل من الباب، صوتها حين تقول لنا: صباح الخير يا ستات، جلستها في الحوش، اختفاؤها من الحوش، عودتها وهي تسرع الخطى... وحركة المفتاحين الضخمين في يدها.

حواس السجين كعصب الإبصار عند الأعمى، كعصب الشمّ واللمس والسمع. . . تولد لها إمكانيات جديدة خارقة للعادة. . .

وأصبحنا نعرف الوقت الذي سيحدث فيه التفتيش قبل أن يحدث. واللحظة التي سيأتي فيها ضابط المباحث قبل أن يأتي. تدربت حواسنا الكامنة على التقاط أي حركة غير عادية في الفناء الواسع. وأصبح وجه الشاويشة كالكتاب المفتوح نقرأ منه ما نشاء.

في الليل كنا نتجمّع حول الراديو الصغير. نقرّب رؤوسنا من فم المذيع. صوته منخفض. البطاريات ضعيفة. وفجأة يرنّ صوت السادات. يرتفع صوت الراديو. يهدر الصوت كأنه شلّال. أنفاسه تتقطّع. أنفاسنا تتابع هذه الأنفاس. مصيرنا معلّق بهذه الأنفاس، وبهذه الكلمات المندفعة كالقذائف. . .

وفجأة انقطعت أنفاسه وانقطع صوته تماماً. وقفزت واحدة من المنقبات بفرح قائلة: انقطع نفسه من الكلام ومات! قلوبنا تدقّ وعيوننا تبرق. لكن واحدة أخرى تقول: البطارية هي التي ماتت. . لا بد من شراء بطارية جديدة. . .

يعود الوجوم. . والكآبة. شراء بطارية للراديو مشكلة. لا يمكن شراؤها من كانتين السجن كالسجائر. لكن الشراء من السوق يحتاج إلى نقود. وليس في أيدينا نقود. قدمت كل واحدة منا شيئاً من عندها ثمناً للبطارية. واحدة أعطت حقيبة يدها الجلدية. واحدة قدمت حذاء. أعطيت أنا قطعة من ملابسي. . . وجاءتنا بطارية نصف عمر.

كانت خطب السادات طويلة. الخطبة الواحدة تستهلك بطارية، وحين ينقطع صوته فجأة نظن أنه أصيب بسكتة قلبية وتبدأ قلوبنا في الخفقان. لكننا سرعان ما نكتشف أن البطارية هي التي أصيبت بالسكتة.

الراديو كان أهم عندنا من الصحف. نحرّك المسمار فنسمع إذاعات العالم. أخبار الاعتقالات في مصر تتصدر أنباء العالم. السادات وضع معارضيه في السجون ولازال يتحدّث عن الديموقراطية. حتى المذيع في صوت أميركا يقول إن الديموقراطية في مصر ليست حقيقية.

العيون من حولي أراها تبرق: عينان من خلال النقاب تلمعان وصوتها يقول بنشوة: العالم كله معنا ضد السادات؟ صوت واحدة تقول: أخبارنا في كل البلاد، أصبحت لنا أهمية عظيمة!

فرحة السجين بأنه ليس وحده. العالم كله يتابع أخباره وراء القضبان. العالم كله يعترض ويحتج!

كان الراديو الصغير بحجم كف اليد كالشيء السحري العجيب. يبعث الحياة والبهجة والتفاؤل. ما أن نسمع خبراً في صفنا حتى نصفّق بحماس.

لكن الصحف كانت النقيض. ولم نكن نحصل إلا على الصحف المصرية. الصحف كلها ضدنا. تردد خطب السادات. تتهمنا بالفتنة الطائفية، والتآمر ضد الوطن.

ألصقوا بنا التهم دون محاكمة وحكموا علينا دون تحقيق ونحن

في السجون، لا نستطيع أن نرد أو ندافع عن أنفسنا.

*

من جريدة الأهرام ١٢ سبتمبر١٩٨١ قصصت من الصفحة الثامنة قطعة ورق تحمل بعض السطور. سأحتفظ بهذه القصاصة معي إلى أن أخرج إلى التحقيق. سأواجه المحقق بما كتبته الصحف عنا قبل أن يحقق معنا. وكانت القصاصة تحمل هذه السطور: مجلس الشورى يناقش تقريراً عن خطاب الرئيس السادات: أكدت اللجنة في مجلس الشورى أن قرار الرئيس بالتحفظ على بعض الأشخاص لم تستهدف أبداً المعارضة وإنما استهدفت المتآمرين ضد مصالح الشعب، بدليل أن أعلى الأصوات في المعارضة الذين حملوا على النظام أعنف الحملات في داخل البلاد وخارجها لم يشملهم قرار التحفظ وهم أحرار طلقاء ينعمون بالحريّة والديموقراطيّة في عهد السادات البطل العظيم وفي ظل دولة المؤسسات والقانون.

كيف يلصق بنا مجلس الشورى تهمة التآمر ضد الوطن دون تحقق!.

وضعت القصاصة في المخبأ تحت الأرض. سآخذها معي إلى جلسة التحقيق.. إذا كان هناك تحقيق.

كل يوم ننتظر النداء على اسم واحدة منا للخروج إلى التحقيق. لكن اليوم يمر وراء اليوم، ولا خروج ولا تحقيق. وفي الليل نفرش البطانية على الأرض بجوار الباب ونجلس. تحاول

كل واحدة منا أن تتخَيل أسئلة المحقق لها.

إذا كانت التهمة ملفقة فلا بد أن تكون الأسئلة أيضاً ملفقة.. نحاول أن نؤلف الأسئلة التي يمكن أن تلفق لأي واحدة منا. ونؤلف الإجابة أيضاً.

وقالت زميلة: إذا سألني المدعي الاشتراكي لماذا آكل مرتين في اليوم بدل ثلاث مرات بماذا أجيب.

ردتّ زميلة أخرى: إذا سألك هذا السؤال قولي له ولماذا سمّوك المدعي الاشتراكي.

وردّت زميلة: سموه المدعي الاشتراكي ليبقى في البلد شيء من الاشتراكية.

وقالت واحدة: لم يبق من الاشتراكية إلا المدعي الاشتراكي.

وقالت واحدة أخرى: سموه المدعي ليدّعي علينا زوراً وبهتاناً.

وقالت فتاة: حلمت بالأمس أنني جالسة أمام المدعي الاشتراكي وقال لي أنت متهمة بقلب نظام الحكم. قلت له هو الحكم ناقصني، هو مقلوب من غيري.

وقالت أخرى: كل ليلة أحلم بالمدعي الاشتراكي... وكل صباح أكحل عيني استعداداً للخروج ومقابلته... أصبح هو الرجل الوحيد في حياتي.

ورنّت الضحكات في العنبر. كل شيء من حولنا يبدو مضحكاً. السجن والقضبان. الوجوه البوليسية المشدودة.

الصوت المتشنّج في الراديو. مانشتات الصحف. صورة الصفحة الأولى كل يوم. الفم المفتوح عن آخره. الأنفاس اللاهثة. قبضة اليد الملوّحة في الهواء... الكلمات المختلطة برذاذ اللعاب... الاتهامات العجيبة... تصريحات وزارة الداخلية ومجلس الشورى والنيابة العامة والمدعي الاشتراكي.

أنعيش مسرحية كوميدية؟! فتاة في السادسة عشرة من عمرها لا تعرف شيئاً، متهمة بقلب نظام الحكم!

حين ترنّ الضحكات في الليل تتقطّع صفارة الصراصير الحادة. تنتصب شواربها الطويلة وهي تجري في الأركان. تتوقف لحظة دون حركة كأنما تتنصّت. تضع واحدة يدها على فمها وتكتم الضحك قائلة: لا تضحكوا بصوت عال، ضابط المباحث يلف حول العنبر... يلصق أذنه بالجدار ويتنصّت علينا. وتضحك واحدة: مسكين... يتعب نفسه على الفاضي.

وترد واحدة: نحن لا نهاجم الدولة. بالعكس لقد وقعنا كلنا في غرام المدعي الاشتراكي وأصبحنا نحلم به كل ليلة، ونتكحل له كل صباح.

تنهض واحدة تصيح: قد يدخل علينا الآن ويفتش العنبر. تصرخ واحدة: تفتيش يا جماعة خبئوا الممنوعات.

- خبئوا الراديو، والوابور... والجرائد...
- وقلم الحواجب... وورق التواليت...
- واللي قالبة نظام الحكم تعدّله.

ضحكاتهن وأصواتهن ترن في أذني كتلميذات في المدرسة الثانوية. عيونهن تلمع كعيون زميلاتي في مدرسة حلوان الداخلية منذ سنين بعيدة. حين كنا نطل برؤوسنا من تحت الأغطية بعد أن يدقّ جرس النوم، وينطفىء نور العنبر، نتهامس ونضحك. كل اثنتين في سرير واحد أو ثلاثة أو أربعة. وما أن نسمع وقع أقدام ضابطة الداخلية في الممر الخارجيّ حتى تجري كل واحدة إلى سريرها، تدخل رأسها تحت الغطاء، وتغمض عينيها، مرهفة الأذنين لصوت حذائها «الكريب» حين تدخل على أطراف أصابعها تتجسّس على أجسادنا، وتفتش على أحلامنا، وترقب حركة عقلنا الباطن ونحن نائمات، وتعدنا واحدة واحدة، وتتأكد أن كل واحدة منا قد نامت في سريرها، وأن صدورنا تعلو وتهبط بانتظام تحت الغطاء، فإذا ما لاح لها أن الحركة غير منتظمة شدت بيدها الغطاء لتتأكد أن العينين مغمضتين في نوم حقيقي. فإذا ما لمحت رعشة فوق الجفن شدت البنت من ذراعها وساقتها أمامها إلى غرفة التأديب.

أما إذا كشفت الغطاء ورأت بدل العينين الإثنتين أربع عيون دقت جرس الإنذار وصحت كل عنابر الداخلية على الفضيحة: أبلة «نظيرة» ضبطت جريمة وأمسكت اثنتين نائمتين في سرير واحد!

كنت طفلة في الثانية عشرة ولا أعرف ما هي الجريمة. لكني سمعت من التلميذات الكبيرات أن خيالات جنسية تملأ رأس أبلة «نظيرة» طول الليل، تسبب لها الأرق والتوتر، فتنهض من سريرها

بعصبيّة وتدور على العنابر ولا تهدأ إلا بعد أن تمسك بنتاً أو اثنتين، وتلهب أقدامهما العارية بالعصا الخيزران.

*

لأول مرة وقعت عيناي على ضابطة السجن «شكرية» تذكرت أبلة «نظيرة» ضابطة الداخلية. الجسم الطويل النحيل. الظهر المحنيّ. الرأس الطويل المدبّب من الخلف. الشعر القصير الخشن. انقباضة عضلات الوجه. العصبية والتوتر. العينان الجاحظتان تتحركان بسرعة وتدوران حول نفسهما كعيون حيوان محاصر. أنف طويل مقوَّس ومدبب كمنقار الحدأة. شفتان رفيعتان شبه متلاشيتين. ذقن مثلّثة مدببة ومقوّسة. ذراعاها، كتفاها، ظهرها، ردفاها، وساقاها كلها مقوسة.

لم نكن نرى لها فماً وهي صامتة. مجرد خط عميق مشدود تحت الأنف كأنما بالسلك. لكن إذا تكلمت انشقّ وجهها فجأة عن ثقب واسع مستدير بغير أسنان.

حين كنت طفلة كنت أظن أن أسنانها سقطت من شدة التوتر والضغط على فكيها طول الوقت كأنها تأكل أسنانها ولسانها. وصدقت الزميلات الكبيرات حين قلن إنها أكلت مرة قطعة من لسانها. ونظرت باستطلاع في فمها ذات يوم. لكنها كانت أطول مني وفمها أعلى من كتفي.

لكن في السجن رأيت أن كتفي أعلى من كتف الضابطة شكرية. وأستطيع أن أنظر في فمها. ورأيت أن لها أسناناً

مشرشرة صفراء كأسنان مدمني الدخان أو المخدّرات.

أشفقت عليها. تمنيت أن تفتح لي قلبها وتحكي مأساة حياتها. قلت لها وهي تفتش حقيبتي يوماً: لماذا اشتغلت ضابطة في سجن. هل تجدين لذة في فتح حقائب الغير؟!

زمّت شفتيها في غضب. . .

وقلت لها: تأكدي أنني لست ضدك. وأنا أعرف تماماً أنك لست عدوتي. لكن عدونا واحد.

كلامي كان يفزعها. لكن أكثر ما كان يفزعها هو أن تراني أقفز في الحوش بالحذاء الكاوتش وبنطلون الرياضة القصير حتى الركبتين، أرسله إليّ زوجي مع ملابس الرياضة في حقيبة صغيرة. كانت هي تؤمن أن ركبتي المرأة عورة وخاصة في السجن. لكنها على خلاف «بدور» كانت ترى أن الله هو الذي سيحاسبني في الآخرة وأنها لا تتعدى على سلطة الله.

ما أفزعها حقيقة أن عدوى الرياضة انتقلت من خلال القضبان إلى السجينات الأخريات في الفناء. ما أن يرونني أقفز في الحوش حتى يقفن أمامي صفاً طويلاً ويقفزن مثلي. إذا رفعت الذراعين إلى أعلى ارتفعت الأذرع. إذا صفقت ويدي فوق رأسي صفقت الأيادي فوق الرؤوس. إذا ثنيت جذعي ثنين جذوعهن. إذا رفعت رأسي إلى فوق رفعن رؤوسهن. إذا قفزت في الهواء قفزن. إذا ضربت الأرض بقدمي ضربن الأرض بأقدامهن. .

وإذا هتفت: واحد. . . اثنين. . .

هتفن معي: واحد... اثنين...

عرفت السجينات موعد رياضتي. الساعة التاسعة صباح كل يوم يتجمّعن أمام الباب بجلابيبهن البيضاء الطويلة وأقدامهن الحافية، واقفات مستعدات. ما أن أبدأ حتى ينتظمن في الصف ويبدأن معي حركة بحركة.

ظهرت الضابطة «شكرية» في الفناء على صوت التصفيقة الواحدة لمئات الأيادي في لحظة واحدة. أفزعها الصوت، فانتفضت فوق كعبيها الرفيعين من الألومنيوم صائحة: كل واحدة تدخل عنبرها بسرعة!

لكن واحدة منهن لم تخرج من الصف. لم أكن أنهيت رياضتي بعد. وواصلت حركاتي وطابور السجينات يتبعها دون توقف.

دقت الضابطة بقدمها على الأرض بغضب... اقتربت مني وقالت لي من خلال القضبان: هذا تحريض على التمرّد داخل السجن!

قلت: لائحة السجن لا تمنع الرياضة البدنية!

ولم أتوقف. وطابور السجينات لم يتوقف أيضاً. وفي صباح كل يوم في الساعة التاسعة تماماً أراهن واقفات منتظرات.. باسمات... مشدودات الأجسام متأهبات...

وفي يوم تأخرت قليلاً عن الساعة التاسعة، فإذا بأصواتهن تناديني يا دكتورة.. يا دكتورة.. الساعة تسعة...

أجري إليهن ألهث كأنما على موعد. وأبدأ التمرينات. أحرّك

ذراعيّ وساقيّ بذلك الإيقاع المنتظم الذي يشبه الرقص... وأمامي أرى صفاً طويلاً من الأذرع والسيقان، تتحرك في الهواء، وتضرب الأرض بالإيقاع المنتظم نفسه.

كأنما أجسادهن وجسدي شيء واحد. كأنما ليس بيننا القضبان والفواصل الحديديّة. كأنما نحن جسد واحد.

وأحسّ خفقات قلبي تحت ضلوعي. وعرقي يسيل على وجهي ويدخل فمي. ملمسه على لساني له لذّة حادّة لاسعة. وفي رأسي لايزال صدى الصوت والكلمات: هذا تحريض على التمرّد داخل السجن! وأحس خلايا عقلي تتفتح على حقيقة كأنما أدركها لأول مرة. أي حركة جماعية منتظمة وإن كانت مجرد الرياضة البدنية أو الرقص لها إيقاع في العقل والجسد يشبه إيقاع الثورة أو التمرد.

كأنما اكتشفت الضابطة «شكرية» الحركة الكامنة في خلايا عقلي قبل أن أكتشفها أنا. وكانت أبلة «نظيرة» ضابطة الداخلية مثلها تماماً. تفك طلاسم عقلي الباطن وأنا نائمة. وترى أحلامي قبل أن أراها. وتفهم حركة جسمي قبل أن يدركها عقلي.

*

إلا أنه ليس إلا الحلم كالوهم. وسرعان ما تتفرّق الأجسام المشدودة أو ترتخي، أو تجري مذعورة إذا ما لاحت العصا ذات البوز المدبب. وأجد نفسي واقفة وحدي وراء القضبان. أحملق في الفراغ. وفي قدمي حذاء الكاوتش. قد أواصل الحركة وحدي لكنها تبدو لي بلا معنى. وأستدير لأدخل إلى العنبر. لكني ألمح

الفأس فأسرع إليه بأمل جديد. أرفعه بكل قوّتي إلى أعلى ثم أهبط به لأضرب الأرض.

تكشف الأرض عن بطنها الخصبة السوداء. أساويها بكفي. أحس نبضها. دافئة تحت يدي كذراعي وساقي. رائحتها كرائحتي. رائحة الطمي والعرق يتساقط من الجسم. أنثر البذور من حولي ثم أغطيها بالرماد كما أغطي جسمي. وأجري لأملأ الجردل وأسقيها حتى ترتوي.

سمعتني «فوقية» وأنا أطلب من «فتحية القتالة» بذور عنب وبرتقال. شهقت وقالت: هل سنبقى هنا حتى تطرح الأرض عنباً وبرتقالاً؟!

دهشت للسؤال. ربما نسيت أنني في السجن. أو لعلي وأنا أزرع لم أفكر في الحصاد. كثيراً ما أكتب دون أن أنشر. الكتابة في حد ذاتها لها لذة والزراعة لها لذة. العمل في حد ذاته له لذة. وقلت: نبقى أو لا نبقى... المهم هو أن أزرع.

قالت: الزراعة بلا محصول ليست لها لذة، وليس لها معنى!

قلت: الزراعة عندي هدف في حد ذاتها، ولها لذة... ثم ماذا تقصدين بالمحصول.

قالت: هل نبقى هنا حتى نأكل العنب والبرتقال.

قلت: إذا بقينا نأكله، وإذا لم نبق يأكله من يأتون هنا بعدنا.

مطت شفتيها واستدارت ودخلت العنبر.

لكن شفتيها الممطوطتين ظلتا أمام عيني. أرفع ذراعي بالفأس

فوق رأسي عالياً، وعيناي مرفوعتان إلى السماء، ثم أهبط به لأكسر الأرض. ظلت يدي مرفوعة في الهواء لحظة، وعيناي على السماء، ولاح لي وأنا أهبط بالفأس أنني لا أكسر الأرض وإنما أكسر الزمن. أريد أن أقتل الزمن لأتخلّص من العبء. عبء الانتظار... عبء الترقب... عبء إرهاف الأذنين كل يوم وكل ساعة وكل لحظة لذلك الصوت الذي ينادي اسمي.

كنت أظن أنني لا أنتظر. أنني ولدت هنا وسأموت هنا. وأنني مشغولة طول الوقت بأشياء أخرى. ما أن تفتح الشاويشة باب العنبر حتى أجري إلى الحوش أنشر ملابسي التي غسلتها. وأنشر المرتبة تحت الشمس، والبطاطين. ألف الحوش خمسين مرة ثم أبدأ التمرينات الرياضية. بعد الرياضة تأتي الزراعة. ثم الجلسات الجماعية... المناقشات ـ المحاضرات. تحليل آخر الأنباء. الإعداد لجلسات التحقيق. متابعة أحاديث الشاويشة مع ذوبة وفتحية القتالة.. وفي الليل درس القراءة والكتابة لاعتدال.. ثم الجلوس على قعر الصفيحة والكتابة...

أستقبل الكتابة بنهم وشوق... وأنسى أنني في السجن. وأنسى أنني أنتظر. لكن ما أن أحرّك رأسي ناحية النافذة العلوية ذات القضبان حتى أدرك أنني لم أنس. وأن في أعماقي انتظار طويل... انتظار مخيف كانتظار الموت... أخفيه عن نفسي وعن عقلي الواعي وغير الواعي. انتظار لا أعترف به ولا أريد أن أعترف به.

ليس هو انتظار التحقيق أو الجلسة أمام المدعي الاشتراكي

وإنما الخروج النهائي. . . الأبدي. . . الإفراج!

إنتظار الإفراج. . . شيء قلته منذ البداية. . . منذ أول لحظة دخلت فيها السجن. لا شيء يقتل الإنسان سوى الانتظار!

لا يموت الإنسان في السجن من الجوع أو من الحر أو البرد أو الضرب أو الأمراض أو الحشرات. لكنه قد يموت من الانتظار. الانتظار يحوّل الزمن إلى اللازمن، والشيء إلى اللاشيء، والمعنى إلى اللامعنى.

فتحت عيني في أول صباح لي في السجن ووجدتني لا أنتظر شيئاً. لا الخروج للتحقيق ولا الإفراج ولا زيارات الأهل. نسيت أن لي أهلاً. أو لي بيتاً. أو لي حياة أخرى خارج هذا المكان.

أعظم صفات الإنسان أنه ينسى.

وهل كنت أحيا في السجن دون أن أنسى؟!. . .

عينا طفلي حين يفتحهما في الصباح فلا يجدني ولا يعرف أين أنا! ذلك الصباح هل فتح عينيه؟ منذ متى؟ لا أدري. . . ربما قرن من الزمان. . . فالزمن في السجن غيرالزمن، والساعة الواحدة تمتد أمامنا بغير نهاية كالدهر.

*

أحملق في الظلام. لم يكن الفجر شقشق بعد. متكوّرة حول نفسي كجنين في بطن أمه. أتلمّس الدفء من الجدران التي تحوطني. هل أنا مت وعدت إلى الرحم الأصلي أم أنني لم أولد بعد؟

الصمت والظلمة تلتفان حولي كعباءة سوداء. كثافة مثلجة تضغط على أذني في صفير متّصل لا نهائي. أخرج رأسي من بين القضبان. أرقب أول نقطة ضوء. أول قطرة ندى. ظمأ شديد يلهب حلقي. ماذا تعشيت بالأمس؟ لا أذكر. لا أذكر شيئاً. حتى ملامح طفلي نسيتها.

الصوت العذب الحزين يشق السكون. الناي المنفرد في الظلمة. نداء كصوت الأم. كالدعاء. كالبكاء. كالضحكة الطويلة يطلقها طفل. أو صرخة وحيدة في الليل.

كل فجر أنتظره وأسمعه. أرفع رأسي إلى قطعة السماء من بين القضبان. لا أستطيع أن أرى الكروان. يكفيني أن أسمعه دون أن أراه. يكفيني أنني أسمع. وأنني أستطيع أن أحرك ذراعي وساقي وأقفز على أرض العنبر. وأن قلبي يخفق. وأن العرق يتصبب. وأنني أضع جسمي تحت الدش فيهبط الماء الغزير. . . . وأنني أجفف شعري. . . وأشعل الوابور لأصنع الشاي.

*

كنا نخبىء الوابور داخل علبة كرتون تحت أحد الأسرة المكسورة. ومن حوله نضع علب السكر والشاي، والفول، والعدس، والعسل الأسود. إلى جوار كل ذلك نضع ملابسنا داخل علب الكرتون، أو في حقائب، أو في أكياس من الورق.

في الأيام الأولى كانت القطط تدخل في الليل من خلال القضبان وتقلب علب العسل الأسود على الملابس، وعلب

السكر على الشاي على العدس. ثم قدمنا احتجاجاً لإدارة السجن، فركبوا سلكاً على الباب، لم يعد يسمح بدخول القطط والحيوانات بحجم القطط لكن الكائنات الأصغر حجماً والحشرات والزواحف كانت تدخل.

كنت أشعل الوابور بصعوبة. وجميع الزميلات في العنبر يجدن صعوبة في تشغيله. فهو من النوع ذي الشريط. والجاز لا بد أن يملأ الوابور إلى ارتفاع معيّن. والشريط لا بد أن يكون بارزاً بطول معيّن. إذا شددنا طرف الشريط العلوي بضعة ملليمترات هبّت النار في وجهنا، لتحرق أطراف شعورنا. وإذا شددنا طرف الشريط السفلي بضعة ملليمترات لم يشتعل الوابور على الإطلاق، أو اشتعل الجاز داخل الوابور وملأ العنبر بالدخان. ونجري مبتعدات عن الوابور خشية أن ينفجر فينا. ونحاول أن نطفئه. لكن عملية الإطفاء كانت أشد صعوبة من إشعاله. ولا بد أن تقف أربعة أو خمسة منا حول الوابور وننفخ فيه بنفس واحد حتى ينطفىء مخلفاً وراءه سحباً من الدخان الكثيف الأسود ورائحة خانقة من الجاز المحروق.

كل مرة نشعل فيها الوابور أتساءل ماذا نفعل لو أن حريقاً شبّ في العنبر. بعد الساعة الرابعة مساء كانت الشاويشة تغلق علينا البابين الحديديين... وتمضي إلى بيتها. إدارة السجن تمضي إلى بيتها. لا يبقى بالسجن إلا حارسة الليل. يسمونها «سهارة الليل».

كل ليلة نسمع النداء يتردد من أحد العنابر:

يا سهارة الليل! يا سهارة الليل! نداء قد يستمر طول الليل. كالصرخة الممتدة الطويلة. كالأنين الدائم. كالاستجداء. أو الاسترحام. كالدعاء اليائس في سماء مظلمة مصمتة صامتة لا ترد. وآلهة بغير آذان. كصفارة النجدة للإنقاذ أو الأسعاف لكن الأطباء نائمون والحراس نائمون ولا أحديسمع صوت المرأة المستغيثة إلا بعض نساء حولها، ينادين في نفس واحد: يا سهارة الليل واحدة بتموت!

وتموت هذه الواحدة دون أن يسعفها أحد. يغطين جثمانها بالبطانية وهن يبكين بصوت خافت... ثم ينمن. وفي الصباح تخرج نساء العنابر من خلفها يولولن ويصرخن ويلطمن الخدود نائحات عليها وعلى أنفسهن.

ينفذ النواح إلينا من خلال القضبان ونحن جالسات على الأرض في الحوش ننقي الفول أو العدس، وظهورنا إلى الجدار. تلتقي العيون. عيون مرهقة شاحبة قلقة. كعيون حيوانات حبيسة، تنتظر يوم الذبح أو يوم الموت. تمسك واحدة من المنقبات رأسها الملفوف بالسواد بيديها داخل القفاز الأسود وتطرق إلى الأرض هامسة: ارحمها يا رب!

ترد المنقبات في نفس واحد: يا رب!

تمسك واحدة رأسها بيديها وتجهش بالبكاء.

يضيء وجه واحدة من المنقبات بابتسامة مفاجئة وتقول: الإيمان بالله يا جماعة، لا شيء إلا بإرادة الله.

وتقول واحدة أخرى: استراحت من عذاب الدنيا! وقد رحمها الله، وها هي تخرج إفراج!

تضحك واحدة: تخرج إفراج بدون تصريح من السادات!

تهتف واحدة: تصريح الله فوق تصريح السادات!. والله أكبر!

ويهتفن في نفس واحد: الله أكبر!

وفي الليل يتكرر النداء. «يا سهارة الليل!» ربما هي واحدة أخرى مريضة تموت.. أو أم تضع مولوداً، ويختلط النداء بالصراخ والبكاء... ثم يسود الصمت في النهاية... نهاية الليل، وقبل أن تزحف خيوط الفجر... يقطع السكون صوت الكروان... كالنداء الطويل... أو الشهقة الطويلة المتقطعة... ويعقب الكروان صوت الآذان.. واحدة تؤذن لصلاة الفجر، ثم تنهض جميع المنقبات للصلاة... يتوضأن من الجردل أو الصفيحة إذا كان الماء مقطوعاً. يرتدين العباءات والقفازات ثم يقفن صفوفاً وراء الإمامة... وتبدأ الصلاة الجماعيّة والدعاء والابتهال والتسبيح... يلصقن جباههن بالأرض ويهتفن بصوت واحد: الله أكبر...

*

في السجن تسود ثلاثة ألوان. الأبيض والأسود والرماديّ. ثلاثة ألوان توحي بالمرض والاحتضار والموت. والمرض في السجن أسوأ من الموت. إنه نوع من الموت البطيء الطويل... أو الموت مئات المرات بدلاً من مرة واحدة.

منذ اللّحظة الأولى التي رأيت فيها طبيب السجن وعيادته قررّت ألا أمرض.

هل يمرض الإنسان بإرادته؟ نعم، وأحياناً لا، إلا أن الإنسان قد يمرض بل قد يموت بإرادته. والعكس أيضاً صحيح... قد لا يمرض الإنسان وقد لايموت بإرادته.

في صباح اليوم التالي لدخولي السجن أخذوني إلى الفحص الطبي في العيادة. إجراء ضروري في السجن لكل المسجونات الجدد أو «الإيراد الجديد». الفحص الطبي للقلب والصدر والبطن والأطراف. الطول والوزن. علامات مميِّزة في الوجه أو الرأس أو الجسم. وتلتقط صورة للمسجونة وهي واقفة ظهرها إلى الجدار على صدرها لوحة نحاسية تحمل رقمها وبصمات يدها.

توضع الصورة مع البصمات مع أوصاف الرأس والجسم والطول والوزن في دوسيه بالعيادة الطبيّة ونسخ أخرى في دوسيه آخر بإدارة السجن، ووزارة الداخلية. أخذتني الضابطة والشاويشة إلى العيادة الطبية في ذلك المبنى المتّسخ الذي يسمونه المستشفى. في الطريق إلى غرفة الطبيب مررت بعنبر الدرن، وعنبر الجرب، وعنبر الأمراض المعدية الأخرى. الوجوه الناحلة الشاحبة والأجساد الذابلة، ممدودة على الأرض. البصاق المدمم، والرائحة العفنة، والأربطة البيضاء المسودة بالتراب والصديد والدم.

وأمام باب العيادة طوابير المسجونات الجدد، واقفات ينتظرن الفحص الطبي. أجساد هزيلة بالجلابيب البيضاء متراصة في صفوف متلاصقة متهالكة... وجوه صفراء عيون زائغة... أنفاس متقطعة..

تذكرت السنين البعيدة في مستشفى قصر العيني، والمستشفيات المجانية في وزارة الصحة. الطوابير هي الطوابير. الوجوه هي الوجوه. الشحوب هو الشحوب.. بل والشتائم نفسها تنطلق من أفواه الطبيب والحكيمة والممرضين.

إلا أنهم هناك كانوا أحسن حالاً من هنا. هناك بعد الانتظار الطويل يعودون إلى بيوتهم وفي أيديهم زجاجة من الدواء. مزيج من الراوند والصودا أو أي مزيج آخر... أسود أو أبيض... لا يشفي مرضهم، وقد يصيبهم بمرض آخر.. لكنهم في النهاية يعودون إلى بيوتهم وأهلهم.

لكن هنا، لا عودة إلى البيت أو الأهل. هنا الانتظار الطويل ليل نهار، وصيف شتاء، بغير عودة، وبغير بيت، وبغير أهل.

هنا الشتائم فقط، ولا نهاية للشتائم إلا الركلات بالقدم، وزنازين التأديب..

هنا المرض ولا شفاء ولا دواء إلا أقراص بغير اسم وبغير لون تلفها الممرضة بأصابعها المسودة في قطعة ورق من ورق التواليت أو الجرائد القديمة، أو لا تلفها على الإطلاق، وتلقي بها في يد المسجونة أو في حجرها...

ومع ذلك كان الخروج إلى المستشفى حلماً جميلاً لا يتحقق. لم تكن المستشفى تبعد عن عنبرنا أكثر من أربعين متراً. لكنها أربعون متراً في فناء السجن الواسع. وكان ممنوعاً أن نخرج إلى الفناء أو نسير فيه متراً واحد.

وحينما تمرض واحدة من الزميلات فإنها تبلِّغ الشاويشة. وتذهب الشاويشة لتبلِّغ الضابطة وتذهب الضابطة لتبلغ المأمور. ويبلغ المأمور ضابط المباحث.

إذا رأى ضابط المباحث أن الأمر يستدعي فحص الطبيب أصدر أمراً إلى طبيب السجن بالتوجّه إلى عنبر السياسيات. وقد يحضر الطبيب فوراً، أو بعد الانتهاء من عمله بحسب الظروف.

أول مرة دخل العنبر لم أعرف أنه طبيب. أو أنه كان زميلاً لي في الكليّة. ملامحه بدت غريبة كأنما أراها لأول مرة. تشبه ملامح رجل البوليس. وملابسه أيضاً بوليسية. أول مرة أرى طبيباً يرتدي الملابس البوليسية.

هل تغير الملابس من ملامح الإنسان؟ أو لعلّها الوظيفة أو الحياة داخل السجن مع رجال البوليس تشكّل ملامح الشخصيّة، وتجعل لزملاء المهنة الواحدة ملامح متشابهة.

لكنه ما أن بدأ يتكلّم ويمشي أمامي في العنبر حتى تذكرته. كان زميلاً لي في كلية الطب منذ خمسة وعشرين عاماً تقريباً. له صوت مميَّز، أخنف، متوسط الخشونة ينتهي بشهقة في آخر كل جملة. وحين يمشي يحرك ذراعاً واحدة إلى الأمام وتظل الذراع

الثانية ملتصقة بجسمه. طويل نحيل أبيض، ونظارة بيضاء، وحقيبة كتبه منتفخة دائماً، يضعها فوق ركبتيه وهو جالس في المدرج، رأسه منكفىء فوق الكشكول، والقلم في يده يتحرك بسرعة، أسرع من حركة شفتي الأستاذ، فإذا ما فاته كلمة مما يقوله الأستاذ رفع رأسه من فوق الورقة، عيناه جاحظتان حائرتان، وشفتاه تتهدلان، ويتلفت حوله كغريق يطلب الإنقاذ.

ولم يكن يغير مكانه. يحجزه قبل موعد المحاضرة بحقيبة كتبه. المقعد الأول في الصف الأول أقصى اليمين بجوار الممر القريب من الباب. وما أن تنتهي المحاضرة حتى يقفز من مقعده إلى الممر، ومن الممر إلى الباب ليجري في فناء الكلّية ويدخل إلى المشرحة أو المعمل أو المدرَّج الآخر ليحجز لنفسه المقعد الأول في الصف الأول بجوار الباب.

لم تكن حقيبته تفارقه أبداً. إما على ركبتيه في المدرج إذا كان إلى جواره زميل. وإذا كانت إلى جواره زميلة وضع الحقيبة بينه وبينها. وفي المشرحة أو المعمل تستقرّ الحقيبة بين ساقيه، أو على الأرض بين قدميه.

وكان يحفظ المحاضرات عن ظهر قلب كأنها القرآن. وإذا سأله أي زميل عن موعد محاضرة رد قائلاً: إن شاء الله ستكون يوم كذا الساعة كذا بإذن الله. وفي كل عبارة ينطقها يبدأها بعبارة إن شاء الله وينهيها بعبارة بإذن الله. وفي يوم سأله أحد الزملاء: كم الساعة يا صابر؟ فرد عليه قائلاً: إن شاء الله الساعة عشرة. ومنذ ذلك اليوم أطلق عليه الزملاء اسم «صابر إن شاء الله».

ثم ضبطوه يوماً متلبساً بجريمة الجلوس في المقاعد الخلفية بالمدرج، ولأول مرة لا يرون إلى جواره حقيبته وإنما زميلة من الزميلات، جالسة إلى جواره دون أي مسافة أو فاصل. وبدأت الكلية تتحدث عن قصة حبه الغريبة، وتلك الزميلة التي جعلته يتخلى عن مقعده في الصف الأول، بل عن دينه المسيحي أيضاً. أعلن إسلامه وتزوجها.

قلت بدهشة وذلك الفرح حين ألتقي بزميل من زملاء الدراسة: أنت صابر برسوم؟ ورأيت ملامحه تتقلّص كملامح رجل البوليس وقال بكبرياء وغطرسة: أنا الدكتور صابر برسوم!

ذلك اليوم كانت إحدى المنقبات مريضة، وأصرّت على أن يفحصها دون أن تخلع العباءة أو النقاب. حاول أن يقنعها بأنه لا يستطيع أن يفحصها إلا إذا كشفت عن صدرها وبطنها. لكنها رفضت بإصرار، فالتفت نحوي وقال: حاولي أن تقنعيها يا نوال.

وقلت: إسمي الدكتورة نوال وليس نوال!

كنت أشفق عليه وهو طالب. أما الآن فأنا أرثي لحاله. سمعت عنه من المسجونات قصصاً كثيرة، ومن الشاويشة أيضاً. كيف يصبح طبيب السجن أداة بوليسيّة للقهر والإيلام والتشويه؟ حين يستخدم الطب والجراحة للانتقام أو للعقوبة! حين يقبل المال من أجل منح إجازة مرضية أو عدم منحها! حين يكون طبيب السجن أشد خطورة من الجلّاد! فالجلاد يضرب ويعذب فحسب، لكن الطبيب يمكن أن يبتر الذراع أو الساق. يمكن أن

يستأصل العين. يمكن أن يشوّه العقل بأقراص سامة. يمكن أن يفعل أي شيء في المسجون أو المسجونة دون أن يكتشفه أحد.

سمعنا عنه حكايات كثيرة من هذا النوع. كنا نراه وهو يسير في فناء السجن يغازل بنات الدعارة بكلمات نابية. اتفقت كل الزميلات في العنبر على طرده لو دخل إلينا، وقالت الزميلات للمأمور: معنا طبيبة في العنبر، لماذا لا تعطوها الأدوات اللازمة بدلاً من أن يأتي إلينا مثل هذا الطبيب؟!

وقلت للمأمور: أنا مستعدة أن أمارس عملي كطبيبة وسط زميلاتي في العنبر، ووسط السجينات الأخريات في العنابر الأخرى، خاصة في الليل حين ينام الطبيب. لكن إدارة السجن رفضت. فأنا في السجن مسجونة ولست طبيبة. والمسجون داخل السجن يفقد مهنته ضمن ما يفقد. يفقد إنسانيته وآدميته وحريته واسمه فما بال مهنته!

وفي يوم أصيبت إثنتان من الزميلات بالجرب. عرفت المرض على الفور وطلبت لهما العلاج والعزل عن بقية الزميلات حتى لا ينتشر المرض. وجاء إلينا طبيب شاب لم نره من قبل وأيّد التشخيص وكتب لهما علاج الجرب. لكن العزل لم يحدث وبدأت جميع الزميلات يهرشن.

ولم نعرف ما الذي حدث. سمعنا إشاعات عجيبة تقول إن بعض المسؤولين في السجن وجهوا اللوم إلى الطبيب الشاب. كيف يعلن لنا أن المرض هو الجرب! كان المفروض أن ينفي

التشخيص أو يكذب علينا ويقول إنه مجرد هرش جلدي عادي، أو لدغات ناموس أو بق، أو أي شيء إلا الجرب! ماذا يحدث حين تتسرب الأخبار إلى الخارج ويعرف الجميع أن السجن موبوء بالجرب والأمراض المعدية؟! التقارير الطبية التي يكتبها الدكتور صابر برسوم تقول إن السجن نظيف وليس به أي أمراض أو أوبئة.

وأختفى الطبيب الشاب. وسمعنا أنه نقل من السجن إلى مكان آخر. وجاءنا الدكتور صابر برسوم غاضباً. نظر إلى أصابع الزميلتين المريضتين وقال بصوت حانق: من قال إن هذا جرب؟! هذا ليس جرباً... هذا مجرد التهاب جلدي عادي!....

واقتربت منه... ونظرت في عينيه الجاحظتين... ثبّت عينيّ في عينيه وقلت: أنا طبيبة وأعرف أن هذا جرب وليس إلا الجرب... وقد أيّد تشخيصي طبيب شاب اختفى ولم نعرف ماذا حدث له. إذا كنت أنت تخاف من وزارة الداخليّة أو من إدارة السجن فنحن لا نخاف. ونحن لن نسكت على الوضع. إن صحتنا مهدَّدة، وأنت طبيب السجن... المفروض أن ترعى صحتنا لا أن تخدعنا. إن تصرفك هذا يتعارض مع القسم الذي أقسمته على نفسك أمام نقابة الأطباء. أنت تخرق قانون نقابة الأطباء وقانون مهنة الطب وقانون الإنسانيّة....

وصاحت واحدة من المنقبات: أنت لست طبيباً! أنت جلّاد!

وهتفت أخرى: ألا تعرف ماذا تقول عنك المسجونات؟ ألا

تعرف اسمك الحقيقي في هذا السجن؟!

كانوا يسمونه صابر برسوم بسيجارة! ولم نفهم أول الأمر ماذا يعني هذا الاسم. لكن الشاويشة نبوية شرحت لنا قائلة: يمكن أن يكتب أي تقرير طبيّ! ليس عنده ذمة أو ضمير! ربنا يكفينا شره! مقابل رشوة صغيرة أو «سيجارة» يوقّع على إجازة مرضيّة!

وأصبح صابر برسوم يخشى الاقتراب من عنبرنا. وإذا بلغت إحدى الزميلات أنها مريضة أرسل إلينا طبيباً آخر. وفي يوم رأيناه يدخل العنبر فطردناه جميعاً في نفس واحد. رأيته وهو يجري خارج العنبر يلوذ بذراع الممرضة. وقدم صابر برسوم شكوى ضدنا لإدارة السجن. وتكلّمت جميع الزميلات ضده. وسألني ضابط المباحث عن رأيي فقلت: نحن لا نثق فيه والأفضل أن ترسلوا إلينا طبيباً آخر أو لا ترسلوا أطباء على الإطلاق.

ولم نعد نرى صابر برسوم. قابلته صدفة بعد أن خرجت من السجن فأطرق برأسه واختفى. تذكرته حين كان طالباً بالكلية.... يدوس على أقدام الطلبة والطالبات وهو يجري ليحجز المقعد الأول في الصف الأول بجوار الباب.... رأسه ينكفىء فوق الكشكول، والقلم في يده يتحرك بسرعة، أسرع من حركة شفتي الأستاذ، فإذا ما فاتته كلمة مما يقوله الأستاذ رفع رأسه من فوق الورقة، عيناه جاحظتان حائرتان، وشفتاه تتهدلان، ويتلفت حوله كغريق يطلب الإنقاذ.

*

أجلس على أرض الحوش الترابيّ. أصابعي حول قطعة من الطوب لها بوز مدبب. أكتب بها على الأرض حروف اسمي. أتأمل شكل الحروف. أتأمل نفسي. من أنا. السجينة رقم ١٥٣٦. جردوني من كل شيء حتى اسمي. لكني أفضل نفسي. أفضل أن أكون «السجينة» داخل هذا السجن عن أن أكون «طبيبة السجن»... عن أن أكون الدكتور صابر برسوم أو أي دكتور آخر.

منذ دخلت كلية الطب وأنا أشعر بالاغتراب وسط هؤلاء الرجال ذوي العيون الجاحظة والحقائب المنتفخة والجفون المتورِّمة والعيون الحمراء، يحفظون المحاضرات طول الليل عن ظهر قلب، ويدوسون على أقدام غيرهم ليحجزوا الصفوف الأولى، يلهثون جرياً من المدرَّج إلى المشرحة، ويمسكون المشرط في يد، وفي اليد الأخرى يمسكون «ساندويتش». يختصرون وقت الطعام ووقت النوم. ولا همّ لهم إلا الحفظ وليس أمامهم إلا شبح الامتحان. وما أن ينتهي الامتحان حتى تتسرب المعلومات المحفوظة من الذاكرة... ويصبحون أطباء.... في الجامعة وفي وزارة الصحة وفي وزارة الداخلية وفي السجون... وفي العيادات الخاصة. ينظرون إلى جيب المريض قبل أن يشخصوا المرض. يضعون الجنيه فوق الجنيه في درج المكتب داخل العيادة... ثم يموتون بالسكتة القلبية... ولا أحد يذكرهم... لا يتركون وراءهم شيئاً ثميناً... ويرث عنهم أولادهم أو زوجاتهم بعض العمارات أو بعض

الدكاكين. . . . أو مساحات كبيرة من الأرض والطين. . . . لكن لا أحد يذكرهم. . . . حتى أولادهم أو زوجاتهم. . . . ينشغلون بالميراث الكبير أو بمشروع الزواج الجديد.

منذ أصبحت طبيبة وأنا أشعربالاغتراب وسط هذا النوع من الأطباء. كأصحاب الدكاكين يبيعون الصحّة والعلاج لمرضى لا يملكون ثمن الطعام. يرشق الواحد منهم السيجار الأسود الضخم بين شفتيه ويتكلم من طرف أنفه كإله. مع أن تشخيصه في بعض الأحيان خطأ. قد يموت المريض وقد ينقذ بحسب الحالة. . وسواء مات أو عاش فالثمن لا بد أن يدفع مقدّماً أو مؤخراً.

أي مهنة هذه؟ وهل يمكن أن تكون هذه المهنة هي مهنتي؟! هل يمكن أن أضع الجنيه فوق الجنيه في درج مكتبي داخل العيادة، ثم أموت بالسكتة القلبية، ولا أخلف ورائي شيئاً ثميناً! هل أعيش وأموت ولا أترك لأولادي والناس من بعدي إلا رقعة كبيرة من الطين يتنازعون ملكيتها؟!

منذ الطفولة وأنا أريد أن أعيش ثم أموت وأخلّف ورائي شيئاً ثميناً، ما هو؟!

*

سؤال أقلّبه في رأسي. أصابعي تنخل التراب. ملمس التراب فوق يدي يذكّرني بطفولتي. . في قريتنا. . . كنت أحب اللعب في التراب. أصبّ الماء على الأرض وأحوّل التراب إلى عجينة طرية. أحول العجينة إلى رأس إنسان. أصنع فيها بإصبعي ثقبين

يشبهان عينيّ جدتي. أنظر داخل العينين وأضحك مع الأطفال. ندفن الرأس في التراب ونسقيها بالماء. . . . ثم نعود إليها في الصباح فإذا بعود أخضر يخرج من كل عين.

عينا جدتي كانتا بلون الزرع. ورثت لون عينيها من أبيها الغزاوي. نزح من غزة إلى كفر طحلة، وزوّجها لصبي فلّاح اسمه «حبش»، اسم أبيه الذي نزح من الحبشة إلى مصر وهو في بطن أمه.

كانت طويلة فارعة القامة. لها شمخة وارتفاعة رأس تنم عن كبرياء ريفي بدائي. لم يكن يعجبها رجل ولا امرأة في الكفر. ولا حتى زوجها. كان ضعيفاً مريضاً. يبول الدم مع البول ومات وهو شاب. لم تبك عليه. ربطت رأسها بمنديل أسود وأقسمت ألا يكون ابنها فلاحاً. باعت خلخالها الفضيّ، مهر زواجها، وربطت بطنها بالحزام، حرمت نفسها من الأكل ووضعت القرش فوق القرش. وتجمع في يدها تذكرة القطار ومصاريف المدرسة وأرسلت ابنها الوحيد إلى القاهرة ليتعلم. بناتها الست بقين معها في الكفر، وتزوجن رجالاً فلاحين فقراء يزرعون بأيديهم، ويبولون الدم مع البول.

وحين يعود ابنها في الإجازة الصيفيّة ومعه شهادة النجاح والتفوق تسأله: كم ترتيبك في الفصل؟ ويقول لها: الثاني. تهتف وهي تضرب بكف يدها: ولماذا لا تكون الأول؟ هل الأول أفضل منك؟ ألم تلده بطن مثل بطني هذه؟!

تحكي لي جدتي وهي تخبط بطنها بكفها وتضحك قائلة:

هي مرة واحدة، ومن بعدها أصبح أبوك الأول دائماً!

رفعت أصابعي من فوق التراب، ونظرت إلى أعلى. رأس تشبه رأس جدتي مربوطة بمنديل أسود. لكن الملامح مختلفة. والصوت مختلف. الزمن أيضاً مختلف.

يختلط عليّ الزمن فلا أعرف هل أنا الطفلة التي تلعب في التراب أم المرأة المحبوسة داخل السجن. طفولتي وشبابي وجميع مراحل عمري كأنما التحمت في زمن واحد. أو كأنما ليس هناك زمن.

أتأمل أصابعي. أبسطها أمامي في الفضاء. تشبه أصابعي وأنا طفلة. والتراب يشبه التراب الذي كنت ألعب فيه. الرائحة نفسها. واللون. والملمس فوق يدي. والماء أصبه فيصبح التراب عجينة من الطين. أملأ كفي بماء القناة الصغيرة أو الترعة.

في يوم خلعت ملابسي ونزلت إلى الترعة لأسبح مع الأطفال... ثم بدأت مثلهم أنزف الدم مع البول.

رأت أمي البول الأحمر فصاحت في ذعر: مرض البلهارسيا!!

ضحكت جدّتي قائلة: لا «هارسا» ولا حاجة! البول الأحمر دليل الصحة والعافية! كل الفلاحين بولهم أحمر!

ذهبت إلى الطبيب، وأعطاني إثنتي عشرة حقنة في الوريد: اختفى اللون الأحمر وعاد إلى البول لونه القديم الأصفر الباهت.

*

رفعت رأسي من فوق التراب، رأيت وجه جمال عبد الناصر... بشرته سمراء برونزيّة... عيناه نافذتان لامعتان... جالس على المنصّة الكبيرة في المؤتمر الوطني للقوى الشعبية سنة ١٩٦٢، وعن يمينه وعن يساره وجوه صارمة مشدودة كأنما بالأسلاك.... ورنّ صوت في الجو يسأل: من هو الفلّاح؟

ساد الوجوم. طال التفكير والتأمل والتحليل. هرشوا رؤوسهم. أحضروا المراجع والقواميس. تصبب العرق من وجوههم كأنهم في امتحان صعب. ثم تسابقوا في الإجابة كالتلاميذ... يتكلّمون في صوت واحد. يقاطعون بعضهم بعضاً. يهاجمون بعضهم بعضاً. يتهمون بعضهم بعضاً بعدم معرفة الإجابة الصحيحة، أو عدم فهم السؤال.

ما هو السؤال؟

ويتكرر السؤال. من هو الفلاح؟ وتعود المباراة من جديد. يتسابقون للوصول إلى التعريف الصحيح أو التعريف المطلوب. يتخبطون. يتدافعون بالأيدي والأذرع. يدوس بعضهم على أقدام البعض ليصلوا إلى المقاعد الأمامية... يرفعون أصواتهم بكل حدّة ويضغطون على مخارج الألفاظ. يضعون النظارات ويفحصون الكتب والمراجع ويطوفون بالمكتبات ودار الكتب في باب الخلق. يتسابقون في تشكيل لجان البحث والدراسة. يجلسون ويدخنون ويضعون ساقاً فوق ساق ويتساءلون: ما المطلوب؟

ويتكرّر السؤال: من هو الفلّاح؟... وتبدأ المسابقة وتعود الدائرة المفرغة لتدور!

كنت جالسة في القاعة الفسيحة أرقبهم. بعضهم خلع البدلة وارتدى جلباب الفلاّحين... أصابعهم ناعمة لا تشبه أصابع من يمسكون الفؤوس... شفاههم متورِّدة تهتز بينها أنواع فاخرة من السجائر... وكلماتهم العربية تتخلّلها أحياناً اصطلاحات أجنبية...

وجاء دوري للكلام. وجّهوا إليَّ السؤال. من هو الفلّاح؟ قلت: الفلاح هو الذي بوله أحمر.

دبّ الصمت والوجوم. تعكرت الوجوه لحظة... ثم تحركت الرؤوس واستداروا نحوي. كنت أجلس في الصفوف الخلفيّة... شابّة صغيرة مجهولة بلا منصب ولا لقب ولا عائلة ولا شلة!

رمقوا حذائي القديم، وكعبه المتآكل. أدركوا أنني لا أملك سيارة. ولا أجرة التاكسي. ولا ثمن حذاء جديد...

على قصاصة ورق؛ وبالقلم «الباركر» استقرت ثلاث كلمات إلى جوار اسمي الثلاثي: تجرؤ غير مطلوب!

ومنذ ذلك الحين أصبح الاسم في القائمة السوداء، ودخل في ملف أصفر بوزارة الداخلية.

*

رفعت الشاويشة عينيها الصغيرتين. رأيت فوقهما سحابة بيضاء، شفافة كالدموع. جالسة في الحوش الترابيّ فوق البطانية كعادتها. لكنها صامتة على غير العادة. وجهها أشد شحوباً

وذبولاً عن كل يوم. وحين دخلت فتحية القنالة بالصينية لم تمد يدها إلى الطعام.

صاحت فتحية: مالك يا شاويشة؟

كأنما كانت تنتظر السؤال، فانهمرت الدموع الحبيسة. مسحتها بكم معطفها الرماديّ الأجرب ثم قالت:

طول الليل ساهرة إلى جوار ابني المريض. جاء الدكتور وقال لا بد من عملية جراحية لاستئصال «الكلية» اليمين. طلب خمسين جنيهاً قبل العملية وخمسين بعدها.

ردّت فتحية: خمسين خمسين وماله. الفلوس في داهية!

وقالت ذوبة: الغالي يرخص من أجل الولد!

ردت الشاويشة: الفلوس موجودة والحمد لله، لكن المشكلة ليست الفلوس... المشكلة العملية... أنا خائفة من العملية... العملية صعبة.

والتفتت نحوي الشاويشة وقالت: ما رأيك يا دكتورة؟

قلت: العملية ليست صعبة.. لكن هل فحص الدكتور الكلية الأخرى؟

زاد وجهها شحوباً كأنما أختفى منه الدم وقالت بصوت خائر: الكلية الثانية ليست سليمة... هذه هي المصيبة. ومسحت دموعها بكفها... وقالت: الدكتور قال إننا تأخرنا في العلاج.. لكن الولد كان كويس. طول عمره بوله أحمر. لم أكن أعرف أنه

الدم.. أتظنين أنه سيموت يا دكتورة. أليس هناك أي أمل.

قلت: الأمل دائماً موجود، لأن أي جزء صغير من الكلية يمكن أن يشتغل ويعوِّض الأجزاء الأخرى.

قالت: ربنا يطمنك يا دكتورة... أنا طول الليل والنهار أفكر... إنه ابني ابني البكري الوحيد، وكان يساعدني منذ موت أبيه في الجري وراء رزق إخواته.

قالت فتحية: اتركي أمرك إلى الله ولا تفكري يا نبوية، الفكر يقتل القلب...

تنهدت ذوبة: الواحدة منا لازم تنسى أن لها قلباً.

قالت فتحية: لكن «الضنا» غالي!

شوحت ذوبة بيديها: الغالي يرخص في السجن!

صاحت فتحية في غضب: اسكتي يا بت يا ذوبة اسكتي! الغالي يفضل غالي... والرخيص يفضل رخيص. والأم ضناها غالي. أغلى من حياتها. أنا قتلت من أجل بنتي هنية. أنا دخلت السجن مؤبد من أجل عيونها. رميت نفسي في الهلاك من أجل خاطرها. أنا أعيش لها، وأنام وأصحو بأمل أن أخرج وأراها وأضمها في صدري. لولا هي أنا كنت مت من أول يوم دخلت فيه السجن!

وقالت ذوبة: وماذا استفادت هي؟ أبوها قتل وأنت أمها دخلت السجن، وهي بقيت وحدها بدون أحد يرعاها!

أطرقت فتحية رأسها إلى الأرض وظلت صامتة واجمة... عيناها شاردتان حزينتان... ثم همست بصوت خافت كأنما تكلم نفسها: صحيح... ماذا استفادت هي. لا شيء.. خسرت أمها وأباها في يوم واحد.. لكني لم أكن أفكر فيها حين قتلته... كنت أفكر... كنت أفكر في ماذا؟ لا أعرف! ربما لم أكن أفكر؟ توقف عقلي من الصدمة حين رأيته فوقها!

كانت «فوقية» قد خرجت من العنبر إلى الحوش وجلست إلى جوار فتحية، فقالت بصوتها القويّ ضاغطة على مخارج الألفاظ وكأنها تلقي خطبة أو تصرِّح بحقيقة علمية لا يتسرَّب إليها شك: إنها صدمة نفسية لا شك، وسببها طبيعة المرأة العاطفية وغيرة الزوجة على زوجها حين تراه في هذا الموقف؟ كنت تغارين على زوجك لا شك! وصاحت فتحية القتالة: أنا لست مثلكم يا نساء البندر، ولم أعرف هذه الغيرة على زوجي. أنا التي بحثت له عن زوجة أخرى لتلد له ولداً، ولتساعدني في أعمال الحقل والدار! لو رأيته مع أي امرأة ما كنت قتلته لكن مع ابنتي! ابنتي حبة عيني، كبدي، قلبي، لكن زوجي...! الزوج مهما كان راجل غريب...

هتفت واحدة من المحجبات في دهشة: زوجك رجل غريب عنك؟!

شوّحت فتحية القتّالة بيدها قائلة: طبعاً غريب!.. لا من لحمي ولا من دمي!.

لكن ابنتي من لحمي ومن دمي.

وضحكت ذوبة في سعادة: والنبي كلامك صحيح يا ماما فتحية! أنا طول عمري أحس أن زوجي رجل غريب عني... لولا ورقة الزواج! لكن ماذا نفعل؟ ربنا أراد لنا الزواج... وربنا أراد لنا السجن...

وردّت فتحية القتّالة: كله بإرادة ربنا حتى القتل!

هتفت واحدة من المحجبات: أستغفر الله العظيم... ربنا لم يقل لك أن تقتلي... استغفري ربنا وقولي توبة يا رب! واندمي على جريمتك!

شوحت فتحية بيديها بغضب: اندم؟! أبداً! لا يمكن أندم! والله لو رأيته أمامي الآن لقتلته مرة أخرى!

وضحكت الشاويشة: أصلها قتالة بنت قتالة!

وقالت «فوقية» بصوت يشبه الوعاظ: لو لم تقتلي لكنت الآن خارج السجن مع ابنتك الصغيرة التي تحتاج إلى رعايتك وتربيتك. أليس الأفضل أن تربي ابنتك بدل دخول السجن؟!

وانتفضت فتحية واقفة وصاحت: وأنت يا ست فوقية أليس الأفضل أن تربي أطفالك بدل دخول السجن؟! على الأقل أنا دخلت السجن من أجل ابنتي... وأنت لماذا دخلت السجن؟!

وصعد الدم إلى وجه «فوقية» وقالت بغضب: أنت دخلت السجن لسبب خاص بك... لسبب أنانيّ، فرديّ، ولكني دخلت السجن من أجل الوطن والفقراء من الشعب!

وقالت ذوبة: وأولادك من يربيهم ويرعاهم؟!

وصاحت فوقية: ربنا يرعاهم! ربنا موجود!... ثم تداركت: ربنا موجود لكن الأطفال مشكلة لأي أم تريد أن تخدم الوطن. إنها تتمزَّق بين واجبها نحو أطفالها وواجبها نحو وطنها. وفي رأيي أن الواجب الوطني قبل أي واجب آخر. وصاحت «بدور» من داخل العنبر: الواجب الديني نحو الله والرسول قبل أي واجب آخر! الله قبل الوطن!

وهتفت فتحية القتالة: افتحي لي الباب يا نبوية، أنا عندي شغل. أنا امرأة فلّاحة ولا أعرف في هذا الكلام. أنا قتلت... ومعترفة أني قتلت... قتلت زوجي لأجل نفسي... لأجل أن أنقذ نفسي من العيشة مع رجل ظالم. ظلمني طول عمري. خدمته خدمة العبد للسيد. ولا عمره قال لي كلمة حلوة. حياتي معاه كانت سوداء من أول يوم لآخر يوم... وكل يوم أفكر أني أقتله، لغاية ما رأيته مع بنتي هنية... الإنسان لا يمكن يقتل بسهولة أو في يوم وليلة... أنا عشت طول عمري معه أفكر في قتله! افتحي لي الباب يا نبوية أنا عندي شغل!

قذفت لها الشاويشة بالمفتاحين وهي تقول: قتالة بنت قتالة... كل من دخل السجن عرف الندم إلا أنت يا فتحية! وضحكت فتحية وهي تتلقف المفتاحين في حجرها: ولماذا أندم؟ حياتي في السجن أفضل من حياتي مع ذلك الرجل!... ماله السجن؟! السجن للجدعان! ولأجدع النسوان!

وأطلقت ضحكة عالية رنّانة وهي تفتح الباب وتنطلق إلى فناء السجن الواسع.

*

خطواتها ثابتة قوية. شمختها وارتفاعة رأسها وهي تمشي تدقّ الأرض بكبرياء. ملامحها وحركاتها التي تشبه ابنة عمتي.

طبيعية وبدائية كالأرض. صلبة كالأرض. صوتها واضح قويّ، صريح قاطع كالسكين. عيناها تلمعان. ضحكتها تجلجل في الحوش الترابي..

أنظر إلى أصابعها السمراء القوية ويخيَّل إليّ أنها تشبه أصابعي. وقلبي يخفق كأنما بالقوة نفسها التي يخفق بها قلبها. وعيناي تلمعان بالبريق نفسه. ويدي وهي تمسك القلم كأنما تشبه يدها حين أمسكت الفأس وضربت.

كأنما كنت أضرب بالقلم رأساً أسود فاسداً. أراد أن يغتصب حريتي وحياتي. أن يشوّه نفسي الحقيقية. أن يفرض عليّ أن أبيع عقلي، وأقول نعم حين أريد أن أقول لا.

*

أصابعي ترسم فوق التراب، حروفاً ودوائر متداخلة. يدي ترتعش بالغضب. دقات قلبي تسرع. لو لم تعرف أصابعي القلم ربما عرفت الفأس. القلم أثمن شيء في حياتي. كلماتي فوق الورق أثمن من حياتي. أثمن من أولادي أثمن من زوجي. أثمن من حريتي.

أفضل مكاني في السجن عن أن أكتب شيئاً لا ينبع من عقلي. الكلمة الصادقة تتطلب شجاعة مثل شجاعة القتل وربما أكثر.

أصابعي تنقش الحروف على التراب. أتأمل الكلمات التي

تدور في رأسي ما بدا لي يقيناً منذ لحظة أراه الآن محاطاً بضباب الشك. لا أعرف حتى الآن لماذا أنا داخل السجن. لم أر محققاً ولا وكيل نيابة ولا محام. سمعت الشاويشة تقول إنها سمعت أنهم يقولون إنني دخلت السجن بسبب كتاباتي.... جريمتي إذن تدخل ضمن جرائم الرأي.

هل الرأي الحرّ جريمة؟! إذن فليكن السجن هو ملاذي الوحيد ومصيري الأخير!...

لكن هل يستحق الرأي الحرّ عناء السجن؟! التعب والجوع والمرض والحياة القاسية في ذلك العنبر كالقبر؟ أبي وأمي وأهلي ومعارفي كلهم تصوروا أنني سأكون أنبغ طبيبة وأعظم أديبة... أنني خلقت للنجاح والوصول إلى القمة... وكان يمكن أن أكون كذلك. أن أحصل على أكبر منصب وأكبر لقب، وأعيش في قصر، وأملك يختاً، وأتزوج أميراً، أو حاكماً كبيراً!

لكني منذ الطفولة أكره الحكام والسلطة، منذ رأيت أمي تثور على أبي، حين رفع صوته عليها، ومنذ سمعت أبي يلعن الملك والحكومة والإنجليز.

كنت طفلة وتصوَّرت أمي أنني لا أرى ثورتها، وظن أبي أنني لا أفهم ما يقول، أو أنني سأنساه حين أكبر... لكني لم أنس!

*

علمتني أمي الكتابة وأنا طفلة... أمسكت يدي في يدها وكتبت الحرف وراء الحرف. حروف اسمي مرسومة أمامي على

أرض الحوش الترابيّ كخطي وأنا طفلة. اسمي ثم اسم أبي ثم اسم جدي والد أبي، الاسم الثلاثي الرسمي، كتبته لأول مرة في حياتي على كراسة المدرسة. كنت طفلة، وبدا لي الاسم غريباً وخاصة اسم جدي والد أبي: هذا الرجل الغريب الذي مات قبل أن أولد لماذا يكون اسمه جزءاً من اسمي؟!..

شطبت على اسمه بالقلم وكتبت اسم أمي إلى جوار اسمي.. ثم اسم أبي... ثم اسم أختي وأخي... جاءت المدرّسة وشطبت كل الأسماء من جوار اسمي. لم تترك إلا اسم أبي واسم ذلك الرجل الغريب الذي لم أره في حياتي.

منذ الطفولة وأنا أكره اسم جدي الملتصق باسمي دائماً. لكن أمي كنت أحبها وأحب اسمها «زينب»، وما أن تستدير المدرّسة وتعطيني ظهرها حتى أشطب اسم جدي وأكتب اسم أمي.

حرّكت أصابعي فوق التراب ومسحت الاسم. في حلقي لعاب مر. لم آكل شيئاً منذ الأمس. رأيت الصرصار ممدوداً في الصحن. أشعر بظمأ وجوع شديدين. في خيالي شيء يلوح في الضوء. صحن نظيف وقطعة من اللحم المشوي وطماطم حمراء... إلى جواره كوب من الماء المثلج الرقراق!

أحرّك لساني الجاف في حلقي وابتلع العلقم. أحرك رأسي ناحية باب العنبر. ألمح سريري. اللوح الخشبيّ معلّق بين عمودي السرير. كيف أنام طول الليل على هذا اللوح دون أن أقع؟!

في مؤخرة رأسي شيء أبيض كالضباب. ملاءة بيضاء نظيفة مشدودة فوق سريري في غرفة نومي... وجه زوجي... وجه ابنتي... وجه ابني...

وبسرعة انقطع الضوء واختفت الصورة. قلبي ثقيل، يتراكم فيه اللعاب المر. معدتي خالية خاوية. أحسها تحت يدي كالدمل. يدي تكاد تنفذ إلى عظام ظهري، وألم عميق كالجرح القديم ينبض تحت كفي.

والآن أتشكك من كل شيء. ما جدوى الكتابة؟ حروف ميّتة فوق الورق. ولمن أكتب؟ ومَن يقرأ؟ هل ارتفع صوت واحد حين دخلت السجن؟!

رنّت ضحكة ساخرة، وصوت خشن ساخر يأتي من بعيد: نحن في بلاد متخلّفة يحكمها فرد واحد كالإلّه الواحد. إذا أطعته وصلت القمّة وإذا عصيته دفنت في بطن الأرض!

تعرّفت على صوته. أحد زملائي الأدباء. وصل إلى القمّة وجلس عليها.

قلت له يوماً: «كيف تقول لي رأياً وتكتب رأياً آخر....
ضحك بسخرية وقال: «أتصدقين ما يقال عن الديموقراطية»؟!

قلت له: أصدّق أو لا أصدّق، فأنا أكتب رأيي ولا تهمني النتائج.

قال: أنا تهمني النتائج، إني لا أريد أن أفقد موقعي، وأريد

أن أربي أولادي وأنفق عليهم في أحسن المدارس!

صوته مازال في أذني. ومعه صوت آخر. صوت خالتي،لم تعلّم ابنتها، زوّجتْها الرجل من ذوي الأملاك. صوتها حاد يرنّ في أذني بمثل ما كان يرن وأنا طفلة: المرأة حياتها البيت والزوج والأولاد، لماذا تكابرين؟ هل أنتِ رجل؟! أصوات أخرى كثيرة ترن في أذني، كأنما تأتي من قاع الدنيا. وجسدي بارد ثقيل كأنه جثة مدفونة في بطن الأرض. عيناي غائمتان فوقهما سحابة. الظلمة من حولي كثيفة. لا أكاد أرى. لكني ألمح من البعيد ضوءاً خافتاً. نوراً يلمع كالبريق الخاطف. عينين تلمعان كالنجمين، وصوتاً يشبه صوت أمي. بل إنه صوت أمي، وعيناها تنظران في عينيّ: لو لم يزوجني أبي لأكملت تعليمي! كنت أحب القراءة والكتابة، كنت أريد أن أفعل شيئاً هاماً في حياتي وليس مجرد ولادة الأطفال كالقطط!

عيناها تلمعان كالشعلة. جسمها خفيف نشيط. ترن ضحكاتها المرحة في البيت، طويلة متقطعة كشهقة طفل، عذبة كصوت الكروان. تغرّد في الصباح حين تصحو، وفي المساء قبل أن تنام. تزوّجت أبي وهي في السابعة عشرة، وأنجبتني أنا واخوتي التسعة على مدى ثلاثين عاماً، ثم ماتت وهي في الخامسة والأربعين. ماتت وهي تمسك يدي في يدها وعيناها في عيني تملأهما دهشة... كدهشة طفل!

*

ألم كالسكّين في المثلث الصغير تحت القلب، فوق المعدة. ألم مزمن قديم منذ أمسكت أمي يدي واتسعت عيناها في دهشة ثم ماتت دون أن تمنحني اسمها. منحتني الحياة والثورة منذ الطفولة. لكن رجلاً غريباً تزوج جدتي ومات قبل أن أولد وضع اسمه على كياني.

أرادت أن تقرأ وتكتب وتغيِّر العالم لكن نهارها كان يضيع في المطبخ. تطعم تسعة أطفال وأباهم، ثم تنام لتصحو حاملاً في الطفل العاشر.

قفزت من سور الشرفة لتقتله في بطنها، ومات مخلفاً في جوفها طعم المرارة، وألماً في صدرها، في الثدي الأيمن.

وضعت إصبعها فوق الألم وقالت لي: هنا الألم ينخس كالإبرة!

تجمّدت يدي فوق ثديها. أصاب الشلل يدي لحظة. اتسعت عيناها بدهشة الطفل وهتفت: ماذا وجدت؟!

حلقي جاف. عيناي تبتعدان عن عينيها.

قلت: لا شيء! مجرد كيس دهني!

وصدّقتني على الفور. كانت تصدقني دائماً. عودتني الصدق منذ الطفولة ولأول مرة أكذب عليها.. وعلى أبي... وعلى كل إخوتي وأخواتي.

كتمت السر في أعماقي... في طيات قلبي العميقة... يؤرقني الليل والنهار... يمزّق أحشائي كسكين...

ولكن ليظل السكين في قلبي أنا... ولن أشدّه من قلبي وأغرسه في قلبها... أو قلوبهم...

أراها تضحك ضحكتها المرحة كضحكة طفل. وفي الصباح تغني... لا تعرف أن الموت قابع في صدرها... يأكل خلايا ثديها... وينتقل من خلايا الثدي إلى خلايا الرئة بسرعة دوران الدم من صدرها إلى قلبها.

ولم يكن في الطب علاج. فشل الطب وفشل العلم وعجز أساتذة الطب حتى عن تخفيف الألم...

لا بد أن تموت مغموسة في الألم....

لكن ما أن يختفي الألم لحظة حتى يشرق وجهها وتبتسم كطفل. تظن بسذاجة طفل أن الألم ذهب إلى غير عودة، وأنها ستنهض من الفراش وتسير إلى الحمام... وتغني كل صباح...

لحظة واحدة أو ابتسامة واحدة تضيء وجهها بالأمل... ثم يعود الألم يأكل جسدها الليل والنهار.... تمسك يدي في يدها وتضغط، أو تمسك يد أبي، أو يد أخت من أخواتي أو أخ من إخوتي، أو تمسك عمود السرير وتضغط... تئن بصوت مكتوم، تتحمل الألم في انتظار لحظة الأمل....

لم تعرف أنه الموت وأنه لا حياة لها ولا أمل.... لم أشأ أن أحرمها من بارقة الأمل... من الابتسامة الواحدة تضيء وجهها في لحظة خاطفة....

ولم أشأ أن أحرم أبي ولا أخوتي ولا اخواتي، من نعمة الأمل، وتوقع الشفاء.

حملت الحقيقة كالجبل. ثقيلة كالجبل. أحملها وحدي. أرى عيونهم المليئة بالأمل فأهرب بعيداً!... وحين لا يراني أحد منهم أخفي عيني وأبكي دون صوت حتى لا يسمع نشيجي أحد.

ظلت تئن بصوتها الضعيف الخائر: الموت أرحم من هذا الألم. عيناها واسعتان تتشبثان بعيني... تستنجدان بي الأيام والليالي والشهور، عشرين شهراً...

ملأت الحقنة بالمخدِّر. بكمية أكبر من كل مرة. قرَّبت الإبرة من ذراعها. عيناها في عيني. إصبعي ترتجف... حرّكت عيني بعيداً عن عينيها.... وغرست الإبرة في الوريد... ضغطت السائل في دمها....

وخطرت لي فكرة جديدة ربما هناك أمل! من يدري؟ ربما تشفى! ربما أخطأ كل هؤلاء الأطباء. ثقتي بالطب والأطباء قليلة. ثقتي بأمي أكثر. ربما تنتصر إرادتها على المرض وتشفى!

وفجأة تجمّدت أصابعي. شلّت يدي. وسقطت الحقنة على الأرض قبل أن يدخل السائل كله في جسدها.

حرّكت رأسي ناحيتها. لم أر عينيها. لم أسمع صوتها. لا شيء فيها يتحرك! تهاويت إلى جوارها أهمس في أذنها: ماما! ظللت أهمس وهي لا ترد. تلفت حولي في ذعر. خشيت أن أترك الغرفة. خشيت أن يدخل أبي أو أحد أخواتي. ربما يرون

الجريمة في عيني! ضربات قلبي مسموعة، وصوتي وأنا أناديها مريب، استعطفتها أن تصحو، ألا تموت، أن تنقذني..

دخل أبي الغرفة.. دخل اخوتي وأخواتي...

وصاحوا في ذعر: ماذا حدث؟!

قبل أن أعترف لهم بالجريمة فتحت أمي عينيها فجأة، كما كانت تفتحهما حين تسمع صوت ندائي وأنا طفلة، بل قبل أن تسمع صوتي وتدرك أنني أناديها.. ومن أعمق نوم تصحو، وتنهض من فراشها إلى سريري، تطمئن عليّ أو تغطيني...

عاشت بعد ذلك اليوم ثلاثين يوماً. خيِّل إليّ أنها عاشتها لمجرَّد أن تحميني... أن تنفي التهمة... لتؤكد لي أنها ماتت وحدها، وترفع عن قلبي عبئاً أو ندماً قد يقتلني.

*

رفعت عيني من فوق التراب. عينا ضابط المباحث ترمقانني في ريبة: ماذا تكتبين؟ حملق في الأرض طويلاً. لم يفهم شيئاً. حروف ودوائر متداخلة...

ظل واقفاً أمامي طويلاً يفحص بعينيه أرض الحوش الترابي. رأى الأعواد الخضراء الرفيعة تنبت من بطن الأرض. وفي الركن البعيد بجوار الجدار العالي لمح الفأس.

صاح بذعر: من أين جاء هذا الفأس؟

وأصدر الأوامر على الفور للشاويشة، واختفى الفأس في لمح البصر.

قلت له: الزراعة ليست ممنوعة... كل المسجونات يزرعن!

قال: الفأس ممنوع... جميع الأدوات الحادّة ممنوعة!

ظلّ واقفاً على عتبة الباب بين العنبر والحوش. كنت جالسة على الأرض. داخل العنبر جلست الزميلات، بعضهن على الأرض، وبعضهن على الأسرة... الجميع ينظرن إليه بعيون صامتة غاضبة متحدية. بياض العين تشوبه صفرة التسمم بثاني أكسيد الكربون ودخان الجاز المحروق. زوايا العين حمراء التهبت بالأرق والقلق والذباب. الشفاه جافّة والبشرة شاحبة تعلوها خطوط حمراء وزرقاء بسبب الهرش الجلدي المستمر. الملابس معفرة بالتراب وياقة الجلابيب مسودة.

ظل واقفاً يحملق فينا بعينين لا نراهما من خلف النظارة. وجه أبيض وبشرة صافية مشربة بحمرة الدم، والنضارة. شرب اللبن وعصير الفاكهة قبل أن يأتي، وأخذ حماماً دافئاً. ياقته حول عنقه بيضاء نظيفة بغير عرق وبغير تراب. عضلاته مستريحة مسترخية. نام ملء جفونه حتى الصباح فوق سرير ناعم. صرخت واحدة من الزميلات: هذا العنبر لا يمكن أن تعيش فيه إلا الحيوانات!

قالت أخرى: لا... الحيوانات ترفض أن تعيش هنا.. تغضب، تثور... وترفس!

ابتسم ضابط المباحث... وقال بصوت هادىء: متأسف يا جماعة إن كنت أسبب لكن أي ازعاج... لكني لست الذي أصدر القرار بحبسكم هنا.. لست إلا موظفاً ينفّذ الأوامر.

تذكرت صوت زميلي الأديب الكبير: «لست إلا موظفاً... الأديب موظف... المفكر موظف... الفيلسوف موظف... لذلك ليس عندنا أدباء أو مفكرون أو فلاسفة! ما الفرق بين ضابط المباحث الموظف والأديب الموظف... كلاهما ينفذ الأوامر! كلاهما لا يريد أن يفقد راتبه الشهري، أو وظيفته.

مددت عنقي ورفعت رأسي. عيناي نحو السماء... عقلي حر ينطلق إلى أعلى... أفكر كما أشاء... وأكتب بأصابعي على الأرض ما أشاء... لا أحد يهددني بالفصل من وظيفتي... لأنني بلا وظيفة... ولا أحد يهددني بالسجن... لأنني داخل السجن ذاته... ولا أحد يمكن أن يهددني بالموت... لأن الحياة التي نعيشها هنا هي كالموت سواء بسواء!

امتلأ صدري بالهواء وقلبي بالدم، وسمعت بأذني ضربات قلبي قوية حرة... أفضل مكاني هنا فوق الأرض والتراب عن مكان ضابط المباحث على العتبة العالية مقيداً بأغلال الوظيفة... وعن مكان زميلي الأديب الكبير الجالس على قمة الأدب وفي صدره قلب مذعور، وفي جيبه راتب مهما كبر فهو ضئيل إلى جانب فقدان رأيه الحر!

ضابط المباحث مازال واقفاً على العتبة بين الحوش والعنبر. العيون حمراء غاضبة تتطلع إليه وهو يردد: لست إلا منفذاً للأوامر، وأنا في انتظار الأوامر الجديدة لتأتي إليّ من فوق...

هتفت اعتدال: من فوق من أين؟!

ابتسم وقال: من عند ربنا...

صاحت: لا... ليس من عند ربنا... وربنا لا يحبس الناس الأبرياء.

قال: ومن قال إنك بريئة؟

هتفت: أنا لا أعرف أي شيء... لا أعرف حتى القراءة والكتابة...

قال: ولماذا تغطين وجهك بالنقاب؟

قالت: لأن الله أمرني بذلك في كتابه الكريم.

قال: وكيف عرفت ذلك؟ هل قرأت كتاب الله؟

سكتت لحظة ثم قالت: أنا لا أقرأ ولكني سمعت الراديو عند الجيران... وسمعت الشيخ يقول إن الله أمر النساء بتغطية وجوههن!

كانت اعتدال قد حكت قصتها من قبل. لم تصدقها «بدور»، «فوقية» أيضاً تشككت في أمرها.

كنت جالسة أمامها، أرقب عينيها وهي تحكي. عينا طفلة في السادسة عشرة، وصوت طفلة...

ـ «لا أعرف القراءة ولا الكتابة لأني لم أدخل مدرسة في حياتي. أبي طلّق أمي وأنا طفلة. لا أذكر شكل أبي. أسمع عنه من الناس. قالوا لي إنه تزوج عشر مرات. كان أكبر من أمي بأربعين سنة... طلق أمي وتزوج فتاة أصغر مني. أمي عندها ثلاثون سنة، تزوجت وسافرت مع زوجها إلى الصعيد. بقيت

وحدي في القاهرة أعيش مع جدتي أم أمي. عندها خمسون سنة لكنها عمياء ولا تخرج من الدار. منذ شهرين لم أكن أرتدي النقاب. كنت أخرج إلى الشارع بجلباب عادي وشعري عار. وفي يوم وأنا جالسة عند الجيران أنصت إلى الراديو سمعت شيخاً يقول إن المرأة المسلمة يجب أن ترتدي الحجاب وإلا فسوف يكون عقابها النار في الآخرة. وأكد ابن خالتي كلام الشيخ وقال لي النقاب يا اعتدال يحميك من النار... وارتديت النقاب... وفي يوم الجمعة خرجت أزور خالتي. بينما أنا سائرة أمام أحد الجوامع رأيت أربعة رجال معهم بنادق. أحاطوا بي وقالوا لي: أدخلي إلى السيارة! قلت لهم: إلى أين تأخذونني؟.. ورأيت معهم ضابط بوليس سألني: إلى أين كنت ذاهبة؟ قلت له: كنت ذاهبة إلى خالتي. قال لي: سنأخذك إلى خالتك!.. وركبت السيارة وجاؤوا بي إلى هنا...

وصاحت «بدور» في تشكك: وهل صدقته حين قال لك إنهم سيأخذونك إلى خالتك؟!

وهتفت اعتدال: والله العظيم صدقته! والله العظيم أنا.. أنا أقول الحق! لماذا لا تصدقيني!

لم تكن «بدور» تصدقها، ولا «فوقية» أيضاً. كانت عيناها السوداوان تمتلئان بالدموع وتقترب مني قائلة: هل تصدقينني؟!

أنظر في عينيها وأقول: نعم.

ظلت بجلباب واحد طوال فترة السجن. لا أحد من أهلها

سأل عنها أو أرسل إليها ملابس. تمسك قضبان الباب الحديدي وتبكي وحدها وهي جالسة.

وفي ليلة صحوت من النوم على صوت أنين خافت. كانت نائمة ودموعها على وجهها. وجه طفلة. كملامح ابنتي وهي نائمة. وشعرها الطويل يتهدّل على حافة السرير، والغطاء سقط من فوقها.

نهضت من سريري وغطيتها. فتحت عينيها وهمست: والله العظيم أنا لا أكذّب!

ربت بيدي على رأسها وقلت لها: كلنا نصدقك.. لا تبكي وحاولي أن تنامي. أشارت بإصبعها الرفيع ناحية «بدور» وقالت: لماذا تشك فيّ؟! رأيت وجه «بدور» وهي نائمة في سريرها. على جبهتها ذلك الخط الرأسي العميق. تكشيرة تلازمها دائماً حتى وهي نائمة. وفي السرير المقابل رأيت «فوقية» نائمة أيضاً. وعلى جبهتها تقطيبة اتخذت شكل الخط الأفقي العميق.

دائماً هذه التقطيبة في الليل والنهار... تزداد في الصباح، حين نفتح عيوننا على اليوم الجديد... نتبادل الابتسامات، وتحية الصباح المألوفة: صباح الخير... إلا «بدور» و «فوقية». دائماً التكشيرة. دائماً الشفاه المزمومة الممطوطة.. وإذا ما رنت ضحكة مرحة في العنبر اتسعت التكشيرة، وزادت التقطيبة.

عرفنا أن «الضحك» عند «بدور» عيب، وحرام. أما «فوقية» فهي تزم شفتيها في جدية مصطنعة وتضغط على مخارج الألفاظ

قائلة: ما فائدة الضحك؟

وأقول لها: الضحك مثل الألعاب الرياضية مثل الرقص يقوي عضلات القلب والصدر وينشط خلايا العقل. الضحك له مركز في الجزء الأيمن من المخ. إذا مرضت خلايا هذا المركز أو تكاسلت عجز الإنسان عن الضحك. الضحك هو دليل التفكير ونشاط العقل. الضحك يساعد على تدفق «الأدرينالين» في الدم، وسرعة دوران الدم في خلايا المخ والقلب. الضحك لا يعني الاستهتار، كما أن التكشيرة لا تعني الجدية!

لكن «فوقية» كانت عاجزة عن الضحك. و «بدور» كانت رافضة أن تضحك وإذا ضحكت رغم أنفها استعاذت بالله من الشيطان الرجيم وأخفت فمها بكفها قائلة: اللهم أجعله خيراً يا رب!

رغم التشابه بينهما كانا كالقطبين المتنافرين. يتجاذبان ويتنافران ويتنافسان على زعامة العنبر.

يختلفان في رؤيتهما للحياة وحركة التاريخ. «بدور» ترى أن الله محرك كل شيء. وترى «فوقية» أن الاقتصاد هو الله.

وصرخت «بدور»: كافرة! ملحدة! لا تركعين ركعة واحدة لله!
ويدب النزاع بينهما والتنافر. لكن سرعان ما يتجاذبان.
تقترب الواحدة من الأخرى في الملامح والصفات، والرغبة في السيطرة، والهروب من المسؤوليات... تسعى الاثنتان للسيطرة على العنبر، وتهرب الاثنتان من المسؤولية والعمل.

كانتا تفصلان بين السيطرة والمسؤولية. «بدور» ترى أن الله هو المسيطر على كل شيء والمهيمن على كل ما في الحياة من خير وشر، لكن الله غير مسؤول إلا عن الخير، والشيطان هو المسؤول عن الشر والظلم في العالم.

و «فوقية» كانت ترى أن الزعيم غير مسؤول عن الأعمال الصغيرة مثل غسل الصحون بعد الأكل. لا بد أن يكون هناك الخدم حتى يأكل الزعيم ويستريح بعدالأكل ثم يخطب في الجماهير. كانت تقدّس الزعامة كإلّه. والإلّه لا يخطىء وهو مسؤول عن النصر فحسب، أما الهزيمة فترجع إلى عدم الوعي لدى الجماهير!

كانت كل واحدة فينا تغسل صحنها بعد الأكل. وتنفض سريرها بعد النوم. إلا «فوقية» و «بدور» تنتظران حتى تأتي «ذوبة» لتقوم عنهما بالعمل... وإذا لم تأت «ذوبة» ظل الصحن ملقى في الحوض قذراً إلى أن تغسله واحدة أخرى وظل السرير منكوشاً يغطيه الذباب والتراب إلى أن تنفضه إحدى المسجونات.

لم يكن عندنا ماء ساخن، ونضطر للاستحمام بالماء البارد تحت الدش. إلا «بدور» و «فوقية» لا بد لهما من الماء الساخن. ولا بد أن تحمل «ذوبة» الجردل على رأسها وتأتي بالماء الساخن من الماسورة تحت المدخنة. وإذا لم يوجد الماء الساخن أسبوعاً أو أكثر بقيتا بدون استحمام.

وملابسهما أيضاً تظلّ بدون غسيل حتى تأتي ذوبة.

وما أن تظهر ذوبة حتى تهتف بها «بدور» قائلة: أين الماء الساخن؟ منذ أسبوع وأنا أطلب ماء ساخناً لأستحم. هل أبقى أسبوعين بدون استحمام في هذا الجو الهباب؟! أما «فوقية» فتناولها كوماً من الملابس المتسخة وتقول بلهجة من تعود أن يعطي أوامر للخدم: اغسلي ملابسي بسرعة وانشريها في الحوش في الشمس لتجف قبل أن تغلق الشاويشة الباب!

*

ذات يوم صرخت «بدور»: إنها جاسوسة!. . .

ردت عليها واحدة من المنقبات: كيف عرفت أنها جاسوسة. هل عندك دليل؟!

قالت «بدور» وهي تحرك السبحة في يدها: دليلي هو الله.

قالت: هل «الله» هو الذي قال لك إنها جاسوسة!!

قالت «بدور»: نعم. ردت: لكن الله قال لي إنها ليست جاسوسة.

ردت بدور بغضب: لكن «الله» لا يخاطب إلا ذوي القلب النقي.

وصرخت المرأة المنقبة: قلبي أنقى من قلبك!

وصاحت «بدور»: أسكتي يا فرماوية!

وردت المرأة المنقبة: أنا فرماوية يا خومينية! يا علوية!

وأخذتا تتبادلان التهم العجيبة التي لم نسمعها أبداً. . . والأسماء التي لم تطرق آذاننا. . . سمعت واحدة منهما تقول للأخرى: ياسماوية! ظننت أنها تتهمها بوضع السم في الطعام، لكن اتضح لي فيما بعد أن السماوي اسم أحد القيادات الدينية مثل الفرماوي. .

وقالت «فوقية»: المباحث تضع دائماً في كل عنبر جاسوسة لتنقل إليهم الأخبار.

قلت: ولماذا تكون اعتدال هي الجاسوسة وليس واحدة أخرى غيرها؟

وقالت زميلة أخرى: إنها فتاة صغيرة مسكينة فقيرة وليس لها أحد.

ردت «فوقية»: هذا هو النوع الذي يستخدمونه دائماً، يختارون واحدة فقيرة ليغرونها بالمال. إن الفقر يضعف مقاومة الإنسان أمام إغراء المال.

قلت: ليس دائماً. والعكس أيضاً صحيح، فالثراء قد يجعل الإنسان أكثر رغبة في المال! لا يمكن أن نتهمها دون دليل.

وقالت إحدى الزميلات: هذا ظلم مثل الظلم الواقع علينا. نحن هنا في السجن حكموا علينا بالتآمر على الوطن والفتنة الطائفية دون أي دليل. فهل نفعل معها ما نرفضه ونلعنه كل يوم؟ وكيف يكون فقرها هو المبرر الوحيد لشكوكك فيها أنت التي تدافعين عن الفقراء؟!

وقالت إحدى المنقبات: اعتدال فتاة مؤمنة ترتدي النقاب وليست جاسوسة. وصاحت بدور: ليس كل من ارتدت النقاب تكون مؤمنة.

ويبدأ العراك من جديد. . . والاتهامات. . والتشنجات الهيستيرية. . .

ولم يكن من مكان أهرب إليه. . . لا ليل ولا نهار. . .

*

كان السجن في خيالي هو الوحدة، هو الصمت. الزنزانة المنفردة. . . يعيش فيها الإنسان وحده. يكلم نفسه. يدق الجدار ليسمع دقة جاره على الجدار.

لكني لم أكن أستمتع بالوحدة أو الصمت إلا بعد منتصف الليل وقبل أذان الفجر. لم أكن أستطيع أن أغلق باباً بيني وبين الأخريات حتى وأنا في دورة المياه.

إذا توقفت «بدور» عن الشجار مع زميلاتها بدأت في تلاوة القرآن بصوت عال. وإذا نامت «بدور» استيقظت «فوقية» وبدأت تناقش وتخطب. وإذا نامت «فوقية» نهضت «بدور» لتؤذن للصلاة وقيام الليل. . .

في ليلة امتد الشجار بين «بدور» وزميلة لها حتى الفجر. لم ينته إلا بإغماء «بدور» بعد اصابتها بتشنّجات عصبية عنيفة. مزّقت شعرها، ومزقت وجهها بأظافرهاوهي تصرخ إلى أن فقدت الوعي. . .

في الصباح ما أن فتحت الشاويشة باب العنبر حتى هتفت بها: أريد أن أنتقل إلى زنزانة منفردة. . . لا أريد أن أبقى في هذا العنبر!

لكن إدارة السجن رفضت طلبي. وأدركت أن التعذيب في السجن لا يكون بالوحدة والصمت ولكن التعذيب بالضجيج والأصوات أشد.

وظلت الزنزانة المنفردة تلوح لي كحلم بعيد المنال.

منذ الطفولة وأنا أعشق الوحدة. لم تكن لي غرفة أغلقها على نفسي. عدد الأشخاص في كل مراحل عمري كان يزيد عن الغرف في البيت. لكني كنت أنتزع لنفسي مكاناً أخلو فيه لأكتب.

ارتبطت القدرة على الكتابة بالخلوة الكاملة مع نفسي. وأعجز عن الكتابة حين أعجز عن إعطاء نفسي للوحدة عطاء كاملاً.

بعد منتصف الليل، وحين يهدأ الجو، ولا أسمع إلا صوت الأنفاس النائمة المنتظمة أنهض من سريري، وأسير على أطراف أصابعي إلى الركن المجاور لدورة المياه، أقلب الصفيحة الفارغة وأجلس على قعرها. أضع الصحن الألومونيوم فوق ركبتي وأسند عليه ورقة التواليت الطويلة كالشريط، وأبدأ الكتابة.

*

في السجن تظهر حقيقة الإنسان. يقف عارياً أمام نفسه وأمام غيره. تسقط الأقنعة. . . والشعارات. . . في السجن ينكشف المعدن الحقيقي للشخصية، خاصة في الأزمات.

فتشت الضابطة زميلة لنا تفتيشاً جسدياً فعثرت على ورقة صغيرة. لم تكن إلا رسالة قصيرة من الزميلة إلى أسرتها،تسألهم

عن صحتهم، وتطمئنهم على صحتها. .

لكن إدارة السجن هاجت وثارت: لا بد أن في عنبر السياسة قلماً وورقاً!

وهجمت علينا فرقة التفتيش، تفتح الحقائب وتقلب المراتب، وتنزع الحجاب والنقاب والعباءات. . .

وصرخت زميلة من المنقبات حين كشفوا شعرها أمام الرجال من إدارة السجن قائلة: يا كفرة!

أخذوها إلى زنزانة التأديب. سمعنا صراخها من بعيد وعرفنا أنهم ضربوها. هددنا جميعاً بالإضراب عن الطعام حتى تعود الزميلة إلينا. . وكنوع من الاحتجاج على ضربها. . . إلا «بدور» و «فوقية».

قالت «بدور»: الإضراب نوع من الاحتجاج وأنا لا أشترك في أي احتجاج ضد السلطة. . . أنا لا أخاطب الطاغوت. . . لا أخاطب إلا الله. . . ولا أشكو لأحد. . . الشكوى لغير الله مذلة!

وقالت «فوقية»: سوف يقابلون الإضراب بمزيد من القهر لنا. . . . وربما يضعوننا جميعاً في زنازين التأديب ويضربوننا. . .

لكن الزميلات رفضن منطق «بدور»، ومنطق «فوقية». قانون السجن لا يبيح الضرب ولا التفتيش الجسديّ. لا بد أن نعلن عن رفضنا وعن احتجاجنا. لو سكتنا هذه المرة فسوف يشجعهم سكوتنا على تكرار الإهانة، وتكرار الضرب. . . لنستخدم أي سلاح في أيدينا. . . وإن كان مجرد الامتناع عن الطعام.

عجزنا عن إقناع «بدور» قالت بحسم: لا فائدة من أي احتجاج. . . إنهم طواغيت: سوف يسحقهم الله إذا شاء.

لكن «فوقية» كانت أكثر وضوحاً. وحين حاصرتها الزميلات بالأسئلة، وكيف لا تخضع لرأي الأغلبية وهي التي كانت ترفع شعار العمل الجماعي والتضحية من أجل الآخرين. . . قالت بصوت ضعيف لم يكن هو صوتها في أي وقت آخر: أنا مريضة ولا أحتمل الإضراب! ورقدت في سريرها تئن وتشكو ألماً في صدرها. . . إلا أن باب العنبر فتح فجأة. . . ورأينا الشاويشة ومن خلفها الزميلة تدخل إلينا. قفزنا جميعاً نعانقها. . . فرحات بعودتها إلينا. .

قفزت «فوقية» من سريرها أيضاً وعانقتها. . .

وفي قفزتها نسيت أنها كانت مريضة.

*

قبل الفجر صحوت على صوت «بدور» يقول:

إنهضي للصلاة. . . الصلاة خير من النوم. . .

قالت بصوت خائر: لست نائمة، أنا مريضة، ضربوني هنا. . . على رأسي. . رجال ونساء يحملون العصي الغليظة. . لم أر وجوههم. . لكني سمعت أصواتهم. . . شدوا النقاب من فوق رأسي. . تهدل شعري أمامهم. . خبأت شعري بيدي وذراعي. ليضربوني حتى الموت لكن شعري لن يراه الرجال! شدوني من شعري على الأرض. حوّطوا عنقي بأيديهم وكدت أختنق داسوا بأقدامهم على نظارتي. . . لا أرى بدون نظارة. . . عندي صداع

شديد... ومرض في كل جسمي... في رأسي وعنقي وعمودي الفقري...

عاد صوت «بدور» يقول: انهضي وتوضئي لتصلي. لا تقولي إنك مريضة. الصلاة تشفيك من المرض. الله هو الذي يشفي. لا تكتبي أي شكوى لأي أحد. الله موجود. إذا كنت بريئة فسوف ينصرك الله. لا تقولي إنك لم تفعلي أي ذنب لا بد أنك فعلت ذنباً في حياتك ونسيت. لا يمكن أن يعرضك الله للألم أو العذاب أو السجن أو الضرب دون ذنب. الإنسان مذنب دائماً ولا بد أن تطلبي المغفرة من الله. فالتوبة واجبة سواء عملت ذنباً أم لم تعملي ذنباً... مادام الله قد طلب منا أن نستغفره فلا بد أننا عملنا ذنوباً. الإنسان آثم بالطبيعة وإلا لما كان هناك توبة أو مغفرة. قولي أستغفر الله ثلاث مرات، وقومي لتصلي. لا بدّ أن تقومي الليل للصلاة ولا يكفي الصلوات الخمس. إذا وجدت الماء مقطوعاً تيممي. الدين يسر وليس عسراً. والوضوء بالماء ليس ضرورياً. فالماء لا يهم. ولكن المهم أن تذكري الله بالليل والنهار. وقيام الليل خير وأبقى من النوم. وأنت ذهبت إلى زنزانة التأديب لأنك لا تقومين الليل ولا تحفظين القرآن. قلت لك أكثر من مرة لا بد أن تحفظي من القرآن سورتين كل أسبوع. هذا واجب مقدّس. من لا تفعله لا بد أن تضرب على قدميها خمسين ضربة. من يدري لعلّ الله أراد لك الضرب بيد آخرين لتكفري عن ذنبك. لا يكفي أن تغطي وجهك بالنقاب. لا بد أن تطهري قلبك من وسوسة الشيطان. المرأة أقرب إلى الشيطان من الرجل، وعن طريق حواء استطاع إبليس أن يصل إلى آدم. المرأة خلقت من

ضلع أعوج ولا تستقيم إلا بالضرب الموجع. واجبها السمع والطاعة دون اعتراض ولو بطرفة عين، أو بتكشيرة غضب. التكشيرة توجب الضرب عشرين ضربة على القدمين.

ورأيت الفتاة تنهض من سريرها... تمشي وظهرها محني ناحية دورة المياه... تتحسس الطريق بيديها وقد فقدت نظارة بصرها... ارتدت العباءة والنقاب... ووقفت خلف «بدور» تصلي وتستغفر الله على ذنوبها.

*

الشاويشة نبوية كانت تدهشني أحياناً بمواقف شجاعة... تقف فيها إلى جانب الحق ولا تخشى سطوة إدارة السجن. لم تكن كغيرها من الشاويشات الأخريات تقبل أي رشوة. ولم تكن تقبل أن تضرب مسجونة وإن أمرها المسؤول بذلك.

قالت: مرة واحدة سمعت الأمر وضربت مسجونة في زنزانة التأديب ثم عدت إلى بيتي وقلبي فيه وجع. ومرضت في البيت أسبوعاً... ومن بعدها لم أضرب أي مسجونة.. حتى ولو هددوني بالرفد لا أضرب أبداً... وأنا أتشاجر مع ابني حين يضرب قطاً أو كلباً فما بال الإنسان؟!

كانت «بدور» جالسة إلى جوارها تسمع كلامها فقالت لها:

«قلبك طيب يا شاويشة نبوية وسوف يجازيك الله خيراً... طلب الله منا الرفق بالحيوان والإنسان وجميع مخلوقات الله».

قلت: إلا مخلوق واحد المرأة!

وهتفت الشاويشة: لماذا المرأة؟!

قلت: لأنها خلقت من ضلع أعوج ولا تستقيم إلا بالضرب!

وضحكت، وضحكت الشاويشة والزميلات... إلا «بدور»... ظهرت التكشيرة بسرعة على جبهتها على شكل خط رأسي عميق. وقالت: المرأة ناقصة عقل ودين!..

قالت لها الشاويشة: وأنت! ألست امرأة؟!

صاحت: لا!

*

الجـــزء الثـــالـــث

اختراق الحصار

بدأت خيوط الفجر تمزق عباءة الليل المظلمة. أقف وراء الباب الحديديّ. أدسّ أنفي بين القضبان الغليظة السوداء. أتشمم نسمة هواء. أتذكر منظر الأسد المحبوس في حديقة الحيوان... يدس رأسه الكبير بين الأعمدة الحديدية... ثم يدور ويدور حول القضبان دون توقف....

وأتذكر منظر «الدب» داخل القفص الحديدي، ومنظر «النمر»، وكل الحيوانات الأخرى...

أنظر إلى أصابعي وأنا أمسك القضبان الحديدية. أظافري نمت وطالت كالمخالب. لم أقصها منذ دخلت السجن. المقص من الممنوعات، لأنه من الأدوات الحادّة....

أتأمل أصابعي في دهشة! لم تكن لي هذه الأظافر في يوم من الأيام!! هل هي أظافري أم مخالب حيوان.

شعري أيضاً طال ولامس عنقي وكتفي من الخلف. شعر منكوش غزير كشعر الأسد!

أتحسس وجهي بأصابعي.... أنفي أيضاً أحسه تحت يدي ممدوداً بين القضبان وكأنه طال كزلومة الفيل!

نسيت شكل وجهي. لم أر وجهي في المرآة منذ دخلت السجن. المرآة من الممنوعات، لأنها من الأدوات الحادة!

أتحسس ذراعي وساقي. البشرة سمراء عليها خطوط زرقاء وحمراء على شكل أظافر. هل أهرش بالليل وأنا نائمة؟ هل انتقلت إليّ عدوى مرض الجرب؟.

أمد أنفي خارج القضبان.. أهرب به بعيداً عن رائحة الجاز المحروق، وعفونة القمامة في الأركان، ورطوبة الأرض الإسمنت والبلاط.

أظل واقفة وراء القضبان...

أشعر بالتعب من طول الوقوف... أثني جسمي وأجلس على الأرض الصلبة.... أسند جسمي إلى القضبان... أظل جالسة جامدة كالجدار. الزمن أيضاً كالجدار.

أشعر بالتعب من الجلوس... أفرد جسمي وأقف. أتمشى في العنبر... جميع الزميلات نائمات.... الفجر لم يؤذن بعد... «بدور» لاتزال نائمة... ملامحها مستسلمة للحزن... الأجسام

كلها مرتخية والوجوه شاحبة ذابلة... استسلام كامل للنوم الحزين الطويل.

قلبي ثقيل... إلى متى يمتد بنا الزمن في هذا القبر؟!

الزمن لا يتحرك، كهذا السقف الأجرب فوق رأسي، تتدلى منه لمبة كهربية، مشتعلة ليل نهار، كالعين الحمراء الجاحظة، يلتف حول عنقها حبل أسود، التصق به الذباب النائم أو الميت.

منذ متى وأنا في هذا القفص الحديدي؟! متى كانت الليلة الأولى؟ منذ الأحد ٦ سبتمبر، واليوم ماذا يكون؟ لا أعرف اليوم ولا التاريخ ولا الساعة. في السجن يفقد الإنسان الإحساس بالتاريخ والزمن...

أنا هنا منذ زمن بعيد... منذ قرن... منذ ألف عام... منذ ولدت ومنذ عرفت شيئاً اسمه الزمن....

منذ كسروا الباب بالقوة وحملوني في السيارة في تلك الرحلة المجهولة في الظلام....

منذ ذلك اليوم وأنا هنا، ولا أحد يقول لي لماذا. لا أحد يوجّه لي اتهاماً. لا أحد يجيب على الأسئلة سوى: نحن في انتظار التعليمات من فوق. نحن في انتظار أوامر جديدة.

وما هي الأوامر القديمة؟ قرار التحفّظ! ماذا يعني قرار التحفظ؟! يعني الحبس داخل الزنزانة وراء القضبان بغير تحقيق،

بغير رسائل من الأهل ولا زيارات، ولا صحف، ولا راديو، ولا خروج إلى فناء السجن. حبس مطلق كامل بغير حقوق إنسانية ولا قانونية... حبس مطلق لا أحد يعلم متى ينتهي إلا رجل واحد، هو الذي أصدر قرار التحفظ:... وهو الوحيد القادر على إلغائه أو تغييره.

لأول مرة يتجسَّد أمامي معنى «الحكم الفرديّ» أو حكم الفرد الواحد. لأول مرة يتجسَّد أمامي شكل الديكتاتوريّة...

كنت أرفضها فكرة وأسلوباً ونظاماً... لكنني أصبحت الآن أرفضها بكل كياني. أرفضها بكل رغبتي في الحياة والحرية... أرفضها بجسمي وعقلي...

لكن كيف يتخذ الرفض عملاً إيجابياً؟ كيف أخترق الحصار المضروب حول عقلي وجسدي؟!

لا أستطيع أن أخرج جسدي من بين القضبان الحديدية... لكنني أستطيع أن أخرج عقلي...

وبدأت فكرة الاختراق تستولي عليّ. همست في أذن فتحية القتالة: فتحية، أريد أن أبعث برسالة إلى أسرتي... هل هذا ممكن؟!

همست فتحية: كل شيء ممكن.

هتفت بدهشة: داخل السجن؟

ضحكت: داخل السجن مثل خارج السجن... كل شيء ممكن... المهم التصميم...

قلت: أنا مصممة!

ضحكت: إرادتك كإرادتي... حين أصمم على شيء... يا إلهي.

*

قضيت ليلة كاملة أكتب رسالة إلى أسرتي... إلى زوجي، وابني، وابنتي. رسالة طويلة أفرغت فيها عقلي...

*

مضت الأيام والليالي دون أن يصلني أي رد. تلتقي عيناي بعيني فتحية القتالة ولا أقول شيئاً. عينا الشاويشة ترقبان وأذناها مرهفتان. في عينيها نظرة ريبة وشك... وفتحية تتفادى النظر نحوي. لماذا تخشى النظر في عيني؟! هل وضعت ثقتي في غير محلِّها؟! هل سلَّمت فتحية رسالتي إلى الشاويشة أو إلى إدارة السجن؟!

ليس من طبيعتي أن أتشكك. الإنسان عندي بريء حتى تثبت الإدانة. وحين كنت أنظر في عيني فتحية أحس أنها صادقة، وأنها إنسانة، وأن لديها شهامة!

هل كانت أحاسيسي كاذبة؟! في جميع مراحل عمري كنت أثق في أحاسيسي... لا أفرّق بين العقل والإحساس. الإحساس السليم هو العقل السليم. أحياناً يخطىء العقل. لا يعرف إلا الأرقام والمنطق المحدود المألوف والموروث. لكن الإحساس

السليم هو العقل الأعمق. هو الحسّ الإنساني والشعور والبصر والبصيرة وتراكم المعرفة والتجربة.

لكن الشك يتزايد في عقلي يوماً بعد يوم. ربما رسمت لفتحية ملامح من عندي! ربما هي جاسوسة!

صعد الدم إلى وجهي. شعرت بذعر مفاجىء. فقدت الثقة في حكمي على الناس والأشياء!...

أحسّ أنني أسقط وأنهار... قلبي يدق. حلقي جاف. أصابعي ترتجف... ابتسمت «فوقية» في انتصار وهمست في أذني: قلت لك إنها جاسوسة! كل من يدخل إلينا هنا جواسيس... لا تثقي في أي واحدة!..

الجدران والقضبان الحديدية تطبق عليَّ من كل الجوانب. أختنق بالشك والجاز المحروق... لا أرى وجوه بشر ولكن مساحات من السواد وثقوب تطل منها عيون حمراء كعيون الشياطين....

وجه فتحية أصبح يشبه وجه إبليس... قاتلة بنت قاتلة كما تقول الشاويشة.... وضعت لي السمّ في كلامها المعسول.

تقلّبت فوق اللوح الخشبي لا يغمض لي جفن. أدركت أن التعذيب داخل السجن لا يكون بالقضبان، ولا الجدران، ولا الحشرات اللاذعة، ولا الجوع ولا العطش ولا الإهانة ولا الضرب....

السجن هو الشك... والشك هو العذاب الأكيد... الشك هو الذي يقتل العقل والجسد. ليس الشك في الآخرين... ولكن الشك في النفس... السؤال المحيِّر المدمر للعقل: هل كنت على صواب أم كنت على خطأ؟!

هل صدقت «فوقية» في شكوكها وهل أخطأت أنا الحكم؟!

فتحت عيني في الصباح على صوت المفتاح يدور في الباب ثلاث دورات. لم أنهض من سريري، ولم أمارس الرياضة اليوميّة، ولم أستحم تحت الدش ولم أشرب الشاي. ظللت ممدودة فوق السرير. في حلقي مرارة وفي قلبي غصَّة.

هتفت الزميلات في دهشة: غريبة؟! هل أنت مريضة؟!

قالت واحدة: إذا مرضت الطبيبة فهذه النهاية!

صاحت أخرى: كلنا مرضنا إلا أنت.... وقد جاء دورك!

لم تصدق واحدة منهن أنني مريضة بالفعل. لكن ما أن نظرن إلى وجهي حتى دبّ الصمت. لم أعرف ماذا كان شكل وجهي.

وسمعت صوتاً حنوناً يقول: هل نبلّغ الطبيب؟!
صوت آخر أكثر حناناً: هل أصنع لك شاياً؟

حتى «بدور» و«فوقية»، رأيتهما إلى جواري.... ولأول مرَّة أرى ابتسامة رقيقة على وجه «بدور» كابتسامة الأم لطفلها وسمعتها تقول: سأعطيك بطانية من عندي، لا بد أنك أخذت برداً....

و «فوقية» أيضاً، تلاشى الخط العميق في جبهتها، وقالت برقة: قلت لك حافظي على صحتك! هذا الدش البارد كل يوم هو الذي أمرضك!

والشاويشة نبوية، وضعت يدها المعروقة على رأسي وقالت: حسدناك والله... سأقرأ لك سورة ياسين!

ورأيت وجه فتحية، فأغمضت عينيّ. لا أريد أن أراها. لكنها اقتربت مني وهمست في أذني: عندي لك رسالة!

وقفزت من السرير!

*

سبقتني بخطواتها الواسعة السريعة إلى دورة المياه. رفعت جلبابها الأبيض ومدّت يدها لتفك حزاماً حول بطنها....

قفز قلبي من تحت ضلوعي وأنا أرى الورقة المطوية بين أصابعها.... عانقتها وكدت أخنقها بذراعي.

همست: اقرئيها بسرعة ثم أحرقيها في المرحاض.

*

وقفت في المرحاض الضيق المخنوق بالرائحة العفنة، وقفت بين قدمي الثقب الطافح بمياه المجاري والصراصير، وخلفي الجدار الأسود ذي الشقوق، وأمامي نصف الباب المكسور، وقفت لا أشم الرائحة ولا أرى الجدار الأسود، ولا أعرف أين أنا. وقفت أفتح الورقة المطوية.... أصابعي ترتعش... قلبي

يخفق بآلاف الأحاسيس.... عيناي زائغتان لا تريان الحروف... لا أرتدي نظارة القراءة.... والحروف تهتزّ أمام عيني كأن بيني وبينها ماء....

مسحت عيني بكم جلبابي... أدركت أنها الدموع.... وبدأت الحروف تبدو واضحة.... تعرفت على خط زوجي، وخط ابنتي، وخط ابني... أنفاسي تسرع كأنني أشهق.... وصدري يختنق بالدم، وضربات قلبي كدقات الطبول.... أقرّب الورقة وأشمها.... رائحة ابني، وابنتي، وزوجي... رائحة بيتي... رائحة كتبي وأوراقي وسريري... رائحة كل حياتي التي خلعتها عن ذاكرتي ليلة دخولي السجن.

زوجتي الحبيبة.... ماما العزيزة.... حبيبتي ماما....

وتوقفت قليلاً ألتقط أنفاسي، وأمسح دموعي ثم قرأت الرسالة في نفس واحد. حفظتها عن ظهر قلب، لأرددها بيني وبين نفسي... لأحفر كل حرف وكل كلمة في ذاكرتي قبل أن أحرقها.

أشعلت عود ثقاب... قرّبته من طرفها.... عيناي تتابعان السطور وهي تخترق كلمة كلمة، حرفاً حرفاً... حتى نهايتها.... طافت كالبقع السوداء فوق الثقب العفن في بطن الأرض....

في الليل أغمضت عيني وتصورتها أمامي، وبدأت أسمع الصوت الدافىء يقول: عدنا نحن الثلاثة إلى البيت في تلك الليلة

فوجدنا الباب مكسوراً، وأنت غير موجودة. استبد بناالفزع. ماذا حدث لك. خرجنا إلى الشارع نبحث عنك. قابلنا أحد الجيران. قال لنا إن عدداً من رجال البوليس المسلّحين كسروا الباب وأخذوك في السيارة. لا أحد يعرف إلى أين. بحثنا عنك في أقسام البوليس، والمباحث. لا أحد يعرف شيئاً. أحد الحراس قال لنا: ابحثوا في سجن طرة. ذهبنا. لم نجدك هناك. قرأنا في الصحف أن المسؤول هو مكتب المدعي الاشتراكيّ، في وزارة العدل، في لاظوغلي. ذهبنا إليه في اليوم التالي. رأينا طابوراً طويلاً من الآباء والأمهات والأزواج وغيرهم من الأهالي... طابور طويل واقف أمام أحد الأبواب... وقفنا معهم طول النهار... ثم صعدنا سلّماً خلف المبنى الضخم، يشبه سلّم الخدم في العمارات الكبيرة. دخلنا من باب يقود إلى طرقة طويلة يجلس فيها ساعٍ أو فرّاش وراء مكتب صغير. أمامه عدد من الاستمارات. رفع رأسه وقال: ما المطلوب؟ قلنا له المطلوب أن نعرف أين أنتِ! قلب الاستمارات ثم شدّ من بينها استمارة وقال: املأوا هذا الطلب واتركوه هنا على المكتب، ثم عودوا بعد يومين أو ثلاثة لتأخذوا رقم الطلب! صرخ أحد الآباء كان يبحث عن ابنه وقال: لا فائدة من هذه الطلبات! سأذهب وأبحث بنفسي. غادرنا المبنى آخر النهار. وبدأنا البحث. ظللنا نبحث عنك ثمانية أيام كاملة. ثم سمعنا أنك في سجن النساء بالقناطر. جئنا إلى السجن وتركنا لك مع المسؤولين حقيبة بها ملابس لك وحذاء كاوتش. الرياضة داخل السجن ضرورية. لا زلنا لا نصدّق ما حدث. كانت صدمة عنيفة لنا. منذ غيابك انهالت علينا البرقيّات والتلفونات من جميع أنحاء العالم. هناك حملة عالمية كبيرة في صفك، ومظاهرات من النساء أمام السفارات المصريّة للإفراج عنك، واتحادات الكتاب والصحافيين والأدباء، وكل من قرأ رواياتك وكتبك. هناك حملة في صفك وفي صف كل المعتقلين. والناس هنا أيضاً يسألون عنك كل يوم.... والجيران... والأصدقاء، والأقارب... موقفك قوي للغاية فأنت كاتبة مستقلّة وروائيّة معروفة ومناضلة من أجل حقوق المرأة وحريّة الإنسان.

بدأ المدعي الاشتراكي التحقيقات. وكّلنا عنك أحد المحامين الممتازين. لا يعرف المحامي حتى اليوم ما هي التهمة الموجّهة إليك، ولا يعرف اليوم أو الموعد الذي ستخرجين فيه للتحقيق أمام المدعي الاشتراكي. لكنه يذهب كل يوم إلى مكتب المدعي الاشتراكي حتى يكون في انتظارك إذا حضرت في أي وقت. اسألي المحقق عن علاقتك بالفتنة الطائفية فهذا هو السبب الرسمي الذي نشر في الصحف لتبرير الاعتقال. نقابل المحامي كل يوم وسوف نرسل لك تباعاً ملخصاً لرأيه. يقول لك المحامي اطمئني وسيكون معك أثناء التحقيق. يتوقع أن التحقيق لن يتعرَّض لكتبك ولكن ربما يتعرَّض إلى المقالات التي كتبتها في صحف المعارضة. سوف نبحث عن هذه المقالات بين أوراقك، ونرسل إليك صوراً منها لتعيدي قراءتها قبل التحقيق. كنا نود أن تكون المحاكمة علنية ليسمع الناس رأيك، لكن المحاكمات لا

تنشر على الناس. حافظي على صحتك. كلنا بخير ونفكر فيكِ كل يوم. نحبك وننتظر عودتك إلينا!

*

ارتديت الحذاء الكاوتش وبدأت التمرينات الرياضيّة. تحولت الحركات الرياضية العنيفة إلى أشبه ما يكون بالرقص. نظرت الشاويشة في عيني وقالت بدهشة:

يا إلَهي! كنت مريضة منذ ساعة! طلبت لك الطبيب!

قلت بدهشة: طبيب؟! أي طبيب يعالجني وأنا نفسي طبيبة؟!

قالت: طبيب السجن!

قلت: وهل أنا في السجن؟!

صاحت: سبحان الله! أين أنت؟

قلت: أنا في السماء يا شاويشة!

وسمعت في الجو تغريد العصافير.

*

إذا كانت الأصوات الحرّة المدافعة عن حرية الرأي والكلمة قد ارتفعت في كل مكان من العالم تطالب بالإفراج عني وعن كل من دخل السجن بدون محاكمة وبدون تهمة وبدون جريمة، فلماذا لم يرتفع صوت واحد من داخل مصر؟!

ألهذا الحد كممت الأفواه، واستقرّ الرعب في العقول والنفوس؟

أرسلت من السجن رسالة إلى نقابة الأطباء المصرية بصفتي عضواً بها، وأرسلت رسالة إلى اتحاد الكتّاب أطالبهم بإرسال مندوب للوقوف على الحالة التي نعيش بها داخل السجن، والمطالبة بالإفراج عنا أو على الأقل تقديمنا لمحاكمة علنيّة عادلة!

لكن لا أحد أرسل إليّ أي رد... صمت كامل... وتجاهل تام لوجودنا داخل السجن.

حتى زملائي وأصدقائي الكتّاب والأدباء، لم ينشر أحدهم كلمة واحدة دفاعاً عن حرية الرأي والكلمة! انكمشوا داخل بيوتهم، لاجئين إلى الصمت والسكون، أو السفر إلى الخارج.... أو الاشتراك مع الآخرين في العزف على الأوتارالتي يطرب لها ذوو النفوذ.

*

رأيتها تنظر إليّ بعينيها السوداوين... تبعتها بسرعة إلى دورة المياه. رفعت جلبابها الأبيض وناولتني مظروفاً أبيض صغيراً...

قالت وهي تلهث: لا تنسي... أحرقي كل شيء بعد القراءة!

فتحت المظروف. بعض أوراق مطبوعة. وورقة صغيرة عليها هذه الكلمات: نبحث عن مقالاتك التي نشرت في صحف المعارضة والتي يمكن أن يتعرَّض لها التحقيق. نرسل إليك هذه المقالات. أحدها بعنوان الأحزاب يشكلُها الشعب نشر في جريدة «الشعب» في ٩ يونيو سنة ١٩٨١ والمقال الثاني بعنوان:

حول مشكلة حرية الصحافة، نشر في جريدة «الشعب» في ٢٧ يناير ١٩٨١، والثالث بعنوان: الحكام يؤلفون والشعب يلبس الطراطير، نشر في جريدة «الأهالي» في ١٢ إبريل١٩٧٨. يرى المحامي أن التحقيق قد يتعرض لها أو لأي مقال آخر منذ ١٩٧٠. سنبحث عن المقالات الأخرى. نرسل إليك أيضاً صورة من نص استقالتك التي قدمتها لوزير الصحة في ١٦ يناير ١٩٨١، وقد يسألك عنها المحقق. يطلب منك المحامي دراسة هذه الأوراق، كلنا بخير ولا ينقصنا إلا وجودك معنا. نحبك!

*

الجـزء الـرابـع

الخروج للتحقيق

سمعت اسمي يرنّ في الجو... وصوت يقول: أنت مطلوبة الآن أمام المدعي الاشتراكي للتحقيق!

وكأنما تلقيت نبأ الإفراج... وقفزت الصديقات وزميلات العنبر من حولي، مهنئات، معانقات.

هتفت واحدة: بدأ التحقيق وسنخرج كلنا إفراج!

صاحت ثانية: بدأ الحق يظهر!

وثالثة: الله أكبر!

ورابعة: اذهبي والله معك!

وتلقيت التهاني والقبلات. قلبي يخفق. أدور في العنبر ومن حولي الزميلات... المفاجأة والفرح وبارقة الأمل....

قالت الضابطة: ارتدي ملابس الخروج بسرعة فالضباط ينتظرونك في مكتب المأمور.

قلت: لماذا لم تبلغيني بمدة كافية لأستعد؟

قالت الضابطة: إذا تأخرت ينصرفون وتضيع عليك جلسة التحقيق!

وبدأت كل واحدة من الزميلات تجري لتحضر لي شيئاً. واحدة أحضرت لي المشط. وأخرى الفستان. واحدة أخذت تمشّط لي شعري.. وساعدتني زميلة في ارتداء الفستان الأبيض الذي خرجت به ليلة القبض. ناولتني زميلة أخرى نصف رغيف داخله قطعة جبن وقالت: لاتذهبي إلى المحقق وبطنك خاوٍ. صوتها مثل صوت أمي حين كانت تناولني «الساندويتش» وتقول لي باللهجة نفسها: لا تذهبي إلى الامتحان وبطنك خاوٍ!

دقات قلبي سريعة. تشبه دقات قلبي وأنا تلميذة صغيرة في المدرسة ذاهبة إلى الامتحان. حلمت ليلة الأمس أنني كنت جالسة بين التلاميذ وأمامي أسئلة الامتحان. لم أعرف الإجابة على أي سؤال. حلم كان يتكرّر في جميع مراحل حياتي، حتى في السجن.

ناولتني إحدى الزميلات كوباً من الشاي... حلقي جاف... بدأت أرشف الشاي.

صاحت الضابطة: الضباط ينتظرون!

قلت بهدوء: سأذهب بعد أن أشرب الشاي! كان يجب أن ترسلوا إليّ بلاغاً منذ الأمس... أي تحقيق هذا الذي يتم بشكل سريّ وبشكل فجائيّ أيضاً؟!

شربت كوب الشاي حتى نهايته ثم خرجت مع الضابطة إلى مكتب المأمور. رأيت جمهرة من الرجال المسلّحين يتقدمهم

ضابط. تذكرت اليوم الذي قبضوا عليّ فيه.... وقلت بدهشة: هل أنا بكل هذه الخطورة؟

رأيت باب السجن مفتوحاً على مصراعيه، تقف أمامه سيارات البوليس. تشبه السيارات التي وقفت أمام بيتي يوم ٦ سبتمبر. الموكب المهيب نفسه... يتقدّمه رجل على موتوسيكل يفسح الطريق... وصفّارة إنذار بوليسية... وحشد من الجنود المسلّحين... قفزوا في السيارات الخلفية...

طلب مني الضابط أن أجلس بينه وبين السائق. رفضت. المشهد يتكرّر، والكلمات تتكرّر:

قال: هذه هي الأوامر.

قلت: لن أجلس إلا بجوار النافذة!

بدا عليه الإصرار، وبدا عليّ إصرار أشد... انتصر إصراري على إصراره. وجلست بجوار النافذة... انتصار صغير بسيط... لكنه هام... فأنا أمارس إرادتي رغم كل شيء!

خرجت السيارة من السرداب الضيّق إلى سرداب طويل. في نهاية السرداب عمود غليظ يسدّ الطريق. توقفت السيارة عند العمود. برز من جانب الطريق رجل نحيل عيناه تلمعان وتتحركان بسرعة كعيني قاطع طريق.

لمح الموتوسيكل والسيارات فأسرع يجري بظهر منحنٍ وشدّ العمود بحبل أو سلسلة فارتفع العمود. خرج الموكب البوليسي ثم سقط العمود وأغلق الطريق خلفنا...

رفعت رأسي نحو الطريق... الشمس الساطعة تملأ الشارع والكون. ضوؤها قوي مبهر يؤلم العينين. القناطر تتألّق من بعيد.... وصفحة النيل تلمع تحت الشمس. ملأت أنفي رائحة النيل وهواء نقي منعش له رائحة الزرع!

أخذت شهيقاً عميقاً.... هل كنت ميتة وصحوت؟! هل كنت مدفونة ثم خرجت إلى سطح الأرض؟! منظر الناس في الشارع عجيب، وحركتهم مدهشة.... عيناي تتسعان كأنما أراهم لأول مرة في حياتي.... امرأة تقف أمام بائع خضر وتنثني أمام سلّة من الطماطم الحمراء! حمرة الطماطم زاهية عجيبة! لون الخضروات في السلال أخضر مدهشاً... الناس يدخلون ويخرجون من الدكاكين على نحو عجيب. السيارات تجري فوق أسفلت الشارع... امرأة تقود سيارة وتضغط على البوق بقوة.... صوت البوق يرنّ في أذني مدهشاً... الأبواق كلها تصدح بألحان عذبة... رجل يجلس على مقهى ويقرأ الجورنال علانية دون أن يخفيه... صوت الراديو ينبعث من المقهى عالياً تسمعه كل الآذان... أشياء عجيبة أسمعها وأراها كأنما لأول مرة. منذ متى لم أر الشارع؟ عددت الأيام على أصابعي.. وجدتها اثنين وعشرين يوماً،بدت لي كما لو كانت اثنين وعشرين عاماً أو قرناً.

الناس على جانبي الطريق يتطلّعون إلى الموكب البوليسي. عيون فيها دهشة خوف أو غضب مكتوم. وجوه شاحبة نحيلة. ظهور مقوّسة... سيقان معوجّة تمشي ببطء. شيء كاليأس في

حركة الأذرع، وحزن كالموات في العيون.

أشرق وجه بابتسامة مفاجئة، وارتفعت يدان تلوحان بمنديل. لوّحت بيدي. صاح الضابط بذعر: أرجوك... لا تكلّمي الناس!

قلت: أنا لا أكلم الناس.

سار الموكب في الطريق الطويل. عن يميني النيل وعن يساري الحقول. طريق محفور في ذاكرتي. وجه السائق أسمر شاحب كوجوه أقاربي الفلّاحين في كفر طحلة. بقع سوداء وبيضاء على الوجه واليدين. اليدان سمراوان مشققتان تقبضان على عجلة القيادة كأنها فأس.

الضابط يخلع قبعته البوليسيّة ويضعها على ركبتيه. ينظر إلى الأمام نحو الطريق. يسقط رأسه فوق صدره، ويسقط جفناه فوق عينيه ويرتفع الصوت المنتظم كالشخير.

وصلت السيارة إلى ميدان التحرير. انحرفت لتدخل إلى ميدان اللاظوغلي. داس السائق على الفرامل، وفتح الضابط عينيه فجأة كأنما في ذعر تلفت حوله ورأى المبنى الضخم كتب عليه: وزارة العدل! مسح فمه ووضع القبعة على رأسه وشدّ عضلات جسمه ووجهه. عدّل ياقة سترته وأحكم أزرارها.. هبطنا من السيارة. وهبط المسلّحون أيضاً.

لم يدخل معي إلى المبنى إلا الضابط وشرطي واحد. بقي الآخرون في السيارات. سرت بين الضابط وبين الشرطي. رأسي مرفوع وقامتي طويلة أطول من قامتهما. رجل عن يميني ورجل

عن يساري كالياوران. رأيت طابوراً من الموظفين واقفين أمام باب المصعد ينتظرون. اتسعت عيونهم وهم يحملقون نحونا... وابتسمت لهم في ثقة. اهتزت عيونهم بذعر.. ثم حرّكوا رؤوسهم إلى الناحية الأخرى بإطراقة منكسرة مستسلمة، إلا رأس واحد. العينان ثابتتان في عيني. ابتسم مشجعاً ثم رمق الضابط بنظرة غاضبة متحدية.

اتجه الضابط إلى مصعد آخر. مخصص للوزير وكبار الزوّار. رفع عامل المصعد يده بالتحيّة وأفسح للضابط الطريق. دخلت وراء الضابط إلى المصعد ومن ورائي دخل الحارس البوليسيّ.

ضغط الضابط على زر رقم (٧). وارتفع المصعد... ثم توقف. خرج الضابط وخرجت وراءه، ومن ورائي الحارس.

سار الضابط في ممر طويل على جانبيه عدد من المكاتب والأبواب المغلقة يجلس أمامها عدد من السعاة والفراشين.

توقف الضابط وتحدث مع أحد السعاة.... ثم عاد أدراجه نحو المصعد وهو يقول: ليس هذا الدور.

لم يكن المصعد موجوداً. نظر الضابط في ساعته قلقاً.... ثم قال وهو يجري: لنصعد على السلّم. جرينا وراءه أنا والحارس.

في الدور التاسع أشاروا عليه بالنزول إلى الدور الخامس....

نزلنا وراءه جرياً.... وهو يلهث ونحن نلهث، في الدور

الخامس قال له أحد السعاة: اصعد إلى الدور الثامن!

وانطلق الضابط يجري نحو السلّم.... وتوقفت وهتفت بغضب: غير معقول! لن أتحرّك.

وقال الضابط باستجداء: معليش يا دكتورة... لم يحدد لي أحد مكان التحقيق بالضبط والمبنى كبير.

قلت بدهشة: ألا يعرف أحد مكان مكتب المدعي الاشتراكي؟!

قال: إنه ليس مكتباً واحداً... إنها مكاتب كثيرة موزعّة على عدة أدوار....

صعدنا إلى الدور الثامن. يشبه الأدوار السابقة. الممر الطويل على جانبيه الأبواب المغلقة. أمام كل باب جلس بعض السعاة والفراشين. بعضهم نائم. بعضهم يأكل... فتاة تجري في الممر ومن خلفها طفل... على وجه الطفل ذباب، وخيط من المخاط يسيل من أنفه.

توقف الضابط أمام باب مفتوح قبل نهاية الممر. رأيت غرفة كبيرة مليئة بالضباط ورجال البوليس. بجوار الباب دكة طويلة يجلس عليها جنود مسلحون. حملقت العيون كلها نحوي... ثم سقطت الجفون فوق العيون فيما يشبه النعاس أو الغيبوبة.

تبادل الضابط مع رئيس الضباط بضع كلمات ثم قادني إلى غرفة أخرى في نهاية الممر.

أسير بخطوات بطيئة. أتشكك في يقظتي. ربما أحلم. أو ربما أتفرج على مسرحية، أو فصل في رواية كافكا «المحاكمة». النتيجة على الجدار تشير إلى أن اليوم ٢٨ سبتمبر ١٩٨١. الغرفة مزدحمة بالرجال والشباب. بعضهم طويل اللحية والشارب يرتدي الجلباب. بعضهم حليق الرأس والوجه يرتدي بدلة. بعضهم يجلس حر اليدين إلى جواره الحارس. بعضهم يجلس وقد ربطت يده مع يد الحارس بسلسلة حديدية.

حملقت العيون حين دخلت. أطرقت بعض الرؤوس من ذوي اللحية والجلباب غاضين البصر. عيون أخرى تعرفت على وجهي وهتف أحدهم: أهلاً يا دكتورة.. أهذه أول مرة تخرجين للتحقيق؟

قلت: نعم. وأنت؟

قال: هذه هي المرة الثالثة لي. ويستغرق التحقيق في كل مرة خمس ساعات.

يسألني المدعي الاشتراكي عن كلمات قلتها منذ عشرين عاماً!

وضحك الحاضرون من ذوي البدل. واهتزّت الرؤوس من ذوي اللحية وقد كست وجوههم ابتسامة خفيفة تنم عن المشاركة.

وقلت: إذن أتوقع أن يسألني عن طفولتي.

وقال ضاحكاً: كل شيء وارد! أي شيء ممكن في هذا العهد!

رأيت ضابطاً يدخل إلى الغرفة ويدعوني للخروج معه إلى الممر. خرج ورائي حارسي.

قال لي الضابط وهو يشير إلى كرسي في الممر:

يمكنك الانتظار هنا حتى يأتي دورك في التحقيق.

رفضت الجلوس، وقلت للضابط في غضب:

ـ هذا ممر وليس غرفة للانتظار!

ـ لا توجد غرفة خالية.

ـ إذن سأعود لأجلس في الغرفة التي كنت فيها.

ـ إنها للرجال.

ـ ولماذا لا تخصصوا غرفة للنساء. إذا كان ولا بد من الفصل بين الجنسين؟!

ـ لا توجد غرف كافية.

ـ لن أجلس في الممر!

ـ ليس عندنا مكان آخر.

واندفعت بغضب. ومن خلفي الحارس إلى غرفة الضباط واتجهت مباشرة إلى رئيسهم الجالس إلى مكتب ضخم وقلت له:

لن أجلس إلا في غرفة كما يجلس الآخرون، ولا يهمني أن أجلس وحدي أو مع غيري من الرجال، لكني لن أجلس أبداً في الممر!

بحثوا عن غرفة فلم يجدوا، واضطروا إزاء إصراري أن أعود وأجلس في غرفة الانتظار.

رحب بعودتي الرجال بحرارة الزمالة والمشاركة في محنة واحدة. وشعرت أنهم جميعاً زملاء لي، يجمعنا مصير واحد. حتى هؤلاء الشباب من ذوي اللحية الطويلة والجلابيب الذين غضوا البصر، أحسست أنهم ينظرون إليّ كزميل مسجون معهم.

ثم دخلت فتاة صغيرة في الثالثة عشرة تقريباً ترتدي جلباباً ريفياً طويلاً وشبشب بلاستيك في قدميها المشققتين، تحمل صينية عليها أكواب صغيرة من الشاي.

فرغت من توزيع الشاي على الحاضرين ثم سألتني:

- هل أحضر لك كوباً من الشاي؟

سألتها: من أين؟

قالت: من البوفيه.

- أي بوفيه؟

- بوفيه الوزارة.

عاد إلى ذاكرتي «بوفيه» وزارة الصحة حيث كنت أعمل بعض السنين. كان البوفيه داخل دورة المياه، والذباب ينتقل من المرحاض إلى الأكواب. ويتولى عمل الشاي والقهوة أحد السعاة أو الفراشين. لا يغسل الأكواب والفناجين، ويملأ الإبريق من صنبور المرحاض.

وقلت: لا. شكراً.

وهتف أحد الزملاء: لا يمكن! لا بد أن تشربي شيئاً قبل التحقيق! أحضري لها كوباً من الشاي!

قلت: ليس معي نقود.

قال: كلنا لسنا معنا نقود، وكله تحت الحساب.

وقالت الفتاة: المحامون يدفعون لي. أليس لك محام؟

قلت: لي محام، ولكني لا أعرف هل جاء أم لا.

قالت: أعطني اسمه وأنا أسأل عنه. كل المحامين ينتظرون تحت، في الدور الأسفل.

أعطيتها الاسم فخرجت مسرعة.

وسمعت الزميل إلى جواري يقول: إذا لم يحضر المحامي فلا تقلقي. إنه تحقيق شكلي لمجرد إثبات أن هناك قانوناً. لأ... القانون في إجازة يا دكتورة!

وتمتم شاب له لحية سوداء وعينان سوداوان ضيقتان:

حي على الصلاة...

ونهض الشباب حتى هؤلاء المربوطة أيديهم في أيدي الحراس بالسلسلة الحديدية. فكّ الحراس السلاسل بمفاتيح صغيرة، ونهض الجميع للصلاة. خلعوا الشباشب. وقفوا صفاً واحد... وراء الإمام. أكتافهم متلاصقة وأقدامهم متلامسة.

رفع الإمام يديه لتلامس أذنيه وهتف: الله أكبر.

رفعوا أيديهم إلى أعلى لتلامس آذانهم مرددين الهتاف بصوت واحد: الله أكبر.

ورنّ في الممر صوت منادياً على اسم من الأسماء. نهض أح... الزملاء ومن خلفه حارسه، وهتف به الآخرون:

سيسألك المدعي اليوم عن الحرب العالمية الثانية!

وردّ ضاحكاً: اطمئنوا! معي أربعة محامين!

ورنت الضحكات... ثم توقفوا فجأة عن الضحك. كست عيونهم سحابة حزن مفاجىء، كأنما تذكروا أنهم سجناء، وأنهم بعد التحقيق سيعودون إلى السجن، أو لعلّهم أدركوا أن الضحك لا يصح والصلاة قائمة. وكان شباب الجماعات الإسلامية مازالوا يركعون ويسجدون وينهضون ثم يركعون ثانية وهم يتمتمون بآيات القرآن.

ودبّ صمت يوحي بالحزن والرهبة.

إلى جواري سمعت صوتاً كالشخير. رأيت شابين جالسين لم ينهضا للصلاة. بينهما شبه كبير كأنهما توأمان. الوجه طويل شاحب تناثرت عليه البقع. العينان زائغتان تنظران إلى الفراغ. يد أحدهما مربوطة مع يد الآخر بالقيد الحديدي.

وأدركت أن أحدهما مسجون والآخر حارسه. لكن الشبه بينهما غريب. والحركة متشابهة، اهتزازة الرأس قليلاً ثم سقوطه فوق الصدر، وإغماضة العينين المرهقتين الذابلتين. ثم تلك الانتفاضة كاليقظة المفاجئة، والجفنان ينفتحان في وقت واحد، وتتسع عيونهما لحظة في دهشة أو ذعر. ثم تسقط الجفون فوق العيون، ويعود الصوت المنتظم كالشخير.

في ركن الغرفة بجوار النافذة، رأيت رجلاً جالساً في صمت يقرأ في الإنجيل. يرتدي عباءة سوداء تشبه ملابس القس. من

حوله ثلاثة رجال يهزون رؤوسهم ويحرّكون شفاههم.

بدت الغرفة أمام عيني كخشبة المسرح، يدور عليه مشهد من مسرحيات العبث أو اللامعقول.

جباه ملتصقة بالأرض. أكف مرفوعة إلى أعلى. رؤوس منكسة فوق الصدر. تمتمة من القرآن والإنجيل. جلابيب واسعة نضفاضة. بدل عصرية أنيقة. وجوه بلا لحية ولا شارب. ورؤوس حليقة. وجوه مغطاة بالشعر الكثيف كالغابة. وبدا كأنما لا شيء يجمع هؤلاء الناس إلا وجودهم الآن فوق خشبة هذا المسرح.

ثم دخل رجل طويل عريض يرتدي بدلة كاملة أنيقة. الوجه عجوز يطلّ عليّ منذ زمن بعيد موغل في القدم. هيئته ومشيته فوق الخشبة توحي أنه صاحب جاه وسلطة لولا ذلك الحارس من خلفه الذي أوحى أنه أحد المسجونين.

وهبّ الرجال وقوفاً...

- أهلاً يا باشا.

- أتفضل يا باشا.

- هذا المقعد يا باشا مريح.. تفضل هنا...

وجلس إلى جواري. ملامحه رأيتها منذ سنين بعيدة في الصحف. في الصفحة الأولى. كنت طفلة، أبي يقرأ الجريدة، وأنا أنظر إلى الصور. صورة النحاس باشا وصورة فؤاد سراج الدين باشا. النحاس وجهه نحيل طويل. عين أصغر من عين.

العين الصغرى تنظر نحوي، والعين الكبرى تنظر ناحية سراج الدين. وجه سراج الدين كبير مستدير مليء باللحم. عيناه واسعتان شاخصتان للأمام.

كنت أسمع أبي يقول: سراج الدين يشبه الملك لكن النحاس من الشعب.

وتردّ أمي: كان النحاس من الفقراء لكنه تزوّج زينب الوكيل.

ارتبط في ذهني منذ الطفولة اسم الملك بسراج الدين بزينب الوكيل بالنحاس. وحين سقط الملك في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ سقط معه الجميع. وسقط لقب باشا أيضاً.

في كل حياتي لم أنطق كلمة «باشا» أو «بيه»أو «أفندي». تعودت أن أخاطب الناس بلقب «أستاذ» أو «دكتور».

وسمعت من يقول: هل سلّمت على الباشا؟

وصافحته وأنا أقول: أهلاً بالأستاذ فؤاد سراج الدين.

واتّسعت العيون بدهشة، والتفت ناحيتي بكل جسمه. ورأيت وجهه لأول مرة. ليس هو الوجه الذي كنت أراه في الصحف. ملامحه لا تشبه الملك فاروق. عيناه رغم الشيخوخة فيهما حيوية ويقظة وانتباه.

قال لي: كيف الحال عندكم في سجن النساء؟ أتنامين على الأرض أم على سرير؟

قلت: أنام على لوح خشبيّ فوق سرير، وأنتم في سجن الرجال أتنامون على الأرض؟

قال: نمت على الأرض عدة أيام، ولم أكن أنهض إلا بمعاونة ثلاثة من الزملاء. ثم جاءني طبيب السجن وطلبت منه سرير. وجاء السرير. طلبت من الطبيب أن يفحصه ويقول لي هل هذا سرير أم لا. وجاء الطبيب، وبعد الفحص اتضح له أنه ليس إلا دكة خشبية.

وضحك الجميع. . . .

وقال أحد الرجال: عرفنا فؤاد باشا في السجن، وضرب لنا المثل في الصلابة والتحمّل. . . نراه جالساً في الزنزانة شامخاً كالأسد لا يتوجع. . .

وقال سراج الدين: لحسن حظي كان معي في الزنزانة خيرة شباب مصر ورجالها. وامتد الحديث فترة من الوقت، ثم دعي سراج الدين للتحقيق، ودعي آخرون بعده. ودخلت فتاة البوفيه تحمل أكواب الشاي.

وقالت لي: لم يحضر محاميك حتى الآن.

وقال أحد الزملاء: إذا لم يحضر المحامي يمكنك تأجيل التحقيق حتى يحضر معك.

هذا أفضل لك إلا إذا كنت تعرفين شيئاً عن القانون.

قلت: معلوماتي في القانون قليلة. . . وأنا لا أثق في عدالة التحقيق أيضاً. . .

قال: كلنا مثلك. هذا التحقيق سياسيّ وليس قانونياً. سوف يسألك المدعي عن حياتك السياسيّة منذ تولي السادات الحكم

وربما قبل ذلك، والله أعلم. . . . أهذه أول مرة تدخلين فيها السجن؟

قلت: أول مرة، وأنت. هل هي أول مرة؟

وقال: لا. . . أنا دخلت السجن أيام الملك، وأيام عبد الناصر وهذه هي المرة الثالثة.

قلت: أنت سياسي قديم.

قال: منذ كنت بالمدرسة الثانوية، ومظاهرات سنة ١٩٤٦. كنت أخرج مع التلاميذ إلى الشوارع نهتف ضد الملك والإنجليز. . . . ربما لا تذكرين هذه المظاهرات.

قلت: أذكرها جيداً. . . كنت بالمدرسة الثانوية. . .

عادت إليّ صور قديمة. عنبر الداخلية في مدرسة حلوان. دق جرس النوم. أطفىء نور الكهرباء. تجسست علينا ضابطة الداخلية وتأكدت من نومنا. ما أن ابتعد صوت وقع حذائها في الممر حتى قفزنا من الأسرَّة، وسهرنا حتى الصباح ننسج على ستراتنا تحت ضوء القمر هذه الحروف: «الجلاء بالدماء». وفي الصباح تجمَّعنا في الفناء، كسرنا باب المدرسة، وخرجنا إلى الشارع نهتف. في محطة قطار حلوان استولينا على عربة قطار، حملتنا إلى باب اللوق، ومن هناك سرنا على الأقدام مع مظاهرات الطلبة حتى ميدان عابدين. وفي قصر عابدين دخلت مع مجموعة من الطلبة والطالبات. كانت أول مرة في حياتي أدخل مثل هذا القصر. كل ما أذكره أن حذائي المغطى بالتراب غاص في سجاجيد ناعمة طرية. وجدران عالية جداً منقوشة. ومكتب

كبير من فوقه دفتر ضخم مفتوح، ورجال طوال يرتدون بِدَلاً سوداء عضلاتهم مشدودة كأنما بالأسلاك. طلبوا منا أن نكتب أسماءنا ثم خرجنا إلى الميدان. واستمرّت الهتافات ثم عدت مع زميلاتي إلى المدرسة.

ما أن رأتني الضابطة حتى شدَّتني من وسط البنات بأصابعها القوية الحديدية وقادتني إلى مكتب الناظرة.

سمعت الناظرة تكلم أبي في التلفون وتقول له إن أقل جزاء لي هو الفصل من المدرسة.

جفّ ريقي ودقّ قلبي. كنت أحب المدرسة رغم ضابطة الداخلية. وأحب العلوم والأدب العربي وأنوي دخول كلية الآداب أو كلية الطب.

من لهجتها في الحديث أدركت أنها تحترم أبي. فهي تناديه بلقب «بيه». كان أبي في ذلك الوقت مفتشاً بوزارة المعارف، وكنت أرى الناظرة والمدرسات يرتعدن حين كان يدخل أي مفتش إلى المدرسة.

ولم تفصلني الناظرة. علمت من أبي أنه دافع عني. . . قال للناظرة إن من حق الطالبات البنات المشاركة في المظاهرات الوطنية مثل الطلبة. . وعلمت أيضاً أن المدرسات والمدرسين دافعوا عني لأني كنت متفوِّقة في الدراسة.

وفي كلية الطب كنت أخرج مع الطلبة في المظاهرات. في إحدى المظاهرات وجدت أنني الطالبة الوحيدة التي تسير وسط

الطلبة وتحمل معهم اللافتة الضخمة، كتبنا عليها: طلبة وطالبات الطب. . .

أبي وأمي كانا يشجعاني على الاشتراك في المظاهرات الوطنية، ضد الملك وضد الإنجليز.

في ثورة ١٩١٩ كان أبي طالباً في دار العلوم في القاهرة، واشترك مع بعض زملائه في ضرب فرقة من الجنود الإنجليز. أصابته شظية رصاصة في ساقه، وعاد إلى قريته كفر طحلة محمولاً على عربة كارو.

أمي كانت تلميذة صغيرة في المدرسة الابتدائية في القاهرة. خرجت مع بعض زميلاتها إلى الشارع يهتفن ضد الإنجليز. أمسكها رجال البوليس، ووضعوها في قسم الشرطة نهاراً كاملاً ثم عادت إلى بيتها.

*

أفقت على اسمي يرنّ في الجو. نهضت ومن خلفي سار حارسي، وأمامي ضابط يقودني إلى باب مغلق. فتح الباب ودخلت وحدي وبقي الضابط والحارس خارج الباب.

وجدت نفسي في حجرة مكيَّفة. ملأت صدري بالهواء المنعش. رأيت رجلاً يجلس وراء مكتب كبير، ورجلاً آخر يجلس إلى منضدة صغيرة عليها دفتر كبير يشبه دفتر المأذون.

دعاني المحقق للجلوس ورأيت أمامه ظرفاً حكومياً مغلقاً

بالشمع الأحمر، إلى جواره ملف غلافه أزرق كتب عليه اسمي. فتح الملف والظرف ونظر في الأوراق. ثبَّت عيني على وجهه. وجه كبير أسمر. عينان واسعتان لا تنظران مباشرة إلى عيني. كأنه يتفادى أن تلتقي عيناه بعيني. لماذا!.

ولماذا لا ينظر في عيني مباشرة؟!

وسمعته يقول: موعد جلستك كان بالأمس. لماذا تخلّفت عن الحضور بالأمس؟

اتسعت عيناي في ذهول. هل هذا المحقق مجنون؟ أم أنني جننت ولم أعد أفهم ما يقول؟

وقلت بدهشة: ماذا تقول؟

وقال: كان يجب أن تحضري في موعدك بالأمس!

وقلت بدهشة: موعدي؟! أنا لم أعرف شيئاً عن هذا الموعد إلا صباح اليوم. ثم ألا تعرف أين أنا! أنا في السجن! فكيف أحضر إليك إلا بواسطة رجال البوليس؟!

وقال: أنا لا شأن لي بالبوليس. كان لا بد أن تكوني هنا بالأمس. على أي حال سأبدأ معك التحقيق الآن.

هل يمكن أن أثق في عدالة هذا الرجل؟ وإذا بدأ بهذا الكلام غير المنطقي فهل يمكن أن يكون هناك منطق أو عقل؟

وقلت: لن يتم التحقيق بدون حضور المحامي.

قال: هل لديك محامٍ؟

قلت: نعم.

دقّ الجرس. ودخل أحد السعاة قال له:

- أحضر محامي الدكتورة نوال السعداوي.

- حاضر.

وأغلق الباب.

وقال لي: سننتظر بضع دقائق حتى يأتي المحامي.

- ومن أين سيأتي؟

- من الدور الأسفل حيث ينتظر المحامون.

- هل أخطرتم المحامي بموعد التحقيق معي؟

- لا نخطر المحامين.

- لماذا؟

- ليس هذا عملنا.

- عمل من؟

- كل متهم يخطر محاميه.

- لكني في السجن ولم يخطرني أحد بموعد الجلسة. ولا وسيلة لي للاتصال بالمحامي فكيف أخطره؟!

- هذا ليس شأني.

- شأن من؟

- لا أعرف.

- لنفرض أن المحامي لم يأت.

- يمكنك تأجيل الجلسة إلى يوم آخر.

- ولكن هذا التأجيل يعني تأجيل ظهور الحقيقة وتأجيل خروجي من السجن.

- يمكنك إذن عدم التأجيل.

- ولكني أريد المحامي معي أثناء التحقيق، هذا من حقي.

- إنه حقك ويمكنك تأجيل الجلسة.

- وإذا تأجلت الجلسة كيف أضمن أنه سيعرف بالموعد الجديد، ومن الذي سيخطره بهذا الموعد؟

وظل صامتاً حائراً لا يعرف الرد... الغضب يتجمّع في أعماقي... أريد أن أنفجر في وجه هذا الرجل الذي كنت أتصور أنه يمثل العدالة فإذا به عاجز لا عن العدالة فحسب ولكن عن المنطق ذاته. إنه يتفادى النظر في عيني.

وفتح الباب ورأيت المحامي يدخل. كدت أعانقه وهتفت بفرح: من حسن حظي أنك جئت اليوم.

قال المحامي: أنا أحضر كل يوم وأنتظر مع المحامين. وبمجرد أن سمعت المنادي ينادي باسمك جئت على الفور.

قال المحقق: لنبدأ التحقيق.

قلت: قبل أن أبدأ التحقيق أريد أن أسجّل في المحضر كيف اقتحم رجال البوليس بيتي وكسروا الباب وفتشوا الشقّة وأخذوني إلى السجن دون أن يكون معهم أمر رسميّ من النيابة. وأريد أن أسجّل أيضاً أنهم وضعوني مع زميلاتي المتحفظ عليهم في عنبر المتسوّلات في سجن القناطر، وأن اثنتين من زميلاتي مرضتا

بالجرب، وأن صحتنا الجسمية والنفسية مهدَّدة، ولا نحصل على أي حق من حقوق المتهم تحت التحقيق، ولا نخرج إلى فناء السجن، ولا يزورنا أحد، ونعيش في عزلة كاملة وراء بابين حديديين.

وقال المحامي باسماً: لا أرى يا دكتورة فائدة من هذا الكلام.

قلت بدهشة: لا فائدة! كيف؟ إن كل ما حدث ضد القانون.

وابتسم المحامي قائلاً: نعم، ولهذا لا فائدة من تسجيل أي شيء. لا أحد سيقرأ هذا الكلام. المهم أن تكون إجاباتك على الأسئلة مختصرة، ولا داعٍ للإسهاب في شيء.

قلت: ولكني أود أن أسجِّل ما قلت.

وقال المحقق: لا بأس... أكتب يا أستاذ....

وبدأ كاتب الجلسة يكتب في دفتره... شمَّر أكمامه ليمسك القلم. رفع ذراعاً في الهواء ثم هبط الذراع فوق الدفتر. الدفتر شكله عجيب. يشبه دفتراً رأيته في متحف في جزيرة زنجبار في زمن العبيد.

اتسعت عيناي في دهشة. أين أنا؟ وفي أي زمن أعيش؟

سطح المكتب يلمع من فوقه الملف، يعكس وجه المحقق ومن فوق غلافه اسمي الثلاثي.... اسم جدي والد أبي لازال مشبوكاً في اسمي. مات دون أن أراه وعاش يبول الدم. رأس

المحقق تهتز فوق الملف الأزرق. يفتحه ثم يغلقه. يفتح المظروف الحكومي ذي الشمع الأحمر. دائرة حمراء مشرشرة ملتصقة بطرف المظروف المثني. تهتز تحت يده مع اهتزازات رأسه.

يحملق طويلاً في الأوراق. يقلب في الملف وعيناه تبحثان عن شيء. تضيقان وتتسعان، ثم يغلق عيناً ويفتح الأخرى... كأنه ينظر من خلال ميكروسكوب...

يرفع رأسه قليلاً ثم يعود إلى البحث...

سطح المكتب البلوري يعكس وجهه على نحو عجيب. أنفه أصبح طويلاً كزلومة الفيل. عيناه ضيقتان كثقبين في إبرة. إصبعه داخل الملف فوق الورقة البيضاء كالإبرة الطويلة الممدودة داخل جسد أبيض.

ما زال صامتاً. يحرِّك إصبعه ويبحث.

عن أي شيء يبحث؟!

تذكرت محاكم التفتيش في القرون الوسطى، والإبرة الطويلة يغرسونها في جسد الساحرة الحكيمة بحثاً عن علامة الشيطان.

وأخيراً رفع رأسه وظلّت عيناه تحومان بعيداً عن عيني... انفرجت شفتاه وسمعته يقول بصوت خافت كالفحيح:

تقول المباحث إنك في سنة ١٩٧٢ ألقيت محاضرة في كلية طب عين شمس، وكان معك زوجك الشيوعيّ السابق، وأنك في

هذه المحاضرة هاجمت النظام وحرضت الطلبة على التمرّد والثورة.. ما قولك في هذا؟

كدت أنفجر بالضحك.. لكني ابتسمت بهدوء.

وقلت: ولماذا لا نبدأ من الطفولة بدلاً من سنة ١٩٧٢ فقط؟!

اتسعت عيناه بدهشة وقال: ماذا تقولين؟! لم أسمعك جيداً.

قلت: هل تستمد معلوماتك عني في هذا التحقيق من المباحث؟!

قال: أود أن أقول إنني أنا الذي أسأل، وأنت التي تجيبين على الأسئلة وليس العكس، فأنا المحقق... أنا القاضي!

قلت بدهشة: أنت القاضي؟! لكن اسمك المدعي فكيف تكون قاضياً ومدعياً في الوقت نفسه؟!

قال: قلت لك إنني أنا الذي أوجه الأسئلة ولست أنت التي توجهين الأسئلة...

هه.. ما رأيك في الكلام الذي قلته؟

قلت: أتقصد الكلام الذي قالته المباحث لك؟ إنه كلام كذب في كذب فيما عدا أنني ألقيت محاضرة في كلية طب عين شمس في عام ١٩٧٢. كانت المحاضرة عن المرأة والمجتمع، ولم يكن معي زوجي.

المحقق: المباحث تقول إن زوجك كان معك.

قلت بضيق: المباحث تكذب. إنها تزج باسم زوجي وهي تعلم علم اليقين أن زوجي لم يكن معي ولم يحضر هذه المحاضرة. كان معي أستاذ آخر من جامعة عين شمس. وبعد المحاضرة ببضعة أيام طلبني الأستاذ صفوت عباس للحضور إلى مكتب أمن الدولة في شارع زكي وسألني بعض الأسئلة: ثم عدت إلى بيتي. وقد طلب أيضاً الأستاذ الآخر الذي اشترك معي في الندوة ووجه إليه بعض الأسئلة وانتهى الأمر. وقد مر الآن ما يقرب من عشر سنوات على هذه المحاضرة وكانت محاضرة علمية داخل جامعة، وهي لا بد مسجَّلة ولا بد أن المباحث اطلعت أيضاً على إجابتي على أسئلة صفوت عباس في أمن الدولة.. فلماذا تحريف الحقائق.

وقال المحقق: أنا الذي أوجِّه الأسئلة أرجوك.

قلت: ولكني أريد أن أفهم أيضاً لماذا تكذِّب المباحث.

قال المحقق: لا دخل لي بالمباحث.. أنا أمثل جهاز المدعي الاشتراكي وهو جهاز منفصل عن المباحث.

قلت: إذا كان جهاز المدعي الاشتراكي منفصلاً عن المباحث لماذا تعتمد في التحقيق معي على معلومات وردت إليك من المباحث. وتدخل المحامي قائلاً:

ـ يا دكتورة أرجوك أن تتذكري نوع هذا التحقيق وحاولي أن تردي على السؤال دون التطرق إلى أشياء أخرى وأنت تفهمين كلامي، وابتسم لي ابتسامة ذات معنى..

ـ وابتسمت له قائلة: أفهم ولكني لا أستطيع أن ألغي عقلي أو ألغي المنطق البسيط.

ثم جاء السؤال الثاني أكثر ادهاشاً من السؤال الأول.

سألني المحقق فجأة: تقول المباحث إن لك ميولاً ماركسية.

وهنا ضحكت وقلت بدهشة: وكيف عرفت هذه المباحث هذه الميول.. أنا طبيبة نفسية وأعرف أن الميول هي مجرد مشاعر. فهل شقَّت المباحث قلبي وعرفت مشاعري وميولي؟ ثم من قال إن الإنسان يدخل السجن لأن له ميولاً فلسفية، ماركسية، أو غير ماركسية.. إن الدستور المصري لا يضع قيوداً على ميول الإنسان المصري، ومن حق أي إنسان أن يميل ويهوى ويعشق من الأفكار والفلسفات ما يشاء.

وضحك المحامي وقال: يا دكتورة، كلنا نعرف ذلك. إن هذا السؤال خطأ من الناحية الدستورية والقانونية لكن هذا التحقيق شيء آخر....

والتفت المحامي إلى المحقق وقال له:

الدكتورة كاتبة ولها مؤلفاتها وجميع أفكارها في هذه المؤلفات. إنها لم تدخل أي حزب سياسيّ. إنها شخصية مستقلّة، روائية ومناضلة من أجل تحرير المرأة. وأنا أقترح، بعد أن تأذن لي الدكتورة، أن نختصر الإجابة على السؤال السابق بكلمة واحدة هي: لا.

وهمس المحامي في أذني: إن هذا التحقيق لا يبغي الحقيقة

ولكنه يهدف إلى تصيد أي كلمة ضدك، ولا نريد أن نعطيهم هذه الفرصة.

وتوالت الأسئلة على هذا النحو العجيب. أخرج لي المحقق من مظروف أحد أعداد مجلة «التقدم»، وهي مجلة علنية يصدرها حزب «التجمع» أحد الأحزاب السياسية الرسمية في مصر، وقال لي:

عثروا على هذه المجلة في بيتك أثناءالتفتيش.

قلت بدهشة: هل هي منشور سريّ؟! إنها مجلة أحد الأحزاب الرسمية في مصر، وأشار لي المحقق على المقال الأول في المجلّة وكان بقلم «خالد محيي الدين» رئيس حزب التجمع وقال لي: هل قرأت هذا المقال؟

قلت: لا.

قال: اقرئيه، وقولي لي ما رأيك في هذا المقال.

اتسعت عيناي في دهشة وقلت: هذا المقال ليس بقلمي أنا ولا أدري لماذا تريد رأيي فيه.

قال: هل توافقين على ما جاء فيه؟

وقلت بغضب: لا أعرف ماذا جاء فيه، ولا أعرف لماذا تسألني هذه الأسئلة العجيبة عن مقال ليس بقلمي. لماذا لا توجّه هذه الأسئلة لصاحب المقال نفسه؟

وهل تضعني في السجن وتحقق معي بشأن مقال لم أكتبه على

حين أن صاحب المقال نفسه حر طليق في بيته ولا أحد يسأله عن مقاله!! لماذا لا تذهب إليه وتسأله هو، ولماذا تسألني أنا؟! هل أنا وصيّة أو مسؤولة عن كتاباته؟!

وأطرق المحقق برأسه خجلاً وظل صامتاً ينظر في الملف أمامه حائراً ثم أخرج لي سؤالاً آخر، كالحاوي يخرج من جرابه شيئاً.

قال: تقول المباحث إنك هاجمت معاهدة كامب ديفيد في مؤتمر كوبنهاجن العالمي للمرأة في يوليو ١٩٨٠.

قلت: هذا كذب أيضاً. لأن معاهدة كامب ديفيد لم تكن موضوع المناقشة في المؤتمر. لقد دعيت في أحد الاجتماعات للتحدث عن مشاكل المرأة الفلسطينية في الأرض المحتلّة، بصفتي مسؤولة عن برنامج المرأة في اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا بالأمم المتحدة. كانت القاعة مليئة بالصحافيين من جميع بلاد العالم بما فيهم الصحافيون الإسرائيليون. وثار أحد الصحافيين الإسرائيليين بعد أن تكلمت عن نشأة دولة إسرائيل تاريخياً، وكيف قاد النظام الطبقي الأبوي إلى النظام العبودي ثم الاقطاعي ثم الرأسمالي، وكيف لعب الاستعمار دوراً في نشوء إسرائيل.

وحاول هذا الصحافي الإسرائيلي مقاطعة كلامي وإحداث فوضى في الاجتماع فطردوه من القاعة.

وسألني أحد الصحافيين الإسرائيليين في الاجتماع قائلاً:

بصفتك تعملين في اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا بالأمم المتحدة، هل تفسرين لنا لماذا لا تكون إسرائيل إحدى الدول الأعضاء في هذه اللجنة التي تضم البلاد العربية في المنطقة؟ أليست إسرائيل إحدى الدول الشرعية في المنطقة؟

وقلت له: ولماذا لا تذهب وتسأل الأمم المتحدة!.

وقال الصحافي الإسرائيلي: ما رأيك أنت شخصياً في هذا الوضع غير العادل؟

وقلت: إن نشوء إسرائيل كان غيرعادل. لقد نشأت دولة إسرائيل بقوة السلاح والقتل لإبادة شعب فلسطين رجالاً ونساء. ورأيي الشخصي هو أنني لا أرى أي عدالة في ضمها إلى دول الأمم المتحدة في المنطقة. . .

وانتهى الاجتماع ولم يسألني أحد عن كامب ديفيد. . .

وقال المحقق: لكن المباحث تقول إنك هاجمت معاهدة كامب ديفيد في هذا المؤتمر.

قلت: أي مباحث؟ المباحث الإسرائيلية أم المباحث المصرية؟

وقال المحقق: المباحث المصرية بالطبع.

وقلت: إذا كانت المباحث المصرية موجودة في ذلك المؤتمر فلا بد أنها تعرف ماذا قلت. إن كلامي في ذلك الاجتماع كان في صف الشعوب العربية وفي صف الشعب المصري ضد دولة إسرائيل، فما الذي يغضب المباحث المصرية في ذلك؟ ومن المعروف أنني لا أوافق على سياسة السادات ومنها كامب ديفيد.

أنا لا أخفي شيئاً. وكل آرائي منشورة. لكن في هذا المؤتمر بالذات لم يسألني أحد عن كامب ديفيد. فلماذا تحرف الحقائق ويزج بمعاهدة كامب ديفيد كذباً في هذا المؤتمر؟

ظل المحقق صامتاً ينظر داخل الدوسيه.

وقلت لنفسي: هل جاء اسمي ضمن المتحفظ عليهم لهذا السبب بالذات؟

كنت أبحث عن سبب مقنع لاعتقالي، واعتقال هذا العدد الكبير من مختلف الاتجاهات والتيارات والأفكار.

لا شيء مشترك بين هؤلاء الذين حبسهم السادات سوى معارضتهم لاتفاقية السلام مع إسرائيل.

أتكون إسرائيل هي السبب في وجودنا داخل السجن؟! هل أردت أن تكتم الأصوات المعارضة للغزو الإسرائيلي الاقتصادي والثقافي تحت اسم «تطبيع العلاقات»؟! أي خديعة تحدث تحت ستار الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي وحماية مصر من الفتنة الطائفية وحماية قيم القرية من العيب؟!

وسمعت المحقق يردد: لكن المباحث تقول إنك هاجمت معاهدة كامب ديفيد في مؤتمر كوبنهاجن.

وضحكت. لا أدري لماذا ضحكت. لكنني تذكرت امرأة مصرية ذات شعر رماديّ، كانت واحدة في الموكب الذي تسير فيه زوجة السادات في مؤتمر كوبنهاجن. . . . قابلتني وجهاً لوجه في أحد الأروقة فصاحت بضيق:

ماذا قلت في الاجتماع حتى يثور الصحافي الإسرائيلي ويطردوه من القاعة؟ وقلت لها: منذ متى وأنت تدافعين عن إسرائيل؟!

واتسعت عيناها في دهشة ثم انفرجت شفتاها لترد عليّ، لكنها لمحت زوجة السادات من بعيد فهرولت بعيداً عني وهي تقول بذعر:

لا أريدها أن تراني معك.

وجرت نحوها تتأرجح على كعبيها العاليين الرفيعين.

وقلت: هل لعبت الزوجة دوراً ضدي حين عادت إلى مصر من مؤتمر كوبنهاجن؟

لكن المحقق لم يرد على سؤالي، وظلّ ينظر داخل الملف.

وقلت بغضب: أريد أن أعرف لماذا أنا في السجن؟ لماذا أعتقل في حين أن السادات أعلن إغلاق جميع المعتقلات وأعلن أيضاً إلغاء قانون الطوارىء في ١٥ مايو ١٩٨٠؟

ابتسم المحامي وقال: لكنه أصدر في اليوم نفسه القانون ٩٥ لسنة ١٩٨٠ بحماية القيم من العيب.

وقلت: قانون الطوارىء كان أفضل. إنه على الأقل قانون مؤقت ومهما امتدت ـ الأحكام العرفية فهي تنتهي بانتهاء الظروف الاستثنائية، لكن السادات أراد أن يجعل الطغيان دائماً وليس مؤقتاً، وأصدر قوانين بطش دائمة، وأعطى لها أسماء بريئة تناقض حقيقتها. إن محكمة القيم ليست إلا انتهاكاً للقيم الإنسانية الحقيقية.

وظلّ المحقق يحملق داخل الملف وكأنه لا يسمعني . . .

ثم أخرج لي من الدوسية صفحة من جريدة «الوطن» تصدر بالكويت. رأيت فيها صورتي ومقالاً بعنوان: «الأحزاب يشكلّها الشعب وليس الحاكم».

وقال المحقق: أنت صاحبة هذا المقال.

قلت: هذا المقال نشر في جريدة «الشعب» بالقاهرة في ٩ يونيو ١٩٨١ تحت عنوان «الأحزاب يشكّلها الشعب». هل معك نسخة من جريدة الشعب؟

وقال المحقق: لا.

قلت: هذا المقال منقول عن جريدة «الشعب».

وقال المحقق: هل يمكن أن تقرئي المقال بدقّة وتتأكدي أنك صاحبة كل كلمة فيه.

وأخذت أقرأ المقال.

انتهيت من قراءة المقال، ونسيت في لحظة أنني كاتبة المقال وملأني الإعجاب بمن كتبه. ثم تذكرت فجأة أنني أنا التي كتبته، فملأني الزهو والإعجاب بنفسي.

ورأى المحامي على وجهي ابتسامة الرضا فابتسم هو الآخر. وسمعت المحقق يقول:

ـ هل كتبت هذا المقال.

ـ نعم.

ـ كل حرف فيه.

ـ كل حرف فيه.

ـ وما رأيك. هل أنت مقتنعة بما فيه.

ـ تمام الاقتناع.

وبدأت المناقشة . . . من أول فقرة في المقال إلى آخر فقرة. يقرأ المحقق الفقرة ويسألني معناها ثم ينتقل إلى الفقرة الأخرى.

وتوقف المحقق طويلاً عند هذه العبارة: الظاهرة التي نلمسها اليوم من أن الحكام هم الذين ينشؤون الأحزاب أو يقولون إنهم هم الذين أنشأوها، وهل يتفق ذلك مع الدستور.

سألني المحقق: ماذا تقصدين بهذه العبارة، ومن هم الحكام الذين أنشأوا الأحزاب أو قالوا إنهم هم الذين أنشأوها.

قلت: نعم، حدث هذا في مصر، وقد صرّح السادات في الصحف أنه هو الذي أنشأ أحزاب المعارضة ولولاه ما نشأت، وأنه يمكنه أن يسحقها بمثل ما أوجدها. صرّح السادات بهذه العبارات في صدامه الأخير مع أحزاب المعارضة . . . وردّ المحامي قائلاً: نعم، كلنا قرأنا ذلك في الصحف في الفترة الأخيرة.

استغرق التحقيق عدة ساعات. وشمل أسئلة شبيهة بالأسئلة السابقة، لم أعد أذكرها بسبب تفاهتها. لكن المحقق لم يسألني سؤالاً واحداً عن دوري في الفتنة الطائفية، أو عن اشتراكي في

أي مخطط أجنبي لإحداث فوضى بالبلاد أو قلب نظام الحكم.

لم تستطع المباحث أن تلفّق لي مثل هذه الاتهامات التي نشرتها الصحف، والتي أكّدها مجلس الشورى.

واتضح لي، وللمحقق، وللمحامي، أن لا شيء ضدي، وأن إجاباتي كلها منطقية ومقنعة، على حين كانت الأسئلة كلها غير منطقية وملفقة على نحو مضحك.

ورفعت رأسي في كبرياء وأنا أشعر أن الحق معي. تصوَّرت أنه سيأمر بالإفراج عني لبراءتي. ونهضت وأنا أقول: الآن أذهب إلى بيتي. . . لا شيء ضدي.

وابتسم المحامي قائلاً: ليس بهذه السرعة يا دكتورة.

وقلت بغضب: قضيت بالسجن حتى الآن اثنين وعشرين يوماً دون وجه حق، ودون تحقيق، وها هو التحقيق يسفر عن لا شيء ضدي!

وقال المحقق: إن التحقيق لم ينته بعد، وسوف نرسل إليك مرة أخرى إذا حصلنا على معلومات جديدة.

قلت: ولماذا أوضع في السجن كل ذلك الوقت؟! هذا ضد القانون. المفروض أن يطلق سراحي اليوم فوراً. . . ثم أعوض عن كل الأيام التي قضيتها في السجن، وحين تصلكم معلومات جديدة يمكن استدعائي من بيتي!

وابتسم المحامي وقال: يا دكتورة. . . هذا اعتقال بأمر

السادات شخصياً، ولن يفرج عنك إلا السادات نفسه حين يريد!

وقلت بغضب: هذه دولة بغير قانون وبغير عدالة، وهذا التحقيق لا فائدة منه ولا عدالة فيه!

ودقّ المحقق الجرس وانفتح الباب وحوطني الضابط والحراس وحملوني بالسيارات إلى السجن مرة أخرى.

*

في طريق العودة إلى السجن كنت حزينة. لكن من تحت الشعور بالحزن كان هناك شعور آخر. نوع من الشوق الغريب لزميلات العنبر. كأنني غبت عنهن عدة أعوام وليس عدة ساعات. نوع من الفرح لأنني أعود إليهن.

دهشت لهذا الشعور. لكني اكتشفت أن حياة السجن تخلق بين المسجونين نوعاً من الزمالة الفريدة. تصوّرت في لحظة أنني عائدة إلى أهلي وأسرتي الحميمة في ذلك العنبر المنعزل في آخر الدنيا.

ما أن اقتربت السيارة من القناطر حتى عادت إليّ وجوه زميلاتي. عيونهن في الليل وهي تبحث عن عيني. أصواتهن وهي تنشد صوتي. تآزرنا معاً ضد إدارة السجن. جلوسنا فوق الحوش الترابيّ ننقي الفول والعدس. ضحكاتنا المرحة أحياناً. . . بل والخلافات والمشاكسات أيضاً بدت لي من على البعد أشياء قريبة إلى قلبي عزيزة على نفسي.

لكن بوابة السجن الضخمة أشاعت في جسدي قشعريرة. الشق

الصغير ينثني داخله جسدي. أصابع الشاويشة ويداها تمران فوق رأسي وجسدي تفتشني. الأبواب الحديدية. الأصوات. الرائحة. الهواء الراكد الثقيل يجثم على صدري وقلبي.

لكن ما أن فتح باب العنبر حتى اتّسعت العيون بدهشة وفرح، وتعالت الأصوات الحميمة تهتف بسعادة:

وحشتينا... لم نتصوّر أن لك كل هذه الوحشة... كأنك غبت عنا عاماً كاملاً وليس يوماً واحداً.

جلسن حولي متلهفات يسألن ماذا حدث أثناء التحقيق. حكيت لهم القصة كما حدثت، وبتفاصيلها الدقيقة. مثلت لهم بعض حركات الضباط والمتحفَّظ عليهم من الزملاء داخل غرفة الانتظار. قلت لهن إن إصبع المدعي داخل الملف كانت كإبرة محاكم التفتيش تبحث عن علامة الشيطان.

ضحكنا حتى كاد يغمى علينا من الضحك.

كنت كمن يحكي مسرحية هزليَّة أو عبثية من مسرح اللامعقول. ورنّت الضحكات في العنبر. لكنها ليست إلا لحظات وعاد إليناالوجوم... والحزن. وقالت زميلة: لا أمل في التحقيق ولا أمل في العدالة، ولا أمل في شيء.. قلت ذلك مئات المرات.

وردَّت زميلة أخرى: لا أمل إلا في عدالة الله!

ودبّ الصمت الحزين الطويل طول الليل...

*

في منتصف الليل سمعت صوت أنين خافت. رأيت «اعتدال» راقدة على سريرها مفتوحة العينين. الدموع تغرق وجهها. شفتاها منفرجتان كأنها تتمتم بآيات القرآن. و «بدور» إلى جوارها تربت على كتفها وتقرأ لها بعض الآيات.

همست: أهي مريضة؟

ردت «بدور»: لا... خرجت إلى جلسة تحقيق ثم عادت بهذا الشكل.

وضعت يدي على رأسها. كانت ساخنة، ملتهبة كأنما أصيبت بحمى. جسمها يرتعش. وجهها شاحب. نزعت البطانية من فوق سريري وغطيتها، وأمسكت معصمها لأعد النبض. تعلقت عيناها بعيني وانفرجت شفتاها عن صوت خافت ممزّق كالأنفاس المتقطعة، أو هذيان المحموم:

أمي لم تحضر، لا بد أنها مريضة، لم تأت مع خالتي إلى الجلسة. خالتي كانت تذهب كل يوم إلى مكتب المدعي. كل يوم تذهب حتى ترى ابنها وتراني. لم يكن معها محام. وأنا لا أعرف شيئاً. بكيت وخفت أن أدخل وحدي إلى المدعي. رأيت ابن خالتي والحديد في يده. خالتي قالت إن المحامي يحتاج إلى فلوس وهي ليس معها فلوس. وقالت إن الناس قالوا لها إن المحامي ليس له فائدة. التهم خطيرة. والناس قالوا لها إن المسألة صعبة. أصعب حاجة في الدنيا ولا يمكن أي محام يحلها. والتهم كثيرة والمتهمون كثر والقرارات كثيرة. قرارات معروفة وقرارات غير معروفة وتحتاج إلى بحث طويل. وكل

القرارات المعروفة وغير المعروفة يحفظونها في مبنى كبير. والمحامي لا بد أن يذهب بنفسه والمكاتب كثيرة والأدوار كثيرة ليس لها عدد. إذا عرف الطريق ووصل إلى الباب الصحيح لا بد أن يترك بطاقته عند الدخول وينتظر في غرفة مع المحامين. غرفة المحامين بالدور الأسفل بجوار دورة المياه. خالتي رأتهم بعينها لأنها حاولت تدخل دورة المياه. منعوها وقالوا إنها البوفيه. رأت المحامين مكدَّسين في الغرفة مثل السردين... مائة أو ألف لا أحد يعرف. فوق بعض... واقفين طول النهار ينتظرون مثل شحاتين السيدة. ناس قالوا لخالتي إنهم ينتظرون تأشيرة رئيس المحكمة الكبيرة. وسألت خالتي عن اسم المحكمة. لا أحد يعرف، لا اسم المحكمة ولا اسم الرئيس. لكن قالوا لها إن التأشيرة مهمة. لا يمكن المحامي يعمل حاجة بدون التأشيرة. ولا يمكن الحصول على التأشيرة في يوم واحد. المسألة تأخذ وقت طويل. لأن الرئيس لا يحضر كل يوم، لأن عنده أعمالاً أخرى في مكاتب كثيرة في أدوار كثيرة والقرارات كلها عنده في درج مكتبه. ولا أحد معه مفتاح الدرج إلا هو شخصياً. وإذا سافر يأخذ المفتاح معه. وإذا غاب شهراً أو اثنين لا يمكن لأي واحد غيره يفتح الدرج. ناس قالوا لخالتي إن القرارات سرِّية ولها أرقام سرِّية. لكن كل قرار له رقم مسلسل. ومادام الرقم مسلسلاً يبقى له تاريخ باليوم والساعة. ولا بد أن المحامي يعرف الرقم والتاريخ. بدون الرقم والتاريخ لا يمكن يحصل على القرار. لكن مادام الأرقام مسلسلة لا بد أن القرار يظهر ويبان ولو بعد عام. لكن المهم أن المحامي يعرف السكة، أو يعرف

شخصاً يعرف الرئيس أو الوكيل أو السكرتير أو حتى الفراش. خالتي عرفت الفراش وقالت الفراش أهم واحد لأنه أول واحد يعرف إذا كان الرئيس موجوداً أو غير موجود. مسافراً أو غير مسافر. لكن المحامي الصالح صاحب الضمير لا بد أن يصل لأن الله مع الصالحين. وخالتي تعرف محامياً عنده ضمير لكنها تقول إنه شاب خام ولا يعرف أحداً. طلب منها ثلاثين جنيهاً تحت الحساب. لم يكن معها إلا عشرة جنيهات. ولأنه عنده ضمير قال لها الحقيقة بصراحة ورفض أن يأخذ العشرة جنيهات. قال لها ضعي الفلوس في جيبك يا حاجة، ولا فائدة مني أو أي محام. لا فائدة من الحصول على رقم القرار أو حتى القرار نفسه. لأن المسألة ليست قراراً، ولا رقماً، ولا أي حاجة. المسألة كبيرة وصعبة ولا يمكن يحلها محام ولا قاضٍ. لا يمكن يحلها إلا الله سبحانه وتعالى. وخالتي ضربت كفاً بكف وقالت له أعمل ايه يا أستاذ. قال لها توضأي وصلِّي لله يا حاجة!... رأيت خالتي تبكي، وبكيت مثلها. ودخلت للمدعي وحدي أرتعش من الخوف. سألني إسمك ايه يا شاطرة. قلت له اسمي اعتدال... قال لي واسم أبوكِ، واسم جدك... قلت له كل الأسماء حتى اسم أمي واسم خالتي. كتب كل حاجة في ورقة وقال لي: أنت فين يا اعتدال. قلت أنا في سجن القناطر في عنبر السياسيات. قال لي مين معاكِ يا اعتدال في العنبر. قلت له معايا ناس كويسين. قال لي: مثل مين يا اعتدال. قلت له معايا دكتورة اسمها نوال السعداوي. قال لي: نوال السعداوي معاكم. خلي بالك منها. قلت له أخلي بالي منها ليه. قال لي: خلي بالك من

كلامها، يمكن تسحرك بكلامها، وتقلب لك عقلك. قلت له: هي ست كويسة وكلامها كويس، واحنا كلنا كويسين مع بعض. قال لي: طيب روحي يا اعتدال. قلت له. أروح بيتنا. قال لي: قصدي تروحي السجن وبكرة عندك جلسة ثانية هنا عندي. قلت له: طيب وليه بكرة، ما تسألني كل حاجة النهاردة عشان أخلص، وبلاش آجي بكرة تاني. قال لي: أنا ورايا ناس كتير غيرك النهاردة، وبكره إن شاء الله تيجي تاني يا اعتدال. قلت لك: وآجي إزاي. قال لي: هم عارفين وهم اللي حايجبوكي، ولا تحملي أي همّ أنت.

*

الجــزء الخــامــس

موت السادات

تبددت بارقة الأمل في العدالة بعد جلسة التحقيق. تأكدت أن لا قانون ولا قضاء ولا عدالة. أما هذا الجهاز المسمى بالمدعي العام، أو المدعي الاشتراكي العام فليس إلا جهازاً لإلغاء القانون، وطمس الحق والحقيقة. أين القضاء المصري؟ أين المحاكم؟!

بدأت أشعر وطأة السجن. زميلاتي من حولي صامتات حزينات. انكشف سر المدعي العام، لا أمل في إفراج طالما أن السادات صاحب السلطة.

إلى متى يظل صاحب السلطة؟!

حين يشتد بنا الحزن واليأس نظن أنه سيظل صاحب السلطة إلى الأبد. أننا سنموت في السجن وندفن تحت الجدار وهو سيظل قابضاً على السلطة المطلقة بكلتا يديه.

حين يشطح بنا الخيال الجامح نتصور أنه أصيب بمرض

عضال، أو شلل مفاجىء، يمنعه من الاستمرار في الإمساك بالسلطة.

إذا أصابتنا نوبة أمل مجنونة يلوح لنا في المنام أو الحلم انقلاب في الجيش يعزله عن الحكم بمثل ما حدث للملك فاروق.

لم يكن لعقولنا الظاهرة أو الباطنة أن يخطر لها أكثر من ذلك.

لم يكن موته أمراً وارداً لأي عقل أو خيال، في يقظة أو منام. سمعنا أنه يحافظ على صحته. ينام كثيراً ويعمل قليلاً، ويتريض في الهواء الطلق، ويأكل طعاماً صحياً، ولا يفكر كثيراً. الذين يفكرون يموتون مبكراً، والذين لا يفكرون تظل أجسادهم قوية. موته ضرب من المستحيل. لم نسمح لأنفسنا أن نحلم به. مثل هذه الأحلام قد تضعف الإنسان. وبالغريزة وحدها غابت عنا الأحلام البعيدة.

ثم جاء ذلك اليوم... كنا جالسات على الأرض، ظهورنا إلى الجدار... قلوبنا ثقيلة... عيوننا ملتهبة بالغبار... وجوهنا مبقعة بهباب المدخنة الأسود... أقدامنا مشقّقة تطل من الشباشب البلاستيك... جلابيبنا معفّرة بالتراب عليها بقع من كل لون. شعورنا منكوشة. جالسات وراء القضبان كحيوانات حبيسة داخل أقفاص حديدية.

رفعت عيني وانفرجت شفتاي لأقول شيئاً. لكني أطبقت شفتي. ماذا أقول وقد انطفأ آخر بصيص من الأمل.

وفجأة رأينا «ذوبة» تفتح الباب وتدخل إلينا وهي تلهث... وجهها الأسمر متوهج بالحمرة وعيناها كالجمرتين.. هتفت بأنفاس كالشهيق: هل عرفتم الخبر؟!

ـ أي خبير!

ـ السادات... ضربوه بالرصاص!

حركة شفتيها وهي تنطق الكلمات بدت لي كحركة خارج هذا الكون. واللحظة كلها خارج الكون.

دارت الأرض، ودارت الشفتان السمراوان دورة كاملة كدورة الأرض حول نفسها. أصبح وجه ذوبة شفتين بحجم الكرة الأرضية تدوران وتلفان وترددان: ضربوه بالرصاص!

لم أكن وحدي الذي حدث لها ذلك. رأيت الوجوه من حولي كلها محتقنة بالدم. العيون متّسعة. الأيادي تمسك بذوبة.. بذراعها، بساقها، برأسها، تهزّها، ترجّها، يتأكدان أنها يقظة، أنها بكامل عقلها. أنها لا تهذي.. وهي تردد بلا وعي... ضربوه... ضربوه...

هيستيريا اجتاحت العنبر... أجساد ترتمي فوق ذوبة بلا وعي. تعانقها. تقبلها. ذوبة تختنق بالعناق والقبلات. تشدّ نفسها من تحت الأجساد. لاتزال تشهق: ضربوه!

والجميع يشهقن في نفس واحد: ومات؟!

وترد ذوبة شاهقة: معرفش!

وتجمّد عضلات الوجه. وعضلات اللسان. تتجمد عضلات الصدر ويكفّ الهواء عن الحركة. تكف الصدور عن الحركة. يتجمد اللسان في الحلق. تلتصق الكلمة بالحلق:

لم يمت؟

وتشهق ذوبة: معرفشي

العيون جاحظة تدور حول نفسها، كالبندول. زائغة. حائرة... مرعوبة بالأمل الجامح المفاجىء وهو يتلاشى كالسراب.

الصدور تنتفخ بالأمل حتى تنفجر. ثم تتقلّص وتهوي إلى القاع، قاع اليأس وصرخت واحدة: لو عاش!!

وشهقن: لن يرحم أحداً!.... سيذبحنا جميعاً... سينتقم منا.

وتساقط الأجساد بعضها فوق بعض، فوق ذوبة التي ما زالت تشد نفسها من بينهن وهي تشهق: إذا جاء ضابط المباحث الآن!

تفرقن بعيداً عنها. الكل يلهث بالانفعال الطاغي. يحاولن التحكم فيه. تشد كل منهن عضلات شفتيها لتغلق فمها. لتكتم صوتها.

همست واحدة: احكي يا ذوبة... كيف عرفت الخبر؟! من ضربه وأين ومتى؟!

ساوت ذوبة شعرها الذي نكش، وجلبابها الذي تهدّل تحت الأيادي والأذرع. كأنما خرجت من معركة جسدية. بلعت ريقها

وقالت: سمعت الخبر الآن في التلفزيون. كنت في العنبر وكلنا بنتفرّج على العرض العسكري، وفجأة سمعنا طلقات الرصاص، والإرسال وقف... وسمعنا من يقول إن السادات ضربوه بالرصاص ونقلوه للمستشفى.

كان الوقت ظهراً.... والساعة تقارب الثانية.. مازال أمامنا ساعتان حتى موعد التمام في الساعة الرابعة. لم نكن نخرج «الراديو» «الترانزستور» من مخبئه في بطن الأرض إلا بعد ساعة التمام. حين ينغلق علينا البابان الحديديان وتعود الشاويشة إلى بيتها، وكل إدارة السجن تصبح في البيوت.

وقلت: لا بد أن نخرج الراديو ونتابع الأخبار.

وهتفن جميعاً في نفس واحد: فلنخرج الراديو!

حتى «فوقية» أكثرنا حذراً قفزت لتخرج الراديو من المخبأ. و «بدور» التي كانت تعتبر «الراديو» جهازاً شيطانياً مصيره جهنم لأنه يغني بخلاعة، هتفت قائلة: لنسمع الراديو!

أخرجنا الجهاز السحري الصغير بحجم كف اليد. أمسكته وحوّطته بكفي. قلبي يدق. وضعته فوق أذني ولم أسمع إلا دقات قلبي، ودقات قلوب الزميلات. رؤوسهن إلى جوار رأسي، يقربن آذانهن من ذلك الشيء الصغير بحجم علبة السجائر.

انبعث الصوت السحري يقول: هنا القاهرة..

وتوقفت القلوب عن الدق. توقفت الأنفاس...

تصورنا أنه سيعلن نبأ الوفاة... ودبَّ صمت ثقيل طويل. لا

صوت ولا حركة صدورنا متوقفة. أنفاسنا مقطوعة تماماً.

وفجأة انطلق صوت مطربة تغني... تجمعت الدماء في عروقنا. صرخت «فوقية» وهي تلطم خديها: نجا من الموت!

وشهقت الأخريات بشفاه جافة: كارثة!

ارتفع صوت المطربة في العنبر...

صرخت ذوبة وهي ترمق الباب: الشاويشة جاءت يا جماعة... خبئوا الراديو!

كان الراديو في يدي فكتمت صوته، وأسرعت إلى دورة المياه. اختفيت داخل المرحاض.

من وراء نصف الباب المغلق سمعت صوت الشاويشة تخاطب ذوبة: ماذا تفعلين هنا يا بت ياذوبة؟ لم تمسحي العنبر ولم تكنسي الحوش. اذهبي إلى عنبرك حالاً! لا أريد أن أرى وجهك هنا!

صوتها مضطرب. يخفي شيئاً. لا بد أنها سمعت الخبر، وتريد أن تمنعه من التسرب إلينا.

دب الصمت في العنبر.

مزق الصمت صوت فوقية. صوتها مثل كل يوم هادىء خال من الانفعال. قالت:

يا شاويشة... هل هناك أخبار جديدة؟

وجاء صوت الشاويشة أيضاً هادئاً مثل صوتها كل يوم خالياً من أيّ انفعال جديد.

قالت: أبداً... لا أخبار ولا حاجة... الدنيا هي الدنيا....

ذبذبة خفيفة في صوتها. رعشة خفيّة لا يمكن أن تلحظها أذن. صوت مدرّب على إخفاء الحقائق. يصل الصوت إلى أذني وأنا واقفة في المرحاض دون أن أرى عينيها.

انتظرت حتى سمعت صوت زميلة تهتف من وراء نصف الباب المكسور: انصرفت الشاويشة...

وقلت: ربما تأتي مرة أخرى... أو ربما يأتي ضابط المباحث... سأظل هنا وراء هذا الباب أتابع الأخبار في الراديو... وإذا لمحت أي أحد قادم في الفناء أخبريني بسرعة.

قالت: سأراقب باب الحوش، لا ترفعي صوت الراديو... ضعيه فوق أذنك.

قلت: إنه فوق أذني.

قالت: إذا لمحت أي أحد سأهتف قائلة:

يا إلّه السماوات.. هذه هي الإشارة... يا إلّه السماوات!

كان المرحاض ضيّقاً، خانقاً. أسندت ظهري إلى الجدار. أمام وجهي نصف الباب المكسور. إذا حرّكت ذراعي ارتطم كوعي بالجدار عن يميني أو عن يساري. الثقب المملوء بالبراز والماء العفن يحتلّ نصف مساحة المرحاض. لا يمكن أن أقف دون أن يكون الثقب بين قدمي.

ثلاث ساعات وقفتها على هذا النحو. كالمصلوبة. ذراع

مرفوعة إلى أعلى بالقرب من رأسي، في نهايته ذلك الشيء المعدنيّ المربع ملتصق بأذني. . . . ذراعي الثاني مرفوعة أيضاً. . . وإصبع يحرّك ذلك المسمار الدائريّ. . . هنا لندن. . . هنا القاهرة. . . صوت أميركا. . . مونت كارلو. . . وأصوات بكل اللغات. . . وسمعت صوتاً يقول: الإصابة خفيفة. . . ليست خطيرة. . . في الذراع فقط!

دارت الأرض. انطبقت جدران المرحاض عليّ. توقفت عن التنفس. تصبب العرق من رأسي وذراعي وساقي، والتصق الجلباب بجسدي.

فتحت الباب بسرعة خوفاً من الاختناق. . . التفتت حولي الزميلات. قلت بصوت خائر يائس: الإصابة خفيفة. . . في الذراع!

وسقطت الأجساد على الأرض. . . بعضها في إغماء. . . بعضها في غيبوبة. . .

قاومت اليأس. . . شددت جسدي من فوق الأرض. حركت ساقي المشلولتين. . .

وقلت: سأتابع الأخبار. . . ربما تكون هذه الأخبار كاذبة. . . يقاومون الارتباك المفاجىء الذي قد يحدثه موته. . . ربما يخفون خبر موته حتى يفيقوا من الصدمة. ويستعدوا للدفاع عن مصالحهم في الشرق الأوسط بدونه.

عدت إلى مكاني في المرحاض. صلّبت نفسي بين الجدار

والباب وبين قدميّ الثقب العفن. . . الإصابة لا تزال خفيفة. . . لكن صوت المذيع فيه ذبذبة ورعشة الصوت الذي يخفي الحقيقة. . . . سمعت زميلة تهتف: يا إله السماوات!

تذكرت الإشارة فضغطت بيدي على المسمار وقطعت الصوت. سمعت صوت الشاويشة في الحوش. . . .

ـ تصبحوا على خير يا ستات.

ـ وأنت من أهله يا شاويشة.

ودار المفتاح في باب العنبر ثلاث دورات. . . انتظرت حتى سمعت المفتاح يدور في باب الحوش الدورات الثلاث. . . ثم قفزت خارج المرحاض.

جلست على السرير ومن حولي الزميلات.

رؤوسنا متلاصقة، آذاننا نقرّبها ما أمكن من تلك الثقوب، كثقوب الإبرة، في ذلك الشيء المعدنيّ بحجم كفّ اليد. الأنفاس تتلاحق والرؤوس تتزاحم. . .

وسمعنا الصوت: هنا لندن. . .

ودبَّ الصمت. . . وكتمنا أنفاسنا. . .

وجاء الصوت الهادىء يقول: جاءتنا أنباء مؤكَّدة تقول إن السادات توفى!. . . وانتفضت كل الأجساد في الهواء. سقط الراديو على الأرض ولم تنتبه إليه واحدة.

لحظة خارج الزمن، وخارج الكون. لا يمكن الإحساس بها. ربما فقدنا حواسنا الخمس فلم نعد نرى أو نسمع شيئاً. . . .

الأشياء من حولي تدور وتدور. أمسكت رأسي. حلم أم علم؟! وما هذا الذي يدور من حولي؟! العنبر؟ أم أنا التي تدور؟!

أفقت على مشهد عجيب. «بدور» تدور حول نفسها، بدون نقاب وبدون عباءة، تدور وترقص، ومن حولها الزميلات المنقبات، يرقصن عاريات الشعر، بدون نقاب أو حجاب، الأجسام تهتزّ بعنف، والخصر ينثني والبطن يرتج، والرؤوس تتمايل والشعور تتطاير.

ومشهد آخر أعجب. «فوقية» التي لم تركع في حياتها ركعة واحدة... رأيتها ساجدة على الأرض، رافعة يديها إلى أعلى وهي تصيح: أحمدك يا رب.... ومن حولها الزميلات الأخريات ساجدات راكعات.

يهتفن في نفس واحد: نحمدك يا رب!

كنت أنا مشغولة عن الرقص وعن الصلاة بشيء أعجب. هو محاولة الإمساك باللّحظة. أخشى أن تفلت اللحظة وأفتح عيني وأدرك أنه حلم. أتطلّع إلى جدران السجن والقضبان وأقول: ليس حلماً بدليل أنني في السجن.

وهتفت فوقية بصوت هيستيري تقلّد صوت السادات في خطبه: لن أرحم... وصاحت «بدور»: سبحانك ربي...

لا زلت عاجزة عن الإمساك باللّحظة. عقلي يدرك الحقيقة. قلبي ينتفخ بالفرح والأمل. لكن خليَّة في عقلي لا تزال قلقة

متوجِّسة.... لا زلنا وراء القضبان... من قتل السادات. وما الذي سيحدث؟!... أي شيء يمكن أن يحدث... ربما انقلاب... ربما ثورة... ربما يطلق سراحنا... وربما يذبحوننا داخل السجون... كل شيء وارد وأي شيء ممكن، ما دامت رصاصة انطلقت وقتلت رئيس الجمهوريَّة وهو محاط بالحرّاس والبوليس والجيش.

من أطلق الرصاصة؟! وكيف؟!

أول مرة في تاريخ مصر، تنطلق رصاصة وتقتل رئيس الجمهوريّة. أي لحظة تاريخيَّة أعيشها بجسدي وعقلي وأنا داخل هذا السجن!

هتفت «بدور»: من قتل يقتل ولو بعد حين.

قلبي يدقُّ تحت ضلوعي. الفرح يختلط بالقلق. الحقيقة تمتزج بالخيال. عيناي تتابعان الرقص والسجود، وتنتقلان من السقف إلى الجدران.... ومن بعيد يلوح لي وجه زوجي، ابنتي، ابني... لا بد عرفوا الخبر. ماذا يفعلون..

بدأ الحلم يلوح من بعيد... طردته لحظة ثم أعدته إليّ.... رأيت نفسي في بيتي، ثم طردت الفكرة.. أعدتها إليّ ثم طردتها مرة أخرى.. أنفاسي تتلاحق. صدري يعلو ويهبط... الدم يتدفَّق في رأسي. شريان في عقلي يكاد ينفجر.

نهضت فجأة وقلت: حتى إذا لم نخرج من هنا يا جماعة فقد تحرَّرت البلد! وهتفنا في نفس واحد: نعم تحرَّرت البلد!

ولم يغمض لنا جفن تلك الليلة. تدفق الدم في شرايين المخ وطرد النوم. وتسلّلت الأحلام والآمال لتبدد ظلام الليل.

سمعنا الطبل والرقص ينبعث من العنابر الأخرى. صوت الشاويشة «نوبتجية الليل» يرن في الليل ويقول لنا من خلال القضبان: مبروك يا سياسيّات. مبروك عليكم وإن شاء الله كلكم إفراج، والبلد كلها إفراج إن شاء الله!

ودوّت أصوات في السجن تنشد:

دولا مين دولامين دولا عساكر مصريين!

دولا مين دولامين دولا ولادنا الوطنيين!

وهتفت «بدور»: العيد بكرة يا جماعة... العيد الكبير!

وانطلقت الأصوات تغني: يا ليلة العيد أنستينا... وجددت الأمل فينا... يا ليلة العيد!

*

في الصباح جلسنا كالمعتاد. خبأنا الراديو في بطن الأرض، وضعنا الأقنعة على وجوهنا. تظاهرنا أننا لم نعرف الخبر. أننا لا زلنا نعيش في عهد السادات. الحزن مرسوم على وجوهنا... واليأس...

دخلت إلينا إدارة السجن بكامل هيئتها. بعضهم يرتدي رباط عنق أسود. وجوههم شاحبة. عيونهم حمراء. لا بد أنهم لم يناموا الليل مثلنا.

قلق يجري في العيون كالزئبق. لا يعرفون ما الذي سيحدث. عندهم أوامر بإخفاء خبر الوفاة عن المتحفِّظ عليهم.

هتفت «بدور» بصوت خافت: النهاردة العيد.. كل سنة وأنتم طيبين.

قالت زميلة من المنقبات: نريد أن نشتري لحمة العيد. كل الناس ستأكل لحم في العيد إلا نحن.

قال مسؤول السجن: سنشتري لكم لحماً وعندكم فلوس في الأمانات.

هتفت «بدور»: لا! نحن لا نأكل اللحم من السوق... لا نعرف من ذبحه، وهل ذبح على الطريقة الإسلامية أم لا... نريد أن نشتري فرختين ونذبحهما بأنفسنا. ابتسم مسؤول السجن وقال: سنشتري لكم فراخاً صاحية لتذبحوها على الطريقة الإسلامية.

ثبتُّ عيني على وجه ضابط المباحث. عيناه تتحركان بسرعة. قلق واضح يحاول أن يخفيه. ومن تحت القلق شيء كالرّاحة العميقة أو الفرح الخفي.... تنفرج شفتاه كأنما سيلقي علينا بالنبأ، لكنه يتراجع ويطبق شفتيه في صمت. مسؤول السجن أيضاً يخفي سروره. لكن عيناه تفضحانه. عيناه تلمعان بابتسامة وقبل أن يستدير ليخرج قال: عيد سعيد يا جماعة...

وكل سنة وأنتم بخير

رأيت ظهورهم من الخلف. ظهور محنيَّة قليلاً. يبدو عليها

التعب. القلق. الحيرة. رجال أصبحوا بحكم الوظيفة حراس سجون. أو جلّادين. أو جواسيس على غيرهم من البشر. في أعماقهم الإنسان مازال قابعاً. . كامناً. . ما أن يتغيَّر المناخ الفاسد حتى يطلَّ الإنسان برأسه، يتشمَّم رائحة الهواء النقي.

لماذا أخفوا عنا خبر الوفاة؟ هل جاءتهم تعليمات من فوق بإخفاء الخبر؟ أم هي العادة، والتعوُّد، وعادات يكتسبها من يعملون في تلك المهن؟

قبل أن يخرجوا تماماً من الباب ناديت عليهم. استداروا نحوي. ثبّت عيني في عيني المسؤول الأكبر معهم، وقلت له: أريد ورقة وقلماً لأكتب طلباً للسادات!

كان صوتي عادياً كأن السادات مازال يعيش. رأيت الاهتزازة في العيون. والشحوب في الوجه. رعشة العضلات حول الفم. انفرجت الشفاه عن حركة أشبه بالخوف. الحيرة. المفاجأة. التردّد. ثم الصمت.

خيالي القصصي وشيطاني الفنيّ يسجل هذه اللحظة. يرسم الصورة، والمأساة، الإنسان المحبوس داخل الخوف. . .

*

لا بد عرفوا أننا نعرف. السجن كله يعرف، العنابر كلها بها راديو، أو تلفزيون، فكيف لا يصلنا الخبر؟!

لم يكن في إمكانهم إخفاء الخبرأكثر من يوم واحد. في اليوم

التالي جاؤوا باسمين. . . متوددين. . . . يتحدَّثون معنا بلهجة مختلفة.

ضحك أحدهم قائلاً: من يدري ماذا يحدث غداً؟ هذه هي السياسة!

يوم في السجن! ويوم في الحكم! . .

وقالت «بدور» ويوم في القبر!

وساد الصمت. لا أحد يريد أن يتذكَّر حادث الاغتيال. لا أحد يعرف ما الذي يحدث غداً. صحيح أنه مات. . . لكن من يضمن أنه لن يصحو مرة أخرى؟! بعض الناس تصوَّروه فوق البشر، يعيش أو يحكم مدى الحياة!

عيونهم لا تزال مليئة بالخوف والقلق. لا شيء مضمون. ولا أحد يعرف الغيب.

وهل توقع أحد أن هذا الإلّه الذي جلس على العرش وصاح قائلاً: لن أرحم! أنه سينكفىء على وجهه فوق الأرض، وتدوس الأقدام (وهي تجري بعيداً عنه) على قبعة رأسه وعلى الأوسمة والنياشين وعلى النجمة التي علَّقها فوق صدره؟

*

في ٢٨ سبتمبر ١٩٨١ خرجت للتحقيق أمام المدّعي الاشتراكي، وعدت إلى السجن. بعد أسبوع واحد من ذلك التاريخ، في ٦ أكتوبر ١٩٨١ مات السادات بالرصاص، بعد شهر واحد من ذلك اليوم (٦ سبتمبر١٩٨١) الذي أرسل فيه رجال

بوليسه ليكسروا باب بيتي ويأخذوني إلى السجن. . . .

ولاح أمل الخروج بعد موت السادات. استيقظت كل الأحلام، واستيقظت معها المشاعر الطبيعية. القلق. الانتظار. الترقب.

فقدت الاستقرار والهدوء. لم أعد أستطيع التركيز في شيء. عجزت حتى عن الكتابة. . . ما أن أمسك القلم حتى يلوح لي وجه زوجي، وابنتي، وابني. . . . ويشتغل خيالي، أتصوَّر نفسي حاملة حقيبتي واقفة أمام باب بيتي أدق الجرس. . . ويفتحون الباب!

أجلس على الأرض الترابيَّة وأحاول التفكير في شيء آخر. لكن خلايا عقلي لم تعد قادرة على ذلك. الحلم الذي لم أسمح لنفسي أن أحلم به قبل موت السادات أصبح هو الحلم الوحيد الذي يملأ رأسي. . . . يطرد كل الأفكار الأخرى. . يطرد الراحة. . . يطرد النوم. . . . يطرد الهدوء أو الاستقرار.

أصبحت عاجزة عن الجلوس. أو الوقوف. . . أو السكون بضع دقائق.

جسمي يتحرّك وحده. . أجلس، وأقف، وأتمشى في العنبر، ولا أتوقف.

وما أن يرنّ أي صوت حتى أتلفت. أتصوَّر أن الصوت يناديني. . . وأن أحداً يقول أعدي الحقيبة.

*

لكن الأيام مرَّت، اليوم وراء اليوم، ولم نسمع عن قرار جديد يلغي قرار السادات بالتحفظ علينا.

بدأ التغيير داخل السجن. سمحوا لنا بقراءة الصحف. وسماع الراديو. والحصول على أطعمة من البيوت. وإرسال خطابات إلى أهلنا.

انتهت فترة التكدير، وحَصلنا على ما تحصل عليه المسجونات الأخريات إلا الخروج إلى الفناء، وحرمنا أيضاً من رؤية أهالينا.

لكن كل ثلاثاء في الساعة الواحدة بعد الظهر يدخل ضابط المباحث يحمل لي رسالة من زوجي، ومن خلفه واحدة من المسجونات أو الشاويشة تحمل علب الطعام.

الرسالة قرأها من قبلي ضابط المباحث. قرأها قبل أن أقرأها أنا. يسلِّمني الرسالة وهو يبتسم قائلاً: دكتور شريف جاء وهذه رسالته إليك.

الرسالة مفتوحة. وعلب الأطعمة مفتوحة. كل شيء لا بد أن يفتش بدقة قبل أن يصل إلينا. لكن كلمات شريف على الورق تعيدني إلى الحياة. نقاط ضوء في الظلام. . .

منذ شتاء ١٩٦٤ وشريف في حياتي. لحظات الحب. لمسات دافئة كشعاع الشمس في الشتاء. حوار ممتع يمتد في الأعماق. الرجال من حوله يبدون في عيني ثرثارين، كالأطفال، وهو صامت. لكن إذا ما تكلم صمت الآخرون. قضى في السجن

ثلاثة عشر عاماً من شبابه. متواضع إلى حد العظمة، وعظيم إلى حد التواضع. قويّ إلى حد الرقة والشفافية. رقيق إلى حد الصلابة والقوة الحقيقية.

نادر كنسمة هواء نقي في سجن القناطر. كرأي صادق شجاع في مجتمع مغشوش. قلت بغضب لضابط المباحث: أيحضر زوجي إلى السجن فلا أراه؟

قال: الزيارات ممنوعة.

قلت: إذن سأكتب إليه أطلب منه ألّا يأتي. لا أريده يقطع كل هذه المسافة لمجرَّد أن يحمل لي علب الطعام. لا أريد طعاماً، وكتبت الرسالة، وحملها إليه ضابط المباحث.

لكن شريف ظلَّ يأتي إلى السجن كل ثلاثاء دون أن يراني. يترك علب الطعام والرسالة ثم يمضي بهدوء.

وأصبحت أنتظر الثلاثاء من كل أسبوع. أحوط الرسالة بيدي وعيني وأقرأها، ثم أعيد قراءتها، وأغمض عيني وأحلم أنني أسبح في بحر من ضوء الشمس.

ما أن يتردّد صوت الكروان فجر الثلاثاء حتى أرى العيون من خلال ثقوب النقاب تلمع وتنظر إليّ باسمة: اليوم الثلاثاء يا دكتورة نوال... طبعاً... الدنيا لا تسعك اليوم!

وتفتح الزميلات عيونهن باسمات هاتفات: الثلاثاء يا نوال... الثلاثاء!

ومن خلال القضبان أرى ضوء الفجر يمزّق ظلال الليل، ونسمة منعشة تبدّد الدخان والغبار.

*

قرأنا في الصحف ذات يوم أن حسني مبارك أصدر قراراً بإلغاء الإعلانات في الصحف وعدم نشر صورته كرئيس للجمهورية داخل هذه الإعلانات في المناسبات والأعياد. صفقت الزميلات فرحاً.

كنا نرى صور السادات داخل الإعلانات التجارية عن شركات الأمن الغذائيّ، أو أيٍّ شركة أخرى، أو أي محل تجاري.... ما أن يقبل عيد من الأعياد حتى يتبارى التجّار وأصحاب الشركات على نشر التهاني للسادات، وإعلان التأييد والولاء.

حتى كبار الموظفين في الحكومة والمحافظات، ورؤساء المؤسسات والقطاع العام كانوا يشتركون في هذه الاعلانات وينشرون صور السادات وتحتها كلمات الولاء والتأييد...

إعلانات وصور للسادات في كل مكان، عند ناصية أي شارع، في كل ميدان، في كل إعلان، على جميع صفحات الصحف والمجلّات، على الشاشة الكبيرة، وشاشة التلفزيون.

لا يمكن أن ترفع عينيك إلى شيء ما دون أن ترى صورة للسادات، مكبَّرة، أو مصغرة، باسماً، أو مقطباً، بالملابس العسكرية أو البدلة البحرية، أو البدلة المدنية، أو وشاح القضاء، أو عباءة القرية.

صور وإعلانات كانت تكلّف الدولة ملايين الجنيهات. ولا بد أن يشارك كل مسؤول في أي قطاع في موكب الإعلانات... وإلا أصبح غريباً ولا يطاق.. وقد يتعرّض للاضطهاد.

وهتفت زميلة: إذن حسني مبارك مختلف ولا يحب النفاق والزيف!

وقالت زميلة: مواكب النفاق لا تنفع أحداً... أين كانوا حين مات السادات؟.... اختفوا جميعاً مذعورين... تركوه يموت وحده، ويدفن وحده.

وقالت أخرى: جنازة السادات كانت بدون شعب. سار وراءه بعض الأجانب ورؤساء اسرائيل وأميركا....

وردّت زميلة: لا يحزن على الميت إلا أهله ومن يستفيدون منه.

قلت: هل يمكن أن تتغيّر الأحوال في بلدنا؟

أمل بدأ يلوح في الأفق. هذا الرئيس الجديد لا يريد دعاية لنفسه عن طريق الإعلانات التجارية أو شركات الانفتاح.

الدعاية الحقيقية لأي حاكم هي عمله.

هل يمكن أن نخطو بضع خطوات إلى الأمام؟

ومع ذلك قرأنا بالصحف أن رئيس الجمهورية يعلن أن التحفّظ ليس عقوبة.

أصابتنا الدهشة، وقرّرنا أن نكتب له برقيّة.

إذا كان التحفظ هو وضعنا داخل السجن فكيف لا يكون عقوبة؟! خلال حياة السادات رفضنا أن نوجه له طلباً أي طلب. رفضنا أن نخاطبه أو نرسل إليه أي ورقة أو احتجاج.

لكن الرئيس الجديد ليس هو الذي حبسنا، ويمكن لنا أن نخاطبه. طلبنا ورقة وقلماً، وجلسنا على الأرض وكتبنا البرقية كالآتي:

السيد حسني مبارك رئيس الجمهورية

قرأنا تصريحكم في الصحف بأن التحفّظ ليس عقوبة. ولم نفهم هذه العبارة. لأن الحبس وراء القضبان داخل السجن عقوبة في حد ذاته. فما بال أن نحرم أيضاً من الحقوق القانونيّة والإنسانيّة للمتهم تحت التحقيق. لا زلنا حتى اليوم محرومات من حق تحديد التهم الموجّهة إلينا. ولم يبت في وضع من تمّ التحقيق معهن. وما زلنا محرومات من مقابلة المحامين، والأهل وتفرض الرقابة على مراسلاتنا مع أسرنا. ولا يصلنا ما يفيد وصولها إليهم. ولا يسمح لنا بالخروج إلى فناء السجن مثل بقيّة المسجونات العاديات. ونعيش داخل عنبر التسوّل. في مكان مشبع بالدخان والتراب وبخار الجاز المحروق، والحشرات الناقلة للعدوى، مما يوقع بنا أبلغ الضرر الماديّ والمعنويّ، ويجعل من التحفّظ عقوبة مضاعفة وليس عقوبة واحدة.

وقّعنا جميعاً على البرقية وسلمناها لضابط المباحث، وطلبنا الرد عليها.

ولم يصلنا أي رد. لم نعرف هل وصلت البرقية أم لا. سألنا ضابط المباحث عنها فقال: سلّمتها لرئاستي في المكتب ولا أعرف عنها أكثر من ذلك، ولا بد أنها وصلت.

مرّت الأيام والأسابيع. ساد التشاؤم. تبدّد الأمل. بدأ المرض يهدّد صحة بعض الزميلات. أصيبت إحداهن بنزيف وطلبت طبيباً اختصاصياً في أمراض النساء من خارج السجن.

اكتشفنا أن سجن النساء ليس به طبيب أو طبيبة لأمراض النساء.

إحدى الزميلات كانت حاملاً في الشهور الأخيرة، وبدأت تصاب بنوبات ضعف وإغماء.

أما أنا فقد بدأت آلام العمود الفقريّ بسبب النوم غير المريح، ورطوبة الأرض، والهواء البارد يدخل في الليل من بين القضبان، مع انتهاء الخريف وبداية الشتاء.

ارتجفت إحدى الزميلات من البرد ذات ليلة. شحب لونها وارتعشت أطرافها، وقالت: لا بد أن يسدوا الباب والنوافذ. لا أستطيع أن أبقى داخل هذا العنبر في الشتاء!

صاحت زميلة أخرى: سأموت إذا قضيت الشتاء هنا.

بدأت كلمة «الموت» تتردد على ألسنة الزميلات. الجو خانق مقبض. دخان المدخنة تضاعف وازداد سواداً وكثافة. قطعة السماء فوق الحوش الترابي أصبحت رماديّة بلون التراب. ذوبة

مرضت ولم تعد تأتي إلينا. الشاويشة خطواتها ازدادت بطئاً وثقلاً. تلف حول رأسها شالاً أسود وفي قدميها جورب سميك أسود. فتحية القتالة أخذوها في المشغل.

قلبي ثقيل. في أعماقي صراع ضد المرض، وضد الموت، وضد التشاؤم. لكن الوجوه من حولي شاحبة. العيون ضاعت منها فورة الغضب. نظرات يائسة مستسلمة كأنما تنتظر دورها في الموت.

*

فتحنا عيوننا في الصباح على خبر في الصحف. أحد زملائنا المتحفظ عليهم مات في السجن.

صاحت الزميلات في نفس واحد: بدأ الموت في سجن الرجال وسوف يأتي إلينا حالاً.

استيقظت غريزة الدفاع عن البقاء. تلاشت النظرة اليائسة المستسلمة، ورأيت العيون تتأجج بالبريق الجديد كالشعلة. كاليقظة الأخيرة قبل النفس الأخير.

التحفّز الإنساني قبل انتهاء الإنسان.

بدأت الأجسام تدبّ فيها الحركة. حركة شبه مجنونة لا تكفّ ولا تهدأ، وسؤال واحد يخترق خلايا المخ الراكدة فيبعث فيها حركة، وحيرة شبه مجنونة لا تسكن ولا تهدأ: ماذا نفعل؟ الموت يقترب فهل نسكت؟ هل نموت؟! واستيقظ المارد في أعماقي

مردداً كلماته: لن نموت! وإذا متنا فلن نموت ساكتات! لن نمضي في الليل دون ضجّة. لا بد أن نغضب ونغضب!

وتجمّعنا على شكل دائرة. رؤوسنا متجاورة. حتى «بدور» و «فوقية» رأيتهما معنا داخل الدائرة. وقفنا متجاورات، متلاصقات تستند الواحدة على ذراع الأخرى.

ماذا نفعل؟

نحن أربع عشرة، ولكل واحدة ذراعان. ثماني وعشرون ذراعاً... لو أمسك كل ذراع بشيء ما يمكن أن نضرب الباب ونكسره.

انطلقت كل واحدة فينا تجري داخل العنبر. واحدة خلعت عموداً حديدياً من سريرها. واحدة رفعت حجراً ثقيلاً كنا نجلس عليه كمقعد. واحدة أمسكت يد الهون الخشبي (كنا قد استعرناه من عنبر القتالات لطحن الفول) واحدة أمسكت حلة نحاس كنا نطبخ فيها العدس. واحدة أمسكت الوابور الحديدي. من لم تجد شيئاً أمسكت صحنها من الألومونيوم.

بدأنا نضرب قضبان الباب ونحن نهتف في نفس واحد: سنحطّم هذا السجن! لن نموت دون ضجّة!

ارتجّ الباب الحديدي تحت الضربات العنيفة. ارتجّ السجن بالصوت الذي أصبح كهدير الشلّال.

خرج المارد الجبّار من أعماق الإنسان المهدَّد بالموت. القوة

الكامنة الحبيسة منذ زمن بعيد. الطاقة المخزونة المكبوتة منذ الماضي السحيق، منذ الطفولة، منذ الولادة، بل قبل الولادة، منذ كان الإنسان جنيناً في بطن أمه.

هرعت إدارة السجن إلينا. ما الذي حدث؟ ما الذي رفع الغطاء عن المارد المحبوس في القوقعة؟!

مات زميل لنا في السجن وكلنا مهدّدات بالموت. لماذا نظل في السجن ورئيس الجمهورية صرّح بأن التحفظ ليس عقوبة؟! لماذا نعاقب بالحبس دون جريمة؟ دون اتهام؟! دون تحقيق عادل؟! دون أن نعرف نتيجة التحقيق؟!

تكلّم معنا مسؤول السجن، وضابط المباحث، ومسؤولون آخرون. قالوا إن المدعي الاشتراكي ينظر في كل الحالات... وسوف يطلق سراح أي حالة تثبت براءتها.

قلنا بغضب: لا جديد في هذه العبارة! منذ متى يبحث المدعي الاشتراكيّ الحالات؟ وهؤلاء الأبرياء إلى متى يظلّون وراء القضبان؟ وهل يعوضون عن تلك الأيام والأسابيع والشهور التي قضوها في السجون دون ذنب ودون جريمة؟!

وقال ضابط المباحث: ليس عندي إجابات على هذه الأسئلة.

وسألنا: من عنده الإجابات.

قال: المدعي الاشتراكي، والنائب العام، ورئيس الجمهورية.

وانتهت الثورة داخل العنبر كما كانت تنتهي كل مرة بحصولنا

على ورقة وقلم، وكتبنا بياناً إلى رئيس الجمهورية، والمدعي الاشتراكي والنائب العام. . . قلنا فيه ما يأتي:

نعلن احتجاجنا، نحن النساء والفتيات المودعات بسجن القناطر الخيريّة. نحن السجينات السياسيّات. وبيننا الأم التي حرمت إرضاع مولودها. والحامل في الأسابيع الأخيرة بدون الرعاية النفسيَّة والجسميّة الواجبة. والأمهات اللائي حرمن رؤية أطفالهن وأزواجهن شهوراً متتالية. والمريضات اللائي طلبن العرض على الطبيب الإختصاصي دون جدوى. والطالبات اللائي حرمن الدراسة. نحن اللائي أخذن عنوة من بيوتنا ومن وسط أهالينا بغير جريمة، وألقين في زنازين السجن تحت أسوأ الظروف الإنسانيَّة، متعرضات لأنواع شتى من القهر النفسي والمادي، ولأضرار خطيرة، ابتداء من الأضرار النفسية والمعنوية والأدبية إلى الأضرار الجسمية والاجتماعية والمهنية والعائلية. ولا زلنا حتى اليوم نتعرض لهذه الأضرار التي تمثل عقوبة تمارس ضدنا رغم التصريحات المتعدِّدة لرئيس الجمهورية الجديد بانتفاء صفة العقوبة على المتحفظ عليهم. هذه العقوبة المستمرّة بشتى أشكالها، ويكفينا الحرمان من رؤية أطفالنا وأهالينا. ويكفينا ما نعانيه من إهمال مقصود أو غير مقصود لصحتنا الجسمية والنفسية. ذلك الإهمال الذي أودى بحياة زميل لنا، والذي قد يودي بحياة أي واحدة منا.

ونحن إذ نعلن احتجاجنا على استمرار حبسنا حتى اليوم، نطالب بالإفراج عنا فوراً، وإدانة كل أنواع القهر النفسي

والمادي، وكافة أنواع التعذيب المعنوية والجسمية التي يتعرض لها السجين السياسيّ أو السجينة السياسيّة، ونطالب بإلغاء القرارات والقوانين المقيدة للحريات، كما نطالب بإيقاف حملات الافتراء والأكاذيب التي تنشرها الصحف.

وقعنا جميعاً على البيان وسلَّمناه لضابط المباحث، وانتظرنا الرد.

*

في صباح أحد الأيام، (يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٨١) فتحت إحدى الصحف (جريدة الأحرار) فقرأت في الصفحة الأولى أسماء بعض المتحفظ عليهم، وقرأت اسمي بينهم، وأن هؤلاء قد اتهموا بواسطة المخابرات العامة بتنفيذ مخطط سوفييتي تشارك فيه قوى الرفض لإحداث حالة من الفوضى بالبلاد من خلال المتاجرة بمشاكل الجماهير وإذكاء الخلافات الطائفية واستغلال الجماعات الإسلاميَّة وتحريض الشعب على القيام بثورة تتجه بالبلاد نحو الشيوعية.

كيف تنشر الجريدة هذا الخبر الكاذب؟ إن المخابرات والمباحث لم تستطع أن توجِّه إليّ مثل هذه التهمة، ولم يرد في أسئلة المدعي الاشتراكي لي أي سؤال عن مثل هذا التآمر؟!

فتحت الشاويشة الباب فوجدتني ثائرة غاضبة. هدَّدت بحرق العنبر بالكبريت والجاز. أسرعت الشاويشة تجري وعادت ومعها ضابط المباحث ومسؤولي السجن.

قلت بغضب: سمعتي الوطنيَّة تساوي حياتي، ولن أسكت على هذا الكذب والافتراء وتشويه السمعة!

لم أهدأ إلا بعد أن أرسل ضابط المباحث إشارة عاجلة باحتجاجي ورغبتي في الرد على الجريدة.

تلك الليلة لم يغمض لي جفن. أيّ قهر هذا الذي يمارس ضدنا ونحن وراء القضبان لا نملك الردّ أو الدفاع عن أنفسنا؟!

أي جريمة تقترف في حقي كإنسانة مصرية لم تدخل السجن إلا بسبب مواقفها وكتاباتها الوطنية الداعية إلى العدالة والحريّة؟!

مما زاد غضبي أنني أصبحت أقرأ في الصحف بعد موت السادات مقالات تنقد سياسته وتدعو إلى الوقوف بحسم ضد الفساد والظلم والمحسوبية، وكلمات كثيرة أصبحت تنشر تشبه الكلمات التي سبق أن نشرتها في عهد السادات والتي حبسني بسببها.

الدماء تغلي في رأسي. جسدي يرتعد بالغضب.

أمسكت رأسي بيدي... الأفضل أن أهدأ فأنا ما زلت وراء القضبان، ولا أملك وسيلة الدفاع عن نفسي....

هدأت قليلاً.... ثم أمسكت ورقة وقلماً ووجدتني أكتب هذه الرسالة إلى رئيس الجمهورية....

السيد حسني مبارك/رئيس الجمهورية

تحية طيبة

رغم وجودي في سجن القناطر إلا أني سمعت تصريحكم عن أن سيف القانون لن يفرّق بين كبير وصغير. وقد اقترفت في حقي جريمتان:

الجريمة الأولى هي إدخالي السجن منذ ١٩٨١/٩/٦ وحتى اليوم دون أي جريمة إلا موقفي المعلن وكلماتي المنشورة في الصحف دفاعاً عن حريّة الرأي والحقوق الأساسيَّة للإنسان والشعب المصري. ويمكن لكم أن تتأكدوا من ذلك بالاطلاع على محضر التحقيق الذي أجراه معي المدعي الاشتراكي.

أما الجريمة الثانية فهي تشويه سمعتي الوطنيّة والأدبيَّة وأنا داخل السجن لا أملك وسائل الدفاع أو الرد. وقد نشرت جريدة الأحرار في صفحتها الأولى بتاريخ ١٩٨١/١١/٢٣ خبراً كاذباً يلوّث اسمي الوطني الناصع البياض، ويصوِّر للرأي العام أن التهمة التي وجهت إليّ هي الاشتراك في تنفيذ مخطط سوفييتي لإحداث فوضى بالبلاد، هذه التهمة التي لم تجرؤ المخابرات أو المباحث على توجيهها إليّ.

ويزيد وقع هاتين الجريمتين عليّ حين أقرأ في الصحف اليوم كلمات هي نفسها الكلمات التي سبق أن كتبتها والتي بسببها دخلت السجن، لكنهم اليوم أصبحوا يتسابقون لكتابتها بمثل ما تسابقوا بالأمس لإدانتها.

كل ذلك وأنا لا زلت بالسجن أنتظر الإفراج. إلا أن الإفراج عني لا يعني خروجي من السجن فحسب، ولكنه يعني أيضاً تطبيق الوعد الذي أخذته على نفسك، وقد أكدت بأنك لن تعد شيئاً تعجز عن الوفاء به.

وقد وعدت أن سيف القانون لن يفرّق بين كبير وصغير. فهل يتجه سيف القانون ضد كل من اشترك في الجريمتين السابقتين؟! وهل يمكن أن ترد لي حقوقي القانونية والإنسانية والوطنية والأدبية التي أهدرت على مدى الشهور والأسابيع والأيام؟

إن سمعتي الوطنيَّة وكرامتي الأدبيَّة تساوي حياتي تماماً، لا فرق. فأنا لم أرثهما عن أب أو جد. ولم تمنحهما لي سلطة أو منصب، لكني بنيتهما على مدى السنين بكفاحي وإصراري، واستطعت أن أصنع بهما اسمي: نوال السعداوي، الكاتبة المصريَّة، المعروفة بقلمها الحر وفكرها الشجاع الأصيل، في مصر وفي الوطن العربيّ وفي العالم كله.

فهل يمكن أن تفي بهذا العهد الذي قطعته على نفسك. أرجو ذلك. وشكراً وتحيّة.

*

انتهيت من كتابة الرسالة حين سمعت صوت الكروان... نهضت من السرير وسرت إلى الباب... دسست رأسي بين القضبان... نسمة الفجر الرطبة المنعشة... وضوء الشفق يزحف من بعيد... صوت الكروان يتردد متقطعاً كالشهقات،

كالنداء، كالنشيج، كطفل يشهق بالضحكات.. أو البكاء.

وجه ابني يلوح في الظلام... عيناه تلمعان ومن خلفي سمعت صوت الزميلات المنقبات... أذان الفجر والصلاة....

ارتديت الحذاء الكاوتش وبدأت التمرينات الرياضية. الحركات العنيفة تشعرني بالراحة. العرق يتصبب غزيراً... يغسل الأرق ويغسل التعب.

وضعت رأسي تحت الماء البارد، الآن فقط أشعر بانتعاش، وجوع أو ظمأ مجنون لكوب من الشاي.

لم أكد أحوط الكوب الساخن بيدي حتى سمعت المفتاح يدور في الباب.... ورأيت المأمور منتصباً أمامي....

قال بانفعال يكتمه: دكتورة نوال... أعدي حقيبتك وتعالي معي.

انتفضت واقفة: إلى أين؟!

قال: لا أعرف.

قلت: إفراج؟

قال: لا أعرف!

حوطتني الزميلات... لا بد أنه إفراج...

قلت: إذا كان إفراجاً فلماذا لا يقول ذلك. لا بد أنها جلسة تحقيق أو انتقال إلى سجن آخر!

تركني المأمور لأعد حقيبتي. أقاوم الإحساس بالفرح. ربما لا

يكون إفراجاً وقد أعود إلى السجن مرة أخرى.

لكن إذا كنت سأعود مرة أخرى لماذا يطلب مني إعدادحقيبتي؟

دسست الملابس في الحقيبة. في علبة كرتون صغيرة وضعت أصابع السلك الألومونيوم، مجموعة من «رولو» الشعر (سلك على شكل أصابع تلف به النساء شعرهن) لم أكن ألف شعري بهذه الأصابع السلكية، لكني كنت قد خبأت داخلها كل أوراقي ومذكراتي كل ليلة.

أسرعت كل زميلة تناولني رسالة صغيرة وهي تهمس في أذني:

«لو خرجت إفراج أرسلي هذه إلى أهلي».

خبأت الرسائل داخل حذائي الكاوتش، ومعها رسالتي إلى رئيس الجمهورية.

كنت أتوقع أن يفتشوني عند الباب، لكن أحداً لم يفتشني. رأيت باب السجن الكبير مفتوحاً على مصراعيه. وكل شيء من حولي يجري ويلهث. سلّمني المأمور بسرعة الجنيهات الباقية لي في الأمانات، وبطاقتي، وأشيائي التي أخذها مني أول ليلة جئت فيها إلى السجن. الكل يبدو متعجلاً، الضباط يلهثون.

عيونهم ترمقني بشيء غامض يشبه الاحترام أو الرهبة.

قادوني بسرعة إلى سيارة ملاكي صغيرة. جلست في المقعد الخلفي. انطلقت السيارة تجري وتلهث... حتى السائق يبدو وكأنه يلهث.

تلفت حولي بدهشة: ما الذي حدث؟

- خير إن شاء الله
- إلى أين تحملونني؟
- خير إن شاء الله
- سنحملك إلى مكان معين
- ما هو هذا المكان المعين
- ستعرفين حين تصلين.

من لهجتهم أحس أن شيئاً ما خطيراً قد تغيَّر. ما هو؟ وما هذه الرحلة الجديدة نحو المجهول؟ وإذا كانت «خيراً» كما يقولون فلماذا هذا الإخفاء والتكتم؟ ولماذا تكون رحلة سريَّة بهذا الشكل؟!

طوال حياتي أتشكك في أي شيء «سرّي». لا أطيق الهمس، والتخفي، وعدم المواجهة.

لماذا لا يقولون الحقيقة؟!

أسندت رأسي إلى مسند السيارة. رجلان يجلسان أمامي، أحدهما يسوق، والآخر ينظر إلى الطريق. رجلان غريبان عني تماماً... لم أرهما إلا الآن، والسيارة الفولكس الصغيرة كالعلبة الحديدية تنطلق بهذه السرعة الجنونية إلى أين؟

أهي محاولة خفية سريعة لإعدامي وإخفاء جثتي في بطن الأرض؟

أهو إفراج؟! ولكن هل يخفى الإفراج بهذا الشكل؟ ولماذا؟!

أسئلة عديدة تدور في رأسي. أرتفع إلى قمة التفاؤل والفرح ثم أهبط إلى حضيض اليأس والغضب.

من حقي أن أعرف إلى أين يحملونني سواء إلى الجنّة أو الجحيم. لايهم إلى أين أذهب، ولكن الأهم أن أعرف. أنا إنسانة ولست «طرداً» يحمل من مكان إلى مكان. المعرفة حق لي، وليأخذوني بعد ذلك إلى حيث يشاؤون.

الطريق المجهول يبدو مخيفاً ومفزعاً وإن كان في نهايته الفردوس.

السيارة تطير فوق الأرض بسرعة عجيبة، وأنا داخلها أهتز كريشة في مهب الرياح. عيناي ترقبان الشوارع والناس. اتسعت عيناي بدهشة. رأيت امرأة تسيرفي الشارع وتحرّك ذراعيها بحرية غريبة. يبدو أنها في طريقها إلى بيتها؟!

السير في الشارع أو العودة إلى البيت أعجوبة.... أمر خارق العادة. ضرب من المستحيل.

منذ متى لم أسر في الشارع ولم أعد إلى بيتي؟! منذ ثمانين عاماً؟! ربما.... أو في زمن آخر غير الزمن.... في دنيا غير الدنيا... ربما منذ كنت طفلة أو تلميذة في الابتدائي.

لمحت امرأة تقود سيارة، وتنحرف في طريق جانبي. ورجلاً يدخل إلى محل بقالة. كيف يتحرك الناس بهذه البساطة في الشوارع؟!

الحريّة تاج على رؤوس الناس لا يراها إلا المسجون.

توقفت السيارة أمام قصر كبير.... هبط الرجلان بسرعة، وهبطت أيضاً.

قال أحدهما: ستقابلين السيد رئيس الجمهورية الآن.

خفقة قلب سريعة. وابتسامة حذرة. ما زلت أحمل السجن داخلي.

والسجن هو أن تشك فيما تسمع، حتى ترى بعينيك وتلمس بيديك وتتأكد بنفسك.

في البهو الأنيق رأيت ثلاثين وجهاً من المتحفظ عليهم. بعضهم مندهش لا يصدق بعد. بعضهم فرح يغلبه الفرح. بعضهم متألم يسترجع آلامه.

أصواتهم تتعانق. قلوبهم تخفق. الضوء قويّ مبهر يؤلم العيون المرهقة. عيون شابة وعيون عجوز. وعيون ليس لها عمر، كأنما أكبر من الزمن لا تشيخ ولا تموت. عيون الإنسان المصري البسيط يدخل بحذائه المترب وملابسه المعفرة بتراب السجن ليقول كلمته أمام التاريخ.

مدّ يده نحوي وصافحني. يده مفتوحة مخلصة صريحة ومباشرة. تلاشى السجن ومعه الشّك من داخلي. تحرّرت وأمسكت حريتي بيدي. وفي أذني يرنّ صوته. كلماته مخلصة صريحة. مختصرة ومباشرة. كلمات كانت تشتاق إليها آذاننا. العدالة. المساواة. الحرية. الانتاج. العمل. احترام الرأي المخالف. الديموقراطية. مصر عربية افريقية. سيف القانون لا

يفرق بين كبير وصغير، الحرب على الفساد والقضاء على استغلال الأقليّة المتميزّة للأغلبية المطحونة.

أعطيته رسالتي. قرأها كلها. ثم رفعت يدي وقلت كلمتي. قلت إن الحاكم مهما صلح لا يستطيع أن يحكم وحده كفرد، وإن هناك دائماً طبقة تعزله عن الناس، وتحوّل الشعب إلى أغلبية متفرّجة سلبية. وإن الديموقراطية لا يمكن أن تتحقق دون أن تكون هناك ضمانات قانونية لحماية كل صاحب رأي من بطش السلطة، وإلا فسوف يقضي الخوف على عقول المصريين والمصريات.

انتهى اللقاء، ثم خرجنا. تلفت ورائي. ظننت أنهم سيحملونني مرة أخرى إلى السجن، إلا أن أحداً لم يقترب مني. سرت بحذر نحو باب الخروج. أوقفني أحد الصحافيين وأنا خارجة عند باب القصر، وصاح مندهشاً وهو ينظر إلى حذائي: حذاء كاوتش في قصر العروبة؟! قلت وأنا أخطو إلى الشارع أحمل حرّيتي في عيني كضوء الشمس: ولماذا تنظر إلى حذائي يا صديقي، أنظر إلى عيني!

*

وقفت في الطريق مذهولة، أحمل حقيبتي. الناس من حولي تهرول إلى أعمالها، والسيارات في سباق جنونيّ على أرض الشارع.

لا أحد يتوقف وينظر إلى وجهي. لم أنظر إلى وجهي في

المرآة منذ دهر، هل وجهي كما كان؟! ألا يلحظ أحد تراب السجن فوق ملامحي؟!

حرّكت ذراعي وساقي وسرت مثل الناس. هل أصبحت واحدة من الناس. هل أنتمي إلى هذا العالم ويمكنني أن أستقل تاكسياً وأعود إلى بيتي؟ هكذا ببساطة؟!

توقفت لحظة. وضعت الحقيبة على الأرض. لمحت تاكسياً مقبلاً فأشرت له بيدي. توقف التاكسي.

ركبت وقلت للسائق: الجيزة....

وانطلقت السيارة....

كل شيء بدا كالحلم. شارع الجيزة كأنني لم أره منذ قرن، وشارع النيل، والكوبري، ثم انحرفت السيارة وتوقفت ورأيت باب بيتي.

ما زلت أسير كالنائمة. ضغطت بإصبعي على جرس الباب. انفتح الباب.... ورأيت وجه زوجي.

لحظة كالخيال. كتلك المشاهد التي تحدث في القصص والروايات. من الزنزانة إلى قصر رئيس الجمهورية إلى ذراعي زوجي في بيتنا؟!

كل ذلك في صباح يوم واحد هو ٢٥ نوفمبر ١٩٨١. التاريخ الثالث المحفور في ذاكرتي، ومعه ٦ أكتوبر، ٦ سبتمبر، ٢٨ سبتمبر.

أربعة تواريخ كلها في خريف ١٩٨١ وكلها في مصر.

عاد ابني وابنتي في الساعة الثالثة بعد الظهر. اختبأت لأراهما دون أن يرياني. رأيت عيونهما وهما يتطلعان إلى مقعدي الخالي إلى المائدة، وسريري الخالي في غرفة النوم.

حزن عميق مكتوم. حوَّل عيون الأطفال إلى عيون عجوز.

لو رأيت عيونهما هذه لانهزمت داخل السجن. لكن خلايا عقلي دفنت ملامحهما في مكان ما لا أدريه، وخيالي عجز عن أن يرسم الحزن في عيونهما. وناديت عليهما... وكانت لحظة أخرى خارج الكون والحقيقة. التفت ذراعي حول الجسمين اللذين لم يعودا جسمي طفلين.. والعيون التي لم تعد عيون أطفال...

وفي العناق رأيت اللّمعة تعود إلى سواد العين، والطفولة كلها تعود ومعها الحنين وشوق ثمانين عاماً من البعد والألم العميق، وشيء في أعماقي يقول: انتهت هذه المرحلة من حياتي والآن بدأت مرحلة أخرى.

الجــــزء الأخيــــر

فتحت عيني في الصباح فلم أر السقف الأسود. أغمضت عيني ثم فتحتهما. لم أر الجدران المشققة الكالحة ولا القضبان الحديدية فوق الباب.

أغمضت عيني ثم فتحتهما. رأيت المكتبة البيضاء وصفوف الكتب. صورتي في الاطار إلى جوارها صورة زوجي. وجه ابني يطل من الباب. صوت ابنتي تغني في الحمام.

أغمضت عينيّ وعاد إليّ صوتي وأنا أغني تحت الدش وبين قدمي الثقب المملوء حتى الحافة بالصراصير السوداء الطافية. رفعت البطانية الدافئة الناعمة من فوقي وانتفضت واقفة. زميلاتي ما زلن هناك. لم يخرج في قرار الإفراج الأول إلا واحد وثلاثون سجينة منهم أنا وصافيناز.

تلفت حولي. الوجوه الثلاثة أمامي. العيون الست من حولي. تحوطني. أملأ عينيّ بملامحهم. أحفر الملامح في ذاكرتي. من يدري؟ ربما نفترق. قد أعود إلى السجن. اليوم أو غداً أو بعد عام. لا شيء مضمون. لكن السجن لم يعد ذلك الشبح المجهول

المخيف. وزميلاتي ما زلن هناك؟ ترى ماذا يفعلن الآن؟ ولماذا لم يفرج عنهن؟

وأغمضت عيني. ورأيتهن أمامي. جالسات على الأرض المتربة. وجوه شاحبة مرهقة. عيون قلقة مؤرقة. أقدام معفّرة اسودّت كعوبها. وانتفضت جفوني مفتوحة.

قلت: لنذهب الآن!
قال: إلى أين؟
قلت: إلى السجن.

حنين مفاجىء غريب. ولم يندهش زوجي. وقال بهدوء: زمالة السجن ليست كأي زمالة.

سارت بنا السيارة في طريق القناطر الخيرية. عن يميني الحقول الخضراء الممتدة. وعن يساري النيل.

تذكرت الرحلة المجهولة في هذا الطريق نفسه وإلى جواري الضابط، ومن خلفي رؤوس الرجال والبنادق. أدرت رأسي ونظرت إلى الخلف. علب الطعام على المقعد الخلفي. تشبه العلب التي كان يرسلها إليّ كل ثلاثاء.

حركت رأسي ناحيته. أصابعه الطويلة النحيلة حول عجلة القيادة. عيناه شاخصتان إلى الأمام. مزيج من السعادة والحزن. والتفت ناحيتي. حوطت يده بيدي وقلت: كل ثلاثاء كنت تقطع هذه المسافة الطويلة.

فقال: كل ثلاثاء كنت أظن أنني سأراك.

رفعت رأسي نحو الطريق. أصبحت القناطر خلفنا. وانحرفت السيارة داخل الطريق الجانبي. ثم السرداب الطويل. اختفت رائحة الزرع والنيل. ملأت أنفي رائحة التراب.

في نهاية السرداب رأيت العمود الطويل يسدّ الطريق. توقفت السيارة عند العمود. برز من جانب الطريق رجل نحيل عيناه تلمعان وتتحركان بسرعة كعيني قاطع طريق. أسرع يجري بظهر منحنٍ وشدّ العمود. ارتفع العمود في الهواء عن مساحة تسمح بمرور السيارة ثم سقط مرة أخرى وأغلق الطريق خلفنا.

انفتح الباب الضخم. حفل استقبال. المسؤولون والضابطة والشاويشة كلهم عيون تلمع. وأصوات كالرنين ترحب: أهلاً أهلاً. السجن نوّر. رأينا صورتك في الصحف بالأمس مع رئيس الجمهورية.

حملت الشاويشة علب الطعام إلى الزميلات في العنبر وعادت تخبىء في صدرها ورقة مطوية. خبأتها في حقيبة يدي.

في طريق العودة رأيت سيارة تسرع خلفنا ثم تقطع الطريق علينا وتقف أمامنا. أوقف زوجي السيارة وهبطنا. ورأيت المسؤول البوليسي الكبير ذا العصا. تصوّرت أنه سيأخذني مرة أخرى إلى السجن. لكنه اقترب مني باسماً وهمس في أذني: «إذا قابلت السيد نائب الرئيس النبوي اسماعيل فاذكري اسمي. إن لي ترقية متأخرة».

ثم ركب سيارته وانصرف مسرعاً.

لا بد أن الدم هرب من وجهي. لأن زوجي نظر إليّ وتساءل: ماذا حدث؟

وقلت بدهشة: تصوَّر؟

وقال بهدوء: نعم أتصور.

فتحت حقيبتي، وقرأت الورقة المطوية: «حاولي كل جهدك مع الأطباء حتى ننتقل إلى مستشفى القصر العيني أو مستشفى الدمرداش».

وتوجهنا بالسيارة إلى كلية طب عين شمس. أحجم زملاؤنا الأطباء عن المساعدة إلا زميل واحد. رئيس قسم الأمراض النفسية. أخلى للسجينات غرفة في القسم. وفي اليوم التالي انتقلت الزميلات من السجن إلى تلك الغرفة. وبعد أيام صدر قرار بالإفراج عنهن جميعاً.

وفرَّقتنا الأيام ومشاغل الحياة. لكن ما أن ألتقي بواحدة من الزميلات في أي مكان حتى نتعانق ونتذكَّر أيام السجن. كأنما للسجن وحشة. أو كأنما الزمالة في السجن لا تنسى، ولا تموت. ومن يدري ربما تعود.

فهرست